فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خال من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية

يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري

أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"

"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه

خادم العلم

عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء السادس



١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية   المطبعة العصرية

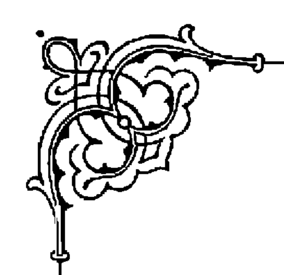
بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس LE ٢٩١٩٨



الجزء السادس
بسم الله الرحمن الرحيم
أوله تفسير سورة يونس من قوله تعالى:
﴿الر تلك آيات الكتاب الحكيم ۝١﴾
- سورة هود
- سورة يوسف إلى آخر السورة







سورة يونس عليه السلام

وهي مائة وتسع آيات وهي مكّية . قال الحسن وعطاء وعكرمة وجابر: الا ثلاث آيات ﴿ فان كنت في شك ﴾ الى آخرهن قاله ابن عباس وبه قال قتادة. وقال مقاتل الا آيتين ﴿ فان كنت في شك ﴾ الى آخرهما أو ثلاث . وقال الكلبي الا قوله ﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ الآية فانها نزلت بالمدينة .

وقالت فرقة من أولها نحو من أربعين آية مكي وباقيها مدني . قاله القرطبي. وقال ابن سيرين : كانت هذه السورة بعد السابعة . واخرج ابن مردويه عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ان الله أعطاني الرائيات أي الطواسين مكان الانجيل .

وعن الاحنف قال : صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس وهود وغيرهما ؛ قال الصاوي : سميت السورة بذلك لذكر اسمه فيها وقصته ، وقد جرت عادة الله بتسمية السورة ببعض أجزائها .



الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

﴿الٓر﴾ قال الجلال: الله اعلم بمراده بذلك، قال الصاوي: هذا أحد الأقوال: وهو أتمها واسلمها. اهـ.

وقد تقدم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة في أوائل السور في أول سورة البقرة فلا نعيده ففيه ما يغني عن الاعادة.

وقد قيل إن معنى ﴿آلر﴾ أنا الله أرى. قال النحاس: ورأيت أبا إسحاق يميل الى هذا القول لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب، وقال الحسن وعكرمة ﴿آلر﴾ قسم، وقال قتادة ﴿آلر﴾ اسم للسورة، وقيل غير ذلك مما فيه تكلف لعلم ما استأثر الله بعلمه.

وقد اتفق القراء على أن ﴿آلر﴾ ليس بآية وعلى أن ﴿طه﴾ آية، وفي مقنع أبي عمرو والداني أن العادّين لـ «طه» آية هم الكوفيون فقط، ولعل الفرق أن ﴿الٓر﴾ لا تشاكل مقاطع الآي التي بعدها.

﴿تلك﴾ أي ما تضمنته السورة من الآيات والتبعيد للتعظيم، وقيل الآيات المتقدمة على هذه السورة، وقال مجاهد وقتادة: أراد التوارة والانجيل وسائر الكتب المتقدمة فإن تلك اشارة الى غائب مؤنث، وقيل تلك بمعنى هذه اي هذه ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾ وهو القرآن، ويؤيد كون الاشارة الى القرآن انه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر وان الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره، والاضافة بمعنى من لأن هذه السورة بعض القرآن، والحكيم المحكم بالحلال والحرام والحدود والاحكام، قاله أبو عبيدة وغيره.

وقيل الحكيم معناه الحاكم فهو فعيل بمعنى فاعل، كقوله ﴿وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس﴾ وقيل بمعنى المحكوم، اي حكم الله فيه بالعدل والاحسان قال الحسن وغيره. وقيل الحكيم ذو الحكمة لاشتماله عليها، وقيل الحكيم المنظوم نظماً متقناً لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه، وقيل الممتنع من الفساد، فيكون المعنى لا تغيره الدهور والمراد براءته من الكذب والتناقض.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾

والاستفهام في قوله ﴿أكان الناس عجباً أن أوحينا﴾ لانكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ، أي أكان ايحاؤنا عجباً للناس، والعجب حالة تعتري الانسان من رؤية شيء على خلاف العادة، وقيل العجب ما لا يعرف سببه والمراد بالناس هنا أهل مكة، يعني قريشاً .

﴿الى رجل منهم﴾ أي من جنسهم، وليس في هذا ما يقتضي العجب فإنه لا يلابس الجنس ويرشده ويخبره عن الله سبحانه إلا من كان من جنسه، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة او من الجن ويتعذر المقصود حينئذ من الارسال لانهم لا يأنسون اليه ولا يشاهدونه ، ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره فإما أن يظهر في غير شكل النوع الانساني وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من انسهم أو في الشكل الانساني فلا بد من انكارهم لكونه في الاصل غير انسان .

هذا ان كان العجب منهم لكونه من جنسهم، وان كان لكونه يتيماً او فقيراً فذلك لا يمنع من ان يكون من كان كذلك جامعاً من خصال الخير والشرف مالا يجمعه غيره وبالغاً في كمال الصفات الى حد يقصر عنه من كان غنياً او غير يتيم، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يصطفيه الله بالرسالة من خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر من الشمس وأظهر من النهار حتى كانوا يسمونه الأمين ﴿أن أنذر الناس﴾ أي خوفهم .قيل: أن هي المفسرة لأن في الايحاء معنى القول، وقيل مصدرية والانذار إخبار مع تخويف كما أن البشارة إخبار مع سرور.

﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة كمسجد الجامع وصلاة الأولى وحب الحصيد، وفائدة هذه الاضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لأن كل شيء أضيف الى الصدق فهو ممدوح ومثله مقعد صدق ومدخل صدق.

واختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة في معنى قدم صدق، فقيل منزل صدق، وقال الزجاج: درجة عالية، وقال ابن الاعرابي : القدم المتقدم في الشرف وقال أبو عبيدة والكسائي : كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قدم ، يقال لفلان قدم في الاسلام وله عندي قدم صدق وقدم خير وقدم شر.

وقال ثعلب: القدم كل ما قدمت من خير. وقال ابن الانباري: القدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تأخير ولا ابطاء، وقال قتادة: سلف صدق، وقال الربيع والضحاك: ثواب صدق، وقال الحسن: هو محمد صلى الله عليه وسلم يشفع لهم، ونحوه عن زيد بن أسلم وهو قول قتادة.

وقال الحكيم الترمذي : قدمه صلى الله عليه وسلم في المقام المحمود، وقال مجاهد: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم ، وقيل عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه. قاله الحسن.

وقال الليث وأبو الهيثم: القدم السابقة أي سبق لهم عند الله خير، وقال مقاتل: أعمالاً قدموها واختاره ابن جرير. قال ابن عباس: ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأول يعني اللوح المحفوظ. وقال أيضاً : أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم .

وعن ابن مسعود قال: القدم هو العمل الذي قدموه ، قال الله سبحانه ﴿سنكتب ما قدموا وآثارهم﴾ والآثار ممشاهم، قال: مشى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين اسطوانتين من مسجده ثم قال: هذا أثر مكتوب، وقيل غير ما تقدم مما لا حاجة الى التطويل بإيراده والروايات من التابعين وغيرهم في هذا كثيرة وقد قدمنا أكثرها، والسبب في اطلاق لفظ القدم على هذه المعاني أن

السعي والسبق لا يحصل إلا بالقدم، فسمي المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يداً لأنها تعطي باليد.

﴿قال الكافرون ان هذا لسحر مبين﴾ قرىء لساحر على أنهم أرادوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باسم الاشارة وقرىء لسحر على أنهم أرادوا القرآن، وقد تقدم معنى السحر في البقرة ، والجملة مستأنفة كأنه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب ؛ وقال القفال: فيه اضمار والتقدير فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك.

ثم إن الله سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار من الايحاء إلى رجل منهم فقال ﴿ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ من أيام الدنيا أي في قدرها لأنه لم يكن ثمَّ شمس ولا قمر، ولو شاء لخلقهن في لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التأني والتمهل في الأمور ، وتخصيص الستة بالذكر مع أن التثبت يتأتى بأقل منها وبأزيد عليها قد استأثر الله بعلمه.

والمعنى ان من كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوره كيف يكون ارساله لرسوله الى الناس من جنسهم محلاً للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة لهذا الرسول.

﴿ثم استوى على العرش﴾ استواء يليق به وهذه طريقة السلف المفوضين وقد تقدم تفسير هذه الآية في الاعراف بما فيه كفاية فلا نعيده هنا، قال الكرخي: ان الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف. انتهى فهذه الصفة يجب الإيمان بها وإمرارها على ظاهرها من غير تأويل ولا تكييف ولا تعطيل ولا تمثيل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وطريقة الخلف المؤولين محجوجة بنصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة وأئمتها، وظاهر الآية يدل على أنه تعالى انما استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض لأن كلمة ثم للتراخي وذلك يدل على أنه تعالى كان قبل العرش غنياً عنه، فلما خلقه امتنع أن تنقلب حقيقته وذاته عن الاستغناء إلى

الحاجة فوجب أن يبقى بعد خلق العرش غنياً عنه، ولكن لما قال هو سبحانه وتعالى باستوائه عليه وجب الايمان به على ما يليق لجلاله.

ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه مع ما مر من خلق هاتيك الأجرام العظام فقال ﴿يدبر الأمر﴾ وترك العاطف لأن جملة يدبر كالتفسير والتفصيل لما قبلها، وأصل التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول والشكل المحمود، وقال مجاهد: يقضيه ويقدره وحده على الوجه الأتم الأكمل، وقيل يبعث الأمر، وقيل ينزل الأمر، وقيل يأمر به ويمضيه، والمعنى متقارب؛ واشتقاقه من الدبر، والأمر الشأن وهو أحوال ملكوت السموات والأرض والعرش وسائر الخلق من الجزئيات الحادثة شيئاً فشيئاً على أطوار شتى لا تكاد تحصى.

﴿ما من شفيع﴾ يشفع عنده يوم القيامة ﴿إلا من بعد اذنه﴾ له في الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده في تدبيرهم فلا يجوز لأحد أن يسأله ما ليس له به علم، قال الزجاج: ان الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون ان الأصنام شفعاؤنا عند الله، فرد الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع اليه في شيء إلا بعد اذنه لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب، وله التصرف المطلق في العالم، وقد تقدم معنى الشفاعة في البقرة، وفي هذا بيان لاستبداده بالأمور في كل شيء سبحانه وتعالى.

﴿ذلكم﴾ أي فاعل هذه الأشياء العظيمة من الخلق والتدبير ﴿الله ربكم﴾ أي سيدكم لا رب لكم سواه، وفي هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله ﴿ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾ ﴿فاعبدوه﴾ أمرهم بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه وعظيم اقتداره فكيف تعبدون الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر.

والاستفهام في قوله ﴿أفلا تذكرون﴾ للانكار والتوبيخ والتقريع لأن من له أدنى تذكر وأقل اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)

ثم بين لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا فقال ﴿اليه مرجعكم جميعاً﴾ وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى ، والمراد بالمرجع الرجوع اليه سبحانه إما بالموت أو بالبعث أو بكل واحد منهما، وانتصاب ﴿وعد الله﴾ على المصدر أو هو منصوب بفعل مقدر.

ثم أكد ذلك الوعد بقوله ﴿حقاً﴾ فهو تأكيد للتأكيد، فيكون في الكلام من الوكادة ما هو الغاية في ذلك وقرىء وعدُ الله حق على الاستئناف.

ثم علل سبحانه ما تقدم بقوله ﴿انه﴾ بالكسر استئنافاً ﴿يبدأ الخلق﴾ أي ان هذا شأنه يبتدىء خلقه من التراب ﴿ثم يعيده﴾ اليه والخلق بمعنى المخلوق والمضارع بمعنى الماضي ، وعبر به استحضاراً للصورة الغريبة أو معنى الاعادة الجزاء يوم القيامة، قال مجاهد ينشئه ثم يميته ثم يحييه للبعث، وقيل ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال.

وقرىء أنه بالفتح وهي شاذة أي وعدكم الله انه يبدأ الخلق ثم يعيده أو التقدير لأنه يبدأ الخلق ، قال أحمد بن يحي : التقدير حقاً ابداؤه الخلق، وفي الآية دليل على امكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه، ورد على منكري البعث.

ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا

الصالحات بالقسط﴾ أي بالعدل الذي لا جور فيه أي يجزيهم متلبساً بالقسط أو متلبسين به أو بسبب قسطهم ، والمراد به هنا الايمان بدليل المقابلة في قوله بما كانوا يكفرون.

﴿والذين كفروا﴾ يحتمل وجهين أحدهما أن يكون مرفوعاً بالابتداء وجملة ﴿لهم شراب من حميم وعذاب أليم﴾ خبره والثاني أن يكون منصوباً عطفاً على الموصول قبله وتكون الجملة بعده مبينة لجزائهم، وقيل الجملة في محل نصب على الحال أي حال كونهم لهم هذا الشراب وهذا العذاب المؤلم.

ولكن يشكل على ذلك ان هذا الشراب وهذا العذاب الأليم هما من الجزاء والحميم الماء الحار الذي قد انتهى حره، وكل مسخن عند العرب فهو حميم، وتغيير الأسلوب للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيه على ان المقصود بالذات من الابداء والاعادة هو الاثابة والعذاب وقع بالعرض وأنه تعالى يتولى اثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه، ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه اليهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي بسبب كفرهم.

﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾ ذكر ههنا بعض نعمه على المكلفين وهو مما يستدل به على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته باتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدوام بعد ما ذكر قبل هذا ابداعه للسموات والأرض واستواءه على العرش وغير ذلك.

والضياء قيل جمع ضوء كالسياط والسوط والحياض والحوض والأولى أن يكون ضياء مصدراً لا جمعاً ولا بد من تقدير مضاف أي جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور إلا أن يحمل على المبالغة كأنهما جعلا نفس الضياء والنور قيل الضياء أقوى من النور، وقيل هو ما كان بالذات والنور ما كان بالعرض، فما قام

بالشمس يقال له ضياء وما قام بالقمر يقال له نور.

ومن هنا قال الحكماء ان نور القمر مستفاد من ضوء الشمس، والشعاع الفائض من الشمس قيل جوهر ، وقيل عرض ، قال الصاوي: والحق انه عرض لقيامه بالأجرام ، وضياء مفعول ثان ان جعل الجعل بمعنى التصيير، وحال ان جعل بمعنى الخلق، قال السدي: لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكي يعرف الليل من النهار وهو قوله ﴿فمحونا آية الليل﴾ الآية ، قال ابن عباس: وجوههما الى السموات وأقفيتهما الى الأرض ، وعن ابن عمرو مثله.

﴿وقدره ﴾ أي قدر مسير القمر في ﴿منازل﴾ أو قدره ذا منازل وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك ان الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة في الشرع هي القمرية لا الشمسية، ومنازله هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به وجملتها ثمانية وعشرون وهي معروفة منقسمة على اثني عشر برجاً لكل برج منزلان وثلث منزل ينزل القمر في كل ليلة منزلاً منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين لا يتخطاه ، فيبدو صغيراً في أول منازله ثم يكبر قليلاً قليلاً حتى يبدو كاملاً، واذا كان في آخر منازله رق واستقوس ثم يستتر ليلتين لا يبصر ولا يرى إذا كان الشهر كاملاً أو ليلة إذا كان الشهر ناقصاً.

والكلام في هذا يطول وقد جمع الشوكاني فيه رسالة مستقلة جواباً عن سؤال أورده عليه بعض الأعلام ، وقيل ان الضمير راجع الى كل واحد من الشمس والقمر كما قيل في قوله تعالى ﴿واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها﴾ وقوله ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ وقد قدمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير والأولى رجوع الضمير الى القمر وحده كما في قوله تعالى ﴿والقمر قدرناه منازل﴾.

ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير فقال ﴿لتعلموا﴾ بذلك التقدير

﴿عدد السنين والحساب﴾ أي حساب الشهور والأيام والساعات ونقصانها وزيادتها ووقت دخولها وانقضائها، فإن في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى ، وفي العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي من ذلك ما لا يخفى. ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم، والسنة تتحصل من اثني عشر شهراً، والشهر يتحصل من ثلاثين يوماً إن كان كاملاً، ومن تسع وعشرين يوماً ان كان ناقصاً واليوم يتحصل من ساعات معلومة هي أربع وعشرون ساعة لليل والنهار، وقد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة وأيام النقصان، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف ذكرناه في لقطة العجلان وحجج الكرامة.

﴿ما خلق الله ذلك﴾ بين سبحانه انه ما خلق الشمس والقمر واختلاف تلك الأحوال ﴿إلا بالحق﴾ والصواب دون الباطل والعبث ، والاشارة بقوله ﴿ذلك﴾ الى المذكور قبله من جعل الشمس ضياء والقمر نوراً أو تقديره منازل والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال.

﴿يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ معنى التفصيل تبيينها والمراد بالآيات التكوينية او التنزيلية أو مجموعها ، ويدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولاً أولياً في ذلك، قرىء يفصل بالياء والنون وهما سبعيتان ، وعلى الثانية فيه التفات.

﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض من تلك المخلوقات فقال ﴿ان في اختلاف الليل والنهار﴾ أي في تعاقبهما وكون كل منها خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها أو في تفاوتهما في أنفسهما بازدياد كل منهما وانتقاص الآخر باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قرباً وبعداً بحسب الأزمنة أو في اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة أما في الطول والقصر فإن البلاد القريبة من القطب الشمالي أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها، وأما في أنفسها فإن كروية الأرض تقتضي أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً وفي مقابله نهاراً.

﴿وما خلق الله في السموات﴾ من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك ﴿والأرض﴾ من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغيرها ﴿لآيات﴾ دلالات على قدرته تعالى ﴿لقوم يتقون﴾ الله سبحانه ويجتنبون معاصيه، خصهم بهذه الآيات لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكر في مخلوقات الله سبحانه حذراً منهم عن الوقوع في شيء مما يخالف مراد الله سبحانه، ونظراً لعاقبة أمرهم وما يصلحهم في معادهم.

قال القفال: من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها وان خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل، واذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهي.

عن خليفة العبدي قال: لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد الا عن رؤية ما عبده أحد، ولكن المؤمنين تفكروا في مجيء هذا الليل اذا جاء فملأ كل شيء وغطى كل شيء وفي مجيء سلطان النهار اذا جاء فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وفي النجوم وفي الشتاء والصيف، فو الله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم حتى أيقنت قلوبهم بربهم، وقد تقدم تفسير هذه الآية في نظائرها.

﴿ان الذين لا يرجون لقاءنا﴾ شرع الله سبحانه في شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد ومن يؤمن به، وقدم الطائفة التي لم تؤمن لأن الكلام في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه، ويهملون النظر والتفكر فيما لا ينبغي اهماله مما هو مساعد لكل حي طول حياته فيتسبب عن اهمال النظر والتفكر الصادق عدم الايمان بالمعاد.

ومعنى الرجاء هنا الخوف وقيل الطمع ، فالمعنى على الأول لا يخافون عقاباً وعلى الثاني لا يطمعون في ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته، فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى لا يخافون رؤيتنا أو لا يطمعون في رؤيتنا، وقيل المراد بالرجاء هنا التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع فيكون المعنى لا يتوقعون لقاءنا فهم لا يخافونه ولا يطمعون فيه.

﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ عوضاً عن الآخرة فعملوا لها ﴿واطمأنوا بها﴾ أي وقد سكنت نفوسهم اليها وفرحوا بها ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ العطف انما هو لتغاير الصفات أي غفلوا عن آياتنا الكونية والشرعية لا يعتبرون بها ولا يتفكرون فيها قيل المراد بالآيات أدلة التوحيد وقيل محمد والقرآن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾

﴿أولئك﴾ أي المتصفون بالصفات السابقة من عدم الرجاء وحصول الرضا والاطمئنان والغفلة ﴿مأواهم النار﴾ أي مثواهم ومكان إقامتهم ﴿بما كانوا﴾ أي بسبب ما كانوا ﴿يكسبون﴾ من الكفر والتكذيب بالمعاد، فهذا حال الذين لا يؤمنون بالمعاد.

وأما حال الذين يؤمنون به فقد بينه سبحانه بقوله ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي فعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم بسبب ما وقع منهم من التفكر والاعتبار فيما تقدم ذكره من الآيات ﴿وعملوا الصالحات﴾ التي يقتضيها الايمان وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ أي يرزقهم الهداية بسبب هذا الايمان المضموم اليه العمل الصالح فيصلون بذلك إلى الجنة.

وعبارة أبي السعود يهديهم بسبب إيمانهم إلى مأواهم ومقصدهم وهي الجنة وإنما لم تذكر تعويلاً على ظهورها وانسياق النفس اليها. قال القاضي: ومفهوم الترتيب وان دل على أن سبب الهداية هو الايمان والعمل الصالح، لكن دل منطوق قوله بإيمانهم على استقلال الايمان بالسببية وأن العمل الصالح كالتتمة والرديف له: انتهى.

وهذا رد لما في الكشاف من أن الآية دلت على أن المعتبر في الهداية الى الجنة هو المقيد بالعمل الصالح لا المطلق، قال الخفاجي: وقد رد هذا بأن الجمع بين العمل الصالح والايمان ظاهر في انهما السبب والتصريح بسببية الايمان المضاف الى الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالتنصيص على انه ذلك الايمان المقرون بما معه لا المطلق، لكنه ذكر لأصالته وزيادة شرفه فلا استدراك ولا دلالة على استقلاله ثم إن النزاع إنما هو في سبب الهداية الى طريق الجنة لا الى

الاستقامة على سلوك السبيل المؤدي الى الثواب وأن من لا يكون مهتدياً الى الجنة لا يدخل الجنة مطلقاً ومنعه مكابرة فتدبر. اهـ

وعبارة أبي السعود: وفي النظم الكريم اشعار بأن مجرد الايمان والعمل الصالح لا يكفي في الوصول الى الجنة، بل لا بد بعد ذلك من الهداية الربانية وأن الكفر والمعاصي كافية في دخول النار، ثم انه لا نزاع في أن المراد بالايمان الذي جعل سبباً لتلك الهداية هو ايمانهم الخاص المشفوع بالأعمال الصالحة لا الايمان المجرد عنها ولا ما هو أعم منهما ، الا ان ذلك بمعزل عن الدلالة ، على خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الايمان الخالي عن العمل الصالح يفضي الى الجنة في الجملة ولا يخلد صاحبه في النار، فإن منطوق الآية الكريمة أن الايمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية الى الجنة، وأما ان كل ما هو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه قطعاً، كيف لا وقوله عز وجل ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ مناد بخلافه فإن المراد بالظلم هو الشرك كما أطبق عليه المفسرون، والمعنى لم يخلطوا ايمانهم بشرك.

و لئن حمل على ظاهره أيضاً يدخل في الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحاً ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرام أو بترك واجب . اهـ

وقال النسفي في المدارك: وهذا دليل على أن الايمان المجرد منج حيث قال: بإيمانهم ولم يضم اليه العمل الصالح .

ولفظ الخازن والمهايمي بإيمانهم وبأعمالهم ، وقال الصاوي: أي وبسبب أعمالهم أيضاً، فالايمان والأعمال الصالحة سببان موصلان لدار السعادة ، أو المراد بالايمان الكامل ليشمل الأعمال،والمسألة من المعارك ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات .

﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ مستأنفة أو خبر ثان لأن أو في محل النصب على الحال والمعنى من تحت بساتينهم أو من بين أيديهم لأنهم على سرر مرفوعة ﴿في جنات النعيم﴾ خبر آخر أو حال أخرى منه أو من الأنهار أو متعلق بتجري .

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠)﴾

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي دعاؤهم ونداؤهم وطلبهم لما يشتهونه في الجنة هذا اللفظ وهو من باب الاسناد اللفظي، وقيل هذا من باب الاسناد المعنوي فلا يلزم ان يقولوا هذا اللفظ فقط، بل يقولونه أو ما يؤدي معناه من جميع صفات التنزيه والتقديس.

قيل الدعاء العبادة كقوله ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ وقيل معنى دعواهم هنا الادعاء الكائن بين المتخاصمين، والمعنى ان أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعائب والاقرار له بالالهية ، وقيل قولهم وكلامهم .

قال القفال: أصله من الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما، وقيل معناه طريقتهم وسيرتهم وذلك ان المدعي للشيء مواظب عليه فيمكن أن يجعل الدعوى كناية عن الملازمة وإن لم يكن في قوله سبحانك اللهم دعوى ولا دعاء وقيل معناه تمنيهم كقوله ﴿ولهم ما يدعون﴾ وكان تمنيهم في الجنة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه.

وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم ، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

فهذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في احضار الطعام، فإذا أرادوه قالوا سبحانك اللهم فيأتوهم به في الوقت على حسب ما يشتهون واضعين له على

الموائد في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضه بعضاً فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ما أعطاهم كما يأتي فترفع الموائد عند ذلك.

قال الزجاج: أعلم الله ان أهل الجنة يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكر الله والثناء عليه وقيل انهم يلهمون ذلك كما ذكر في الحديث والمعنى نسبحك يا الله تسبيحاً.

﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ أي تحية بعضهم للبعض فيكون المصدر مضافاً الى الفاعل أو تحية الله أو الملائكة لهم فيكون من اضافة المصدر إلى المفعول، والتحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياك الله حياة طيبة، والسلام السلامة من كل مكروه وقد مضى تفسير هذا في سورة النساء.

﴿وآخر دعواهم﴾ أي وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح في كل مجلس ﴿أن﴾ يقولوا ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وليس معناه انقطاع الحمد فإن اقوال أهل الجنة واحوالها لا آخر لها والدعوى مشهورة في الادعاء لكنها وردت بمعنى الدعاء ايضاً وهو المراد هنا بقرينة ما بعده لأنه من جنس الدعاء، وتكون ايضاً بمعنى العبادة، وقد جوز ارادته هنا وان كانت الجنة ليست دار تكليف أي لا عبادة لهم غير هذا القول، والأول أظهر، والثاني أدق او المراد انه عبادة لهم تلذذاً لا تكليفاً ذكره الخفاجي ؛قال ابو السعود ولا يساعده تعيين الخاتمة اهـ.

قال النحاس: مذهب الخليل ان ﴿أنْ﴾ هذه مخففة من الثقيلة والمعنى انه الحمد لله، وقال المبرد يجوز ان تعملها خفيفة عملها ثقيلة والرفع أقيس، ولم يحك ابو عبيد إلا التخفيف، قال ابو الهذيل: الحمد أول الكلام وآخر الكلام ثم تلا هذه الآية.

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾

ولما ذكر الله سبحانه الوعيد على عدم الايمان بالمعاد، ذكر ان هذا العذاب من حقه ان يتأخر عن هذه الحياة الدنيا فقال ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ أي اجابة دعائهم بالشر مما لهم فيه مضرة ومكروه في نفس او مال، والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته، وقال القفال: لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم ان الرسول متى انذرهم استعجلوا العذاب، فبين الله سبحانه انه لا مصلحة في ايصال الشر اليهم فلعلهم يتوبون او يخرج من أصلابهم من يؤمن.

قيل ومعناه لو عجل الله للناس العقوبة ﴿استعجالهم بالخير﴾ اي كما يستعجلون بالثواب والخير أي استعجالاً مثل استعجالهم قال مكي: وهذا مذهب سيبويه أو تعجيلاً مثل استعجالهم، وهذا تقدير أبي البقاء وهو الظاهر، وقال الزمخشري: أصله تعجيله لهم بالخير وهو ضعيف جداً، وقيل منصوب على إسقاط كاف التشبيه أي كاستعجالهم، والاستعجال طلب العجلة.

﴿لقضي اليهم أجلهم﴾ أي لأهلكهم، وقيل معناه لأميتوا، قال ابن قتيبة: ان الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على أنفسهم واهلهم وأولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة واعطاء المسؤول،

يقول لو أجابهم الله اذا دعوه بالشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير لفرغ من اهلاكهم، ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعي في الخير ولا يستجب له في الشر، وقال مجاهد: في الآية هو قول الانسان لولده واهله عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم، وقال سعيد بن جبير: هو قول الرجل للرجل اللهم العنه اللهم اخزه وهو يحب ان يستجاب له، وقال قتادة: هو دعاء الرجل على نفسه واهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه.

وقيل الآية خاصة بالكفار الذين انكروا البعث وما يترتب عليه، وقيل نزلت في النضر بن الحرث حين قال: اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية.

وقرىء لقضي على البناء للفاعل وهي قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله ﴿ولو يعجل الله﴾ وصورة القياس هكذا لو يعجل الله الشر للناس لأهلكهم لكنه لم يهلكهم بل امهلهم فلم يعجل لهم الشر، ويدل على هذا القول قوله ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ اي لا يتوقعونه فالفاء للعطف على مقدر، يدل عليه الكلام فكأنه قيل لكن لا يعجل لهم الشر، ولا يقضي اليهم أجلهم فيذرهم اي فيتركهم ويمهلهم ﴿في طغيانهم﴾ اي الذي هو عدم رجاء اللقاء وانكار البعث والجزاء وما يتفرع على اعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة، والطغيان التطاول وهو العلو والارتفاع ﴿يعمهون﴾ يعني يتركهم يتحيرون في تطاولهم وتكبرهم وعدم قبولهم للحق استدراجاً لهم منه سبحانه وخذلاناً.

ثم بين سبحانه انهم كاذبون في استعجال الشر ولو اصابهم ماطلبوه لأظهروا العجز والجزع فقال ﴿وإذا مس الانسان الضر﴾ اي هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل التضرر به كالمرض والفقر ﴿دعانا لجنبه﴾ اللام للوقت او بمعنى على اي دعانا مضطجعاً ﴿او قاعداً او قائماً﴾ كأنه قال دعانا في جميع الاحوال المذكورة وغيرها، وخص المذكورة بالذكر لانها الغالب على

الانسان ولا يخلو عنها عادة وما عداها نادر كالركوع والسجود.

ويجوز ان يراد انه يدعو الله حال كونه مضطجعاً غير قادر على القعود، وقاعداً غير قادر على القيام وقائماً غير قادر على المشي والاول أولى، قال الزجاج: ان تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرة لأنه اذا كان داعياً على الدوام ثم نسي في وقت الرخاء كان أعجب.

وعن أبي الدرداء قال: ادع الله يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرائك.

واقول أنا أكثر من شكر الله على السراء ليدفع عني الضراء فإن وعده للشاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقمة، اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم فإنا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون ونحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان في كل زمان ومكان.

﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه﴾ اي مضى على طريقته التي كان عليها قبل ان يمسه الضر. ونسي حالة الجهد والبلاء والضيق والفقر، وأهمل جانب الله او مضى عن موقف الدعاء والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضر الى كشف ذلك الضر الذي مسه.

وقيل معنى مر، استمر على كفره مشبهاً بمن لم يدعنا ولم يشكر ولم يتعظ، وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر بل تتفق لكثير من المسلمين تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم، فاذا كشفه الله عنهم غفلوا عن التضرع والدعاء وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما أصابهم من المكروه.

وهـذا مما يـدل عـلى ان الآيـة تعم المسلم والكـافـر كـما يشعـر بـه لفظ النـاس ولفظ الانسان. اللهم اوزعنا شكر نعمك وأذكرنا الاحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطيق سواه ولا نقدر على غيره، وما اغناك عنه واحوجنا اليه ولئن شكرتم لأزيدنكم.

﴿كذلك﴾ اي مثل ذلك التزيين العجيب اي كـما زين له الـدعاء عنـد الضرر والإعراض عند الرخاء ﴿زين للمسرفين مـا كانـوا يعملون﴾ أي عملهم، والمسرف في اللغة هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، والتزيين هو إما من جهة الله تعالى على طريق التخلية وعدم اللطف بهم او من طريق الشيطان بالوسوسة أو من طريق النفس الأمارة بالسوء؛ والمعنى إنه زين لهم الإعراض عن الدعاء والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات.

ثم ذكر سبحانه ما يجري مجرى الردع والزجر عما صنعه هؤلاء فقال ﴿ولقد اهلكنا القرون﴾ يعني الأمم الماضيـة ﴿من قبلكم﴾ أي قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم يعني أهلكناهم من قبل زمانكم، وقيل الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر.

﴿لما ظلموا﴾ أي أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتجارؤ على الرسل والتطاول في المعاصي من غير تأخير لاهلاكهم كما أخرنا إهلاككم. وقيل الظلم هنا الشرك أي لما أشركوا.

﴿وجاءتهم رسلهم﴾ الذين أرسلناهم اليهم ﴿بالبينات﴾ أي بالآيـات الواضحات الدالة على صدق الرسل ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ الجملة اعتراضية واللام لتأكيد النفي، أي وما صح لهذه الأمم وما استقام أن يؤمنوا برسلهم لعدم استعدادهم لذلك وسلب الالطاف عنهم.

﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ أي مثل ذلك الجزاء وهو الاستئصال الكلي لكل مجرم، وهذا وعيد شديد لمن كان في عصره من الكفار او لكفار مكة على الخصوص.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

ثم خاطب سبحانه الذين بعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ثم جعلناكم خلائف﴾ اي استخلفناكم ﴿في الأرض﴾ بعد تلك القرون التي تسمعون اخبارها وتنظرون آثارها، والخلائف جمع خليفة، وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة الانعام.

﴿لننظر كيف تعملون﴾ اللام لام كي اي لكي ننظر أي عمل تعملونه من اعمال الخير والشر، أو على أي حالة تعملون الاعمال اللائقة بالاستخلاف وقيل النظر هنا بمعنى العلم أي لنختبر اعمالكم كقوله تعالى ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ذكره الواحدي والرازي، وقيل لنعامل معاملة من ينظر فهي استعارة تمثيلية والاول أولى.

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء[1]». اخرجه مسلم. ثم حكى الله سبحانه نوعاً ثالثاً من تعنتهم وتلاعبهم بآياته فقال ﴿وإذا تتلى عليهم﴾ فيه التفات عن الخطاب الى الغيبة إعراضاً عنهم ﴿آياتنا﴾ التي في الكتاب العزيز، اي واذا تلا التالي عليهم

---

(١) مسلم ٢٧٤٢.

آياتنا الدالة على إثبات التوحيد وإبطال الشرك حـال كونها ﴿بينـات﴾ اي واضحات الدلالة على المطلوب ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ اي لا يخافون البعث وهم المنكرون للمعاد. وقال قتادة: هم مشركو مكة، وقد تقدم تفسيره قريباً، أي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ائت بقرآن غير هذا او بدّله﴾ طلبوا منه صلى الله عليه وسلم لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذم عبادة الاوثان والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين: إما الاتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله؛ وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته او كلها ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم.

قال الرازي: إقدامهم على هذا الالتماس اما على سبيـل السخريـة والاستهزاء أو على سبيل التجربة والامتحان، حتى انه لو فعل ذلك علموا انه كاذب في قوله ان هذا القرآن ينزل عليه من عند الله تعالى.

فأمره الله ان يقول في جوابه ﴿قـل ما يكون﴾ اي ما ينبغي ولا يحل ﴿لي ان ابدله من تلقاء نفسي﴾ فنفى عن نفسه احد القسمين وهو التبديل لانه الذي يمكنه لو كان ذلك جائـزاً بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس بوسعه ولا يقدر عليه.

وقيل انه صلى الله عليه وسلم نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليـلاً على نفي اصعبهما بالطريق الاولى، وهذا منه صلى الله عليه وسلم من باب مجازاة السفهاء. اذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد ان امره الله سبحانه بذلك وهو اعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة.

قال الزجاج: سألوه اسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور، وقيل سألوه

ان يسقط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه احلامهم، وقيل سألوه ان يحول الوعد وعيداً والحرام حلالاً والحلال حراماً.

ثم أمره ان يؤكد ما أجاب به عليهم من انه ما صح له ولا استقام ان يبدله من تلقاء نفسه بقوله ﴿ان أتبع إلا ما يوحى اليّ﴾ من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف ولا تصحيف، فقصر حاله صلى الله عليه وسلم على اتباع ما يوحى اليه، وربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبي (ﷺ) بأن القرآن كلامه، وانه يقدر على الاتيان بغيره والتبديل له.

ثم امره الله سبحانه ان يقول لهم تكميلاً للجواب عليهم ﴿اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدمه من الجواب قبلها واليوم العظيم هو يوم القيامة، اي إني أخاف ان عصيت ربي بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة.

ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله وإنه صلى الله عليه وسلم انما يبلغ اليهم منه ما أمره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك فقال ﴿قل لو شاء الله﴾ أي ان هذا القرآن المتلو عليكم هو بمشيئة الله وارادته ولو شاء الله ان لا أتلوه عليكم ولا أبلغكم إياه ﴿ما تلوته عليكم﴾ فالأمر كله منوط بمشيئة الله ليس لي في ذلك شيء ﴿ولا ادراكم به﴾ أي ولو شاء الله ما ادراكم بالقرآن أي ما اعلمكم به على لساني، يقال دريت الشيء وادراني الله به، هكذا قرأ الجمهور بالألف من أدراه يدريه، أعلمه يعلمه، وقرأ ابن كثير: ولأدراكم به بغير الف بين اللام والهمزة والمعنى لأعلمكم به على لسان غيري من غير ان أتلوه عليكم، فيكون اللام لام تأكيد دخلت على ألف أفعل.

وقد قرىء أدرأكم بالهمزة فقيل هي منقلبة عن الألف لكونهما من واد واحد، ويحتمل ان يكون من درأته اذا دفعته وأدرأته اذا جعلته دارياً، والمعنى لا اجعلكم بتلاوته خصماء تدرءونني بالجدال وتكذبونني، وقرأ ابن عباس

والحسن ولا أدرأتكم به قال أبو حاتم: أصله ولا أدريتكم به فأبدل من الياء ألفا، قال النحاس: وهذا غلط، والرواية عن الحسن ولا أدرأتكم به بالهمزة.

﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله﴾ تعليل لكون ذلك بمشيئة الله ولم يكن من النبي صلى الله عليه وسلم إلا التبليغ، اي أقمت فيها بينكم زماناً طويلاً من قبل القرآن وهو اربعون سنة تعرفونني بالصدق والأمانة لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب ﴿أفلا تعقلون﴾ الهمزة للتقريع والتوبيخ أي أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبي لما عرفتم من العادة المستمرة لي المدة الطويلة بالصدق والامانة وعدم قراءتي للكتب المنزلة على الرسل وتعلمي لما عند أهلها من العلم ولا طلبي لشيء من هذا الشأن ولا حرصي عليه.

ثم جئتكم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الاتيان بسورة منه وقصرتم عن معارضته وانتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة، المعترف لهم بأنهم البالغون فيها الى مبلغ لا يتعلق به غيركم.

اخرج ابن أبي شيبة والبخاري والترمذي عن ابن عباس قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة يوحى اليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة[1] وعن السدي نحوه.

قال النووي: ورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات: إحداها انه توفي وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهي أصحها واشهرها، رواه مسلم من حديث أنس وعائشة وابن عباس، واتفق العلماء عليها؛ وتأولوا الباقي عليه، فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسر، ورواية الخمس متأولة ايضا بأنها حصل فيها اشتباه.

---

(١) البخاري كتاب مناقب الأنصار باب ٤٥.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿فمن أظلم﴾ استفهام فيه معنى الجحد أي لا أحد أظلم ﴿ممن افترى على الله كذباً﴾ زيادة كذباً مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لبيان ان هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب في نفسه فربما يكون الافتراء كذباً في الاسناد فقط كما اذا اسند ذنب زيد الى عمرو، وذكر معنى هذا ابو السعود في تفسيره.

قيل وهذا من جملة رده صلى الله عليه وسلم على المشركين لما طلبوا منه ان يأتي بقرآن غير هذا القرآن او يبدله، فبين لهم انه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على الله ولا ظلم يماثل ذلك، وقيل المفتري على الله الكذب هم المشركون.

﴿أو كذب بآياته﴾ وهم أهل الكتاب ﴿إنه﴾ أي أن الشأن ﴿لا يفلح المجرمون﴾ تعليل لما قبله، أي لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير، قال عكرمة: قال النضر: اذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى، فأنزل الله هذه الآية.

ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الاصنام وبين انها لا تنفع من عبدها ولا تضر من لم يعبدها فقال ﴿ويعبدون من دون الله﴾ اي متجاوزين الله سبحانه الى عبادة غيره لا بمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وضم عبادة الغير اليها للتقرب والشفاعة.

﴿ما لايضرهم ولا ينفعهم﴾ اي ما ليس من شأنه الضرر ولا النفع، ومن حق المعبود ان يكون مثيباً لمن اطاعه، معاقباً لمن عصاه، ونفي الضر والنفع هنـا عن الاصنام باعتبار الذات واثباتها لها في الحج في قوله ﴿يدعو لمن ضره اقرب من نفعه﴾ باعتبار السبب فلا منافاة بينها.

﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ اي زعموا انهم يشفعون في الآخرة فلا يعذبهم الله بذنوبهم؛ قاله ابن جريج، وهذا غاية الجهالة منهم حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال، وقيل ارادوا بهذه الشفاعة اصلاح احوال دنياهم، قاله الحسن، أي لإنكارهم البعث وما يترتب عليه. ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عنهم فقال ﴿قل﴾ لهم تبكيتاً ﴿اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولافي الأرض﴾ والمعنى اتخبرون الله ان له شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد، او أتخبرونه ان لكم شفعاء بغير اذنه والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكاً ولاشفيعاً بغير اذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سماواته وفي ارضه، وهذا الكلام حاصله عدم وجود من هو كذلك أصلاً وفي هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ بالياء والتاء سبعيتان، نزه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم، وهو يحتمل ان يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم ويحتمل ان يكون من تمام ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم ان يقوله لهم جواباً عليهم.

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

﴿وما كان الناس﴾ قد تقدم تفسيره في البقرة والمعنى أن الناس جميعاً ما كانوا ﴿الا أمة واحدة﴾ موحدة لله سبحانه مؤمنة به من لدن آدم إلى نوح، وقيل من عهد إبراهيم إلى عمرو بن لحي لأن التوحيد والاسلام ملة قديمة اجتمعت عليه الناس قاطبة فطرة وتشريعاً، وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة.

﴿فاختلفوا﴾ أي فصار البعض كافراً، وبقي البعض الآخر مؤمناً فخالف بعضهم بعضاً، وقال الزجاج: هم العرب كانوا على الشرك وقال: كل مولود يولد على الفطرة فاختلفوا عند البلوغ والأول أظهر؛ وليس المراد أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للاخرى بل المراد كفر البعض وبقي البعض على التوحيد كما قدمنا، وقال ابن مسعود: كانوا على هدى، وروي أنه قرأ هكذا.

وعن مجاهد قال: آدم وحده فاختلفوا حين قتل أحد ابني آدم أخاه، وعن السدي قال: أهل دين واحد على دين آدم فكفروا وقيل ليس في الآية ما يدل على أي دين كانوا من إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج، وقيل كانوا في الكفر وهو منقول عن جماعة من المفسرين والأول أولى.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهي أنه سبحانه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه إلا يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ في الدنيا بنزول العذاب وتعجيل

العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلاً بينهم ﴿فيما فيه يختلفون﴾ لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التي لا تتخلف، وقيل المعنى لقضى بينهم باقامة الساعة عليهم، وقيل لفرغ من هلاكهم، وقيل: الكلمة أن الله أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا قاله الكلبي.

وقيل الكلمة أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجة وهي إرسال الرسل كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ وقيل الكلمة قوله سبقت رحمتي غضبي وعبر بالمضارع عن الماضي حكاية للحال الماضية.

﴿ويقولون﴾ ذكر سبحانه ههنا نوعاً رابعاً من مخازيهم وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه، قيل والقائلون هم أهل مكة كأنهم لم يعتدوا بما قد نزل على رسوله ﷺ من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها إلا القرآن لكفى به دليلاً بيناً ومصدقاً قاطعاً.

﴿لولا﴾ أي هلا ﴿أنزل عليه آية﴾ من الآيات التي نقترحها عليه ونطلبها منه كإحياء الأموات وجعل الجبال ذهباً ونحو ذلك ﴿من ربه﴾ كما كان للانبياء من الناقة والعصا واليد؛ ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال: ﴿فقل انما الغيب لله﴾ أي أن نزول الآية غيب والله هو المحيط بعلمه المستأثر به لا علم لي ولا لكم ولا لسائر مخلوقاته وانما علي التبليغ.

﴿فانتظروا﴾ نزول ما اقترحتموه من الآيات ﴿اني معكم من المنتظرين﴾ لنزولها وقيل المعنى انتظروا قضاء الله بيني وبينكم باظهار الحق على الباطل، وقال الربيع: خوفهم عذابه وعقوبته إن لم يؤمنوا.

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾

﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا﴾ لما بين سبحانه في الآية المتقدمة انهم طلبوا آية عناداً ومكراً ولجاجاً أكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد ان مستهم الضراء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات الله.

والمراد بإذاقتهم رحمته سبحانه أنه وسع عليهم في الأرزاق وأدرَّ عليهم النعم بالمطر والخصب وصلاح الثمار بعد أن مسهم الضر بالجدب وضيق المعايش، فما شكروا نعمته ولا قدروها حق قدرها. بل أضافوها الى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر وطعنوا في آيات الله واحتالوا في دفعها بكل حيلة وهو معنى المكر فيها وإذا الأولى شرطية وجوابها اذا لهم مكر، وهي فجائية ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه، ويستفاد منه السرعة لأن المعنى انهم فاجؤوا المكر أي أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة، وقال مجاهد: في الآية استهزاء وتكذيب. وهذا تفسير مراد، وإلا فأصل المكر إخفاء الحيل والمكايد، وقال مقاتل: لا يقولون هذا رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا.

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ أي أعجل عقوبة وأشد أخذاً وأقدر على الجزاء من سرعة مكرهم، وقد دل أفعل التفضيل على ان مكرهم كان سريعاً ولكن مكر الله أسرع منه، وتسمية

عقوبة الله سبحانه مكراً من باب المشاكلة كما قرر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز.

﴿ان رسلنا﴾ أي الملائكة ﴿يكتبون ما تمكرون﴾ قرىء بالتاء والياء، والأولى سبعية والثانية عشرية أي لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة فكيف يخفى على العليم الخبير؛ وفي هذا وعيد لهم شديد وتحقيق للانتقام منهم.

وهذه الجملة تعليل للتي قبلها فـإن مكرهم إذا كان ظـاهراً لا يخفى فعقوبة الله كائنة لا محالة ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدمة وهي إذا مس الإنسان الضر، وفي هذه الآية زيادة وهي انهم لا يقتصرون على مجرد الاعراض بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما يدبرونه من المكر.

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلاً حتى ينكشف المراد انكشافاً تاماً، وهو كلام مستأنف ومعنى تسييرهم في البر أنهم يمشون على أقدامهم التي خلقها لينتفعوا بها ويركبون على ما خلقه الله لركوبهم من الدواب ومعنى تسييرهم في البحر أنه ألهمهم لعمل السفائن التي يركبون فيها في لجج البحر، ويسر ذلك لهم ودفع عنهم أسباب الهلاك.

وقد قرأ ابن عامر وهو الذي ينشركم في البر والبحر بالنون من النشر كما في قوله تعالى: ﴿فانتشروا في الأرض﴾ أي ينشرهم سبحانه في البحر فينجي من يشاء ويغرق من يشاء.

﴿حتى﴾ غاية للسير في البحر والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها ﴿إذا كنتم في الفلك﴾ يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث والحركات فيه بينها تغاير اعتباري ﴿وجرين﴾ أي السفن ﴿بهم﴾ أي بالراكبين عليها والفائدة

في صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم مزيد الانكار والتقبيح، قاله الزمخشري.

وقيل ان مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه ان يرده إلى الغائب، وقيل هذا الالتفات فيه امتنان واظهار نعمة المخاطبين، والمسيرون في البحر مؤمنون وكفار والخطاب شامل فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح الشكر، ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة.

ولما كان في آخر الآية ما يقتضي انهم إذا نجوا بغوا في الأرض عدل عن خطابهم بذلك إلى الغيبة لئلا يخاطب المؤمنين بما لا يليق صدوره منهم وهو البغي بغير الحق، قاله السمين، وقيل ان الالتفات في الكلام من الغيبة الى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب.

وقال الرازي: الانتقال من مقام الخطاب الى مقام الغيبة في هذا المقام دليل المقت والتبعيد كما أن عكس ذلك في قوله إياك نعبد دليل الرضا والتقريب.

﴿بريح طيبة﴾ أي ساكنة لينة الهبوب إلى جهة المقصد، والباء للسببية أو للحال ﴿وفرحوا بها﴾ أي ريح السفينة فالقيود المعتبرة في الشرط ثلاثة أولها الكون في الفلك والثاني جريها بهم بالريح الطيبة التي ليست بعاصفة وثالثها فرحهم والقيود المعتبرة في الجزاء ثلاثة.

الأول ﴿جاءتها﴾ أي جاءت الفلك وعارضته وقابلته أو جاءت الريح الطيبة أي تلقتها ﴿ريح عاصف﴾ أي ذات عصف وهو من باب النسب كلابن وتامر وهو مما يستوى فيه المذكر والمؤنث كما صرحوا به والعصوف شدة هبوب

الريح وهي الهواء بين السماء والأرض، والجمع أرواح ورياح، وقيل أرياح على لفظ الواحد، وغلطه أبو حاتم وهي مؤنثة على الأكثر، وقد تذكر على معنى الهواء نقله أبو زيد، وقال ابن الأنباري: الريح مؤنثة لا علامة فيها وكذلك سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكر، وراح اليوم يروح روحاً من باب قال، وفي لغة من باب خاف إذا اشتدت ريحه فهو رائح.

والثاني ﴿وجاءهم﴾ أي ركبان السفينة ﴿الموج من كل مكان﴾ أي من جميع الجوانب للفلك، والموج ما ارتفع من غوارب الماء وعلا فوق البحر، وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه.

﴿و﴾ الثالث ﴿ظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي غلب على ظنونهم الهلاك، وأصله من إحاطة العدو بقوم أو ببلد، فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك وان كان بغير العدو، كما هنا وهو استعارة تبعية، وقيل الظن هنا اليقين أي أيقنوا أنه الهلاك، وقيل بل المراد المقاربة من الهلاك والدنو منه والاشراف عليه.

وقوله ﴿دعوا الله﴾ بدل من ظنوا لكون هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظن الهلاك وهو الباعث عليه فكان بدلاً منه بدل اشتمال لاشتماله عليه، ويمكن أن يكون جملة مستأنفة كأنه قيل ماذا صنعوا فقيل دعوا الله.

﴿مخلصين له الدين﴾ أي لم يشوبوا دعاءهم بشيء من الشوائب كما جرت عادتهم في غير هذا الموطن انهم يشركون أصنامهم في الدعاء، وليس هذا لاجل الايمان بالله وحده بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك لعلمهم أنه لا ينجيهم إلا الله سبحانه.

وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع الى الله في الشدائد وإن المضطر يجاب دعاؤه وأن كان كافراً، وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة وما شابهها.

فيا عجباً لما حدث في الاسلام من طوائف يعتقدون في الاموات فاذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الاموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك الينا تواتراً يحصل به القطع.

فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية واين وصل بها أهلها وإلى أين رمى بهم الشيطان، وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى انقادوا له انقياداً ما كان يطمع في مثله ولا في بعضه من عباد الاصنام، فإنا لله وإنا اليه راجعون.

واللام في ﴿لئن أنجيتنا﴾ هي الموطئة للقسم المحذوف على إرادة القول أي دعوا قائلين ذلك، ويجوز أن يجري دعوا الله مجرى قالوا لان الدعاء بمعنى القول إذ هو نوع من أنواعه فتحكى به الجملة، وهو مذهب كوفي والأول هو الأولى لاستدعاء الثاني لاقتصار دعائهم على ذلك فقط.

﴿من هذه﴾ أي ما وقعوا فيه من مشارفة الهلاك في البحر من الريح العاصفة والامواج الشديدة ﴿لنكونن﴾ في كل حال ﴿من الشاكرين﴾ أي ممن يشكر نعمك التي أنعمت بها علينا منها هذه المحنة التي نحن بصدد سؤالك أن تفرجها عنا وتنجينا منها، وهذا جواب القسم وفيه من المبالغة في الدلالة على كونهم ثابتين في الشكر مثابرين عليه منتظمين في سلك المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ما ليس في أن يقال لنشكرن.

فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

﴿فلما أنجاهم﴾ الله من هذه المحنة التي وقعوا فيها وأجاب دعاءهم لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم، بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين وجعلوا البغي في الأرض بغير الحق مكان الشكر ﴿إذا هم يبغون﴾ أي فاجاؤا البغي والفساد وسارعوا إليه، والبغي هو الفساد من قولهم بغى الجرح إذا ترامى في الفساد، وقيل هو الشرك، وزيادة ﴿في الأرض﴾ للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض، والبغي وإن كان ينافي أن يكون بحق بل لا يكون إلا بالباطل لكن زيادة.

﴿بغير الحق﴾ إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم بل تمرداً وعناداً لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة.

وقيل البغي: مجاوزة الحد وهو محمود ان كان من العدل الى الاحسان ومن الفرض الى التطوع، ومذموم إن كان من الحق الى الباطل أو إلى الشبهة، وقال الزمخشري: البغي قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقلع أشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة، وهذا فائدة تقييده بغير الحق.

﴿يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾ لما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغون في الأرض بغير الحق، ذكر عاقبة البغي وسوء مغبته، قرىء بنصب متاع على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستئناف، أي بغيكم وبال على أنفسكم تتمتعون متاع الحياة الدنيا؛ وقيل على انه ظرف زمان نحو مقدم الحاج أي زمن متاع الحياة الدنيا، وقيل على أنه

مفعول له، أي لأجل متاع الحياة الدنيا.

وقيل منصوب على نزع الخافض أي كمتاع، وقيل على الحال على انه مصدر بمعنى المفعول أي ممتعين، وقيل على أنه مفعول لفعل دل عليه المصدر، أي تبغون متاع الحياة الدنيا.

وقد نوقش غالب هذه الأقوال في توجيه النصب، والحق الذي تقتضيه جزالة التنزيل انما هو الوجه الأول، أما من قرأ برفع متاع فيجعله خبراً لمبتدأ، أي بغيكم متاع الحياة الدنيا ويكون على أنفسكم متعلقاً بالمصدر، والتقدير انما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التي لا بقاء لها، فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه أبناء جنسهم، وعبر عنهم بالانفس استعارة لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة.

وقيل ارتفاع متاع على انه خبر ثان وقيل على انه خبر لمبتدأ محذوف أي هو متاع كما في قوله تعالى: ﴿الا ساعة من نهار بلاغ﴾ أي هذا بلاغ.

وقد نوقش أيضاً بعض هذه الوجوه في توجيه الرفع بما يطول به البحث في غير طائل، والحاصل انه اذا جعل خبر المبتدأ على أنفسكم فالمعنى أن ما يقع من البغي على الغير هو بغي على نفس الباغي باعتبار ما يؤول اليه الأمر من الانتقام منه مجازاة على بغيه، وان جعل الخبر متاعاً فالمراد أن بغي هذا الجنس الانساني على بعضه بعضاً هو سريع الزوال قريب الاضمحلال كسائر أمتعة الحياة الدنيا فإنها ذاهبة عن قريب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والخطيب في تاريخه عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاث هن رواجع على أهلها: المكر والنكث والبغي، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: انما بغيكم على

أنفسكم ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

وعن مكحول: ثلاث من كن فيه كن عليه: المكر والبغي والنكث.

أقول أنا: وينبغي أن يلحق بهذه الثلاث التي دل القرآن على انها تعود على فاعلها «الخدع» فإن الله يقول: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي منهما»[1].

ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغي من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال: ﴿ثم الينا مرجعكم﴾ تقديم الخبر للدلالة على الثبات والقصر، والمعنى انكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله سبحانه فيجازي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه.

﴿فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا من خير وشر، والمراد بذلك المجازاة كما تقول لمن أساء سأخبرك بما صنعت وفيه أشد وعيد وأفظع تهديد.

ثم لما ذكر سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يتضمن بيان حالها وسرعة تقتضيها وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود به، بعد أن تملأ الأعين برونقها وتخلب النفوس ببهجتها، وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضاً ويهتكوا حرمهم، حباً لها وعشقاً لجمالها الظاهري، وتكالباً على التمتع بها وتهافتاً على نيل ما تشتهي الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب العجيب البديع المثال المنتظم في سلك الأمثال فقال.

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ٤٨١٣.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ أي إن مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه ويباينه، مثل ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيه، بعد أن كان غضاً مخضراً طرياً قد تعانقت أغصانه المتمايلة، وزهت أوراقه المتصافحة، وتلألأت أنواع نوره وحاكت الزهر أنواع زهره، وانما ليست للحصر لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالاً غير هذا، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله كماء بل ما يفهم من الكلام.

﴿فاختلط به﴾ أي بسببه ﴿نبات الأرض﴾ بأن اشتبك بعضه ببعض لكثرته حتى بلغ الى حد الكمال، ويحتمل أن يراد أن النبات كان في أول بروزه ومبدأ حدوثه غير مهتز، ولا مترعرع فإذا نزل الماء عليه اهتز، وربما حتى اختلط بعض الأنواع ببعض ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾ أي كائناً من الحبوب والثمار والكلأ والتبن والعشب.

﴿حتى اذا أخذت الأرض زخرفها﴾ قال في الصحاح: الزخرف الذهب ثم يشبه به كل مموه مزور. اهـ.

وفي القاموس الزخرف بالضم الذهب وكمال حسن الشيء، ومن القول

حسنه،ومن الأرض ألوان نباتها، والمعنى أن الارض استوفت واستكملت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب وبعضه للون الفضة وبعضه للون الياقوت وبعضه للون الزمرد وحتى غاية لمحذوف، أي ما زال ينمو ويزهر حتى أخذت حسنها ونضارتها وبهجتها، وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأخضر وأحمر وأصفر وغير ذلك.

﴿وازينت﴾ أي تزينت به، وقرىء أزينت على وزن أفعلت أي ازينت بالزينة التي عليها،شبهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة ألواناً كثيرة ففي الكلام استعارة مكنية.

﴿وظن أهلها﴾ أي أهل تلك الارض الآخذة زخرفها ﴿انهم قادرون عليها﴾ أي غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها متمكنون على جدادها وقطافها، والضمير في عليها للأرض، والمراد النبات الذي هو عليها.

﴿أتاها﴾ أي جاءها ﴿أمرنا﴾ بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات ﴿ليلاً أو نهاراً﴾ أو للتنويع أي تارة يأتي قضاؤنا وعذابنا ليلاً، وتارة يأتي نهارا ﴿فجعلناها حصيداً﴾ أي جعلنا زرعها شبيهاً بالمحصود في قطعه من أصوله، قال أبو عبيدة: الحصيد المستأصل وقيل المقطوع بالمناجل.

﴿كأن لم تغن بالامس﴾ أي كأن لم يكن زرعها موجوداً فيها بالامس مخضراً طرياً، من غني بالمكان بالكسر يغني بالفتح اذا أقام، قال البيضاوي: أي لم تلبث أي لم تقم ولم تمكث.

وقيل لم تكن ولم توجد، وفي القاموس ما يقتضي أن غني يأتي بمعنى كان ووحد كقوله غنيت دارنا بتهامة أي كانت بها.

والمراد بالامس الوقت القريب والزمن الماضي لا خصوص اليوم الذي قبل يومك، قاله الكرخي، والمغاني في اللغة المنازل، وقال قتادة: كأن لم ينعم، وقرأ «لم يَغْنَ»بالتحتية بإرجاع الضمير إلى الزخرف، قرأ من عده «تغن» بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الأرض.

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك التفصيل البديع ﴿نفصل الآيات﴾ القرآنية التي من جملتها هذه الآية المنبهة على أحوال الدنيا، ويجوز أن يراد الآيات التكوينية ﴿لقوم يتفكرون﴾ فيما اشتملت عليه، عن أبي مجلز قال: كان مكتوباً في سورة يونس الى جنب هذه الآية ﴿ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى ثالثاً ولا يشبع نفس ابن آدم الا التراب، ويتوب الله على من تاب﴾ فمحيت.

قال النسفي في الآية: هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الأرض في جفافه، وذهابه حطاماً بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه، والتنبيه على حكمة التشبيه أن الحياة صفوها شبيبتها وكدرها شيبتها، كما ان صفو الماء في أعلى الإناء:

ألم تر أن العمر كأس سلافة   فأوله صفو وآخره كدر

وحقيقته تزيين جثة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التلوين، فالطينة الطيبة تنبت بساتين الأنس ورياحين الروح وزهرة الزهد وكروم الكرم، وحبوب الحب، وحدائق الحقيقة وشقائق الطريقة.

والخبيثة تخرج خلاف الخلف؛ وثمام الاثم وشوك الشرك، وشيح الشح وحطب العطب ولعاع اللعب.

ثم يدعوه معاده، كما يحين للحرث حصاده، فتزايله الحياة مغتراً كما يهيج

النبات مصفراً، فتغيب جثته في الرمس كأن لم تغن بالامس، إلى أن يعود ربيع البعث وموعد العرض والبحث.

وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله، ويهلك كثيره ولا بد من ترك ما زاد، كما لا بد من أخذ الزاد، وأخذ المال لا يخلو من زلة، كما أن خائض الماء لا ينجو من بلة، وجمعه وامساكه، تلف صاحبه واهلاكه، فما دون النصاب كضحضاح ماء؛ يجاوز بلا احتماء، والنصاب كنهر حائل بين المجتاز والجواز إلى المفاز لا يمكن إلا بقنطرة وهي الزكاة وعمارتها بذل الصلاة، فمتى اختلت القنطرة غرقته أمواج القناطير المقنطرة.

وكذا المال يساعد الاوغاد، دون الامجاد، كما أن الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد، وكذلك المال لا يجتمع إلا بكد البخيل، كما أن الماء لا يجتمع إلا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء في الكف انتهى.

﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ لما نفر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق، رغبهم في الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل إلى دار السلام، قال الحسن وقتادة: السلام هو الله تعالى وداره الجنة، وقال الزجاج: والمعنى والله يدعو إلى دار السلامة، ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة.

وقيل أراد دار السلام الذي هو التحية لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى التحية كما في قوله: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ وقيل السلام اسم لأحد الجنان السبع (أحدها) دار السلام (والثانية) دار الجلال (والثالثة) جنة عدن (والرابعة) جنة المأوى (والخامسة) جنة الخلد (والسادسة) جنة الفردوس (والسابعة) جنة النعيم.

وقيل المراد دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنة،

وقد اتفقوا على أن دار السلام هي الجنة،وإنما اختلفوا في سبب التسمية بدار السلام.

﴿ويهدي من يشاء﴾ هدايته، قال أبو العالية: يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات ﴿إلى صراط مستقيم﴾ دين الاسلام، جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه تكميلاً للحجة واظهاراً للاستغناء عن خلقه.

أخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي جعفر محمد بن علي قال: حدثني جابر قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً، فقال اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك، انما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس الى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من ترك فالله هو الملك والدار الاسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد رسول، فمن أجابك دخل الاسلام ومن دخل الاسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها[1]» وقد روي معنى هذا من طرق.

---

(١) المستدرك كتاب تعبير الرؤيا ٣٩٣/٤. وفي رواية: أكل منها مما فيها ثم تلا - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ثم قسم سبحانه أهل الدعوة الى قسمين وبين حال كل طائفة فقال: ﴿للذين أحسنوا﴾ بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الايمان والأعمال والكف عما نهاهم عنه من المعاصي، وقيل للذين شهدوا أن لا إله إلا الله ﴿الحسنى﴾ أي المثوبة الحسنى وان كان معه ذنوب، فعصاة المؤمنين داخلون في هذا، وقال ابن الانباري: الحسنى في اللغة تأنيث الأحسن، والعرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها ولذلك ترك موصوفها، وقيل المراد بالحسنى الجنة.

﴿وزيادة﴾ قيل المراد بها ما يزيد على المثوبة من التفضل كقوله: ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ وقيل الزيادة النظر إلى وجهه الكريم، وبه قال جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وحذيفة وأبو موسى الأشعري وعبادة بن الصامت، وبه قال الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدي.

وقيل الزيادة هي مضاعفة الحسنة الى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وقيل الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، قاله علي بن أبي طالب، وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد، وقيل هي ما يعطيهم سبحانه في الدنيا من فضله لا يحاسبهم عليه يوم القيامة، قاله ابن زيد، وقيل غير ذلك مما لا فائدة في ذكره.

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرهم عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ثم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار؟ قال

فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم»[1].

وفي لفظ من حديث أبي موسى مرفوعاً: الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن، أخرجه الدارقطني وابن جرير وغيرهما، وروي مثله عن جماعة من الصحابة مرفوعاً بطرق، وقد روي عن التابعين ومن بعدهم روايات في تفسير الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله سبحانه، وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق حينئذ لقائل مقال ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به، فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم والله المستعان.

﴿ولا يرهق﴾ الرهق الغشيان، وقيل أصله المقاربة، وقيل معناه يلحق ومنه قيل غلام مراهق إذا لحق بالرجال، وقيل يعلو والمعاني متقاربة والمعنى لا يغشى ﴿وجوههم قتر﴾ هو غبار معه سواد، وقيل سواد الوجه واحده قترة وقيل هو الدخان ومنه غبار القدر، وقيل التقليل ومنه ولم يقتروا، ومنه على المقتر قدره، وقيل الكآبة.

﴿ولا ذلة﴾ هي ما يظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والهوان، يعني لا يعلو وجوههم غبرة ولا يظهر فيها هوان، وقال مجاهد في الآية: خزي، وعن صهيب عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: هذا بَعد نظرهم اليه عز وجل، أخرجه أبو الشيخ، والجملة مستأنفة أو في محل نصب على الحال، قاله أبو البقاء.

وهذا ليس بجائز لأن المضارع متى وقع حالاً منفياً بلا امتنع دخول واو الحال عليه كالمثبت أو في محل الرفع نسقاً على الحسنى، والتقدير وان لا يرهق أي وعدم رهقهم.

﴿أولئك﴾ أي المتصفون بالصفات السابقة هم ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي المتنعمون بأنواع نعمها لا يخرجون منها أبداً.

---

(١) الإمام أحمد، ٣٣٣/٤.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

﴿والذين كسبوا السيئآت جزاء سيئة بمثلها﴾ أي يجازى سيئة واحدة بسيئة واحدة لا يزاد عليها كما يزاد في الحسنة؛ وهذا أولى مما عداه وفيه سبعة أوجه قررها السمين لا نطول بذكرها، والمراد بالسيئة إما الشرك أو المعاصي التي ليست بشرك وهي ما يتلبس به العصاة من المعاصي، قال ابن كيسان: الباء زائدة والمعنى جزاء سيئة مثلها وقيل جزاء سيئة كائن بمثلها.

وقيل التقدير فلهم جزاء سيئة، وفيه التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئآت لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة إلى العشرة إلى السبعمائة إلى اضعاف كثيرة تفضلاً منه سبحانه وتكرماً، وأما السيئآت فانه يجازي فاعلها عليها بمثلها عدلا منه سبحانه.

﴿وترهقهم﴾ أي تغشاهم ﴿ذلة﴾ أي هوان وخزي، وقال ابن عباس: ذلة وشدة ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي لا يعصمهم أحد كائناً من كان من سخط الله وعذابه، أو ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين والأول أولى.

﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾ القطع بفتح الطاء جمع قطعة وباسكانها جزء وهما قراءتان سبعيتان، قال ابن السكيت: القطع طائفة من الليل وقيل ظلمة آخر الليل، وقال الأخفش: سواد الليل، والجملة حالية أو مستأنفة أي أغشيت وألبست وجوههم قطعاً وسواداً من الليل في حال ظلمته.

﴿أولئك﴾ أي الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ اطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر في السنة من خروج عصاة الموحدين.

﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ الحشر الجمع من كل جانب وناحية إلى موضع واحد وقال مجاهد: الحشر الموت، ويوم منصوب على المفعولية بمضمر أي انذرهم يوم نحشرهم لموقف الحساب، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة، والمعنى ان الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم يوم القيامة.

﴿ثم نقول﴾ في حالة الحشر ووقت الجمع ﴿للذين أشركوا﴾ تقريعاً لهم على رؤوس الاشهاد وتوبيخاً لهم مع حضور من يشاركهم في العبادة وحضور معبوداتهم ﴿مكانكم﴾ أي الزموا مكانكم واثبتوا فيه وقفوا في موضعكم، ولا تنفكوا منه ولا تبرحوا عنه حتى تسألوا وتنظروا ما يفعل بكم، ونصب مكانكم على أنه في الأصل ظرف لفعل أقيم مقامه لا على أنه اسم فعل وحركته حركة بناء كما هو رأي الفارسي، قاله أبو السعود.

قال الخفاجي: وهذا كله تكلف، قال الدماميني: لا أدري ما الداعي الى جعل هذا الظرف اسم فعل إما لازماً وإما متعدياً، وهلا جعلوه ظرفاً على بابه ولم يخرجوه عن أصله أي اثبت مكانك انتهى وفيه بحث.

والضمير في قوله ﴿أنتم﴾ تأكيد للضمير الذي في مكانكم لسده مسد الزموا ﴿وشركاؤكم﴾ عطف عليه وقرىء بالنصب على المفعول معه، وفي هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين، والمراد بالشركاء هنا الملائكة وقيل الشياطين وقيل الأصنام وان الله سبحانه ينطقها في هذا الوقت وقيل المسيح وعزير، والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائناً ما كان.

﴿فزيلنا﴾ أي فرقنا وقطعنا ما كان ﴿بينهم﴾ من التواصل في الدنيا يقال زيلته فتزيل أي فرقته فتفرق، والمزايلة المفارقة والتزايل التباين، قال السيوطي: ميزنا بينهم وبين المؤمنين، كما في آية ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ انتهى. وفيه مسامحة.

قال القرطبي: هذا التفسير بعيد من سابقه ولاحقه إذ هما في الكلام على المشركين ومعبوداتهم فالأولى القول الآخر الذي جرى عليه غيره كالبيضاوي والخازن ونص الخطيب: بينهم، أي بين المشركين وشركائهم، وذلك حين يتبرأ كل معبود عمن عبده، وهذا أنسب بقوله.

﴿وقال شركاؤهم﴾ الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه، وإنما أضاف الشركاء اليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه لكونهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، فهم شركاؤهم في أموالهم من هذه الحيثية، وقيل لكونهم شركاءهم في هذا الخطاب والإضافة لأدنى ملابسة.

﴿ما كنتم ايّانا تعبدون﴾ في الحقيقة ونفس الأمر، وانما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم الذين أغووكم، لأنها الآمرة لكم بالإشراك على حد قوله ﴿قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾ الآية. وهذا الجحد من الشركاء وان كان مخالفاً لما قد وقع من المشركين من عبادتهم فمعناه انكار عبادتهم اياهم عن أمرهم لهم بالعبادة وتقديم المفعول للفاصلة.

فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم﴾ إن كنا أمرناكم بعبادتنا أو رضينا ذلك منكم ﴿ان كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ القائل لهذا الكلام هم المعبودون قالوا لمن عبدهم من المشركين، والمراد بالغفلة هنا عدم الرضاء بما فعله المشركون من العبادة لهم،أو عدم علمهم بها،أو كل من الأمرين.

وفي هذا دليل على أن هؤلاء المعبودين غير الشياطين لأنهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم، قال أبو السعود: هذا من كلام الاصنام كما علمت. انتهى.

قلت: ويمكن أن يكونوا من الشياطين ويحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم ولا أكرهوهم عليها.

﴿هنالك﴾ أي في ذلك المكان الدهش أو في ذلك الموقف الدحض أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿تبلو﴾ أي تختبر وتذوق ﴿كل نفس﴾ مؤمنة كانت أو كافرة، سعيدة أو شقية جزاء ﴿ما أسلفت﴾ من العمل وتعاينه بكنهه متتبعة لآثاره من نفع أو ضر، وخير أو شر، فمعنى تبلو تذوق وتختبر، وقيل تعلم وقيل تتبع فهو من التلو، وهذا على القراءة بالفوقية بإسناد الفعل إلى كل نفس.

وأما على القراءة بالنون فالمعنى ان الله يبتلي كل نفس ويختبرها وانه يعاملها معاملة من يختبرها ويتفقد أحوالها، ويجوز أن يراد يصيب بالبلاء أي

العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر، والبلية والبلاء والبلوى واحد، والجمع البلايا ومعنى الكل الاختبار.

أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونهم حتى يؤدوهم النار ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿هنالك تبلو﴾ الآية. وعن ابن زيد قال: تعاين كل نفس ما عملت، وقرىء تتلو من التلاوة، أي تقرأ كل نفس صحيفة عملها من خير أو شر.

﴿وردوا﴾ أي الذين أشركوا ﴿إلى الله﴾ أي إلى جزائه وما أعد لهم من عقابه والرد عبارة عن صرف الشيء الى الموضع الذي جاء منه ﴿مولاهم﴾ ربهم ومالكهم ﴿الحق﴾ صفة له، أي الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة، وقرىء بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله أهل الحمد ﴿وضل عنهم﴾ أي ضاع وبطل وذهب في الموقف ﴿ما كانوا يفترون﴾ عليه من أن الآلهة التي لهم حقيقة بالعبادة تشفع لهم الى الله وتقربهم اليه.

والحاصل أن هؤلاء المشركين يرجعون في ذلك المقام إلى الحق ويعترفون به ويقرون ببطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه إلهاً، ولكن حين لا ينفعهم ذلك. وعن السدي قال: نسخها قوله ﴿بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾.

ثم لما بين الله سبحانه فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدامغة من أحوال الرزق والحواس والموت والحياة والابتداء والاعادة والارشاد والهدى، وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب الى المسؤولين ليكون أبلغ في إلزام الحجة وأوقع في النفوس فقال:

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾

﴿قل﴾ يا محمد للمشركين احتجاجاً لحقية التوحيد وبطلان ما هم عليه من الشرك؛ وهذه أسئلة ثمانية، جواب الخمسة الأولى منها منهم، وجواب الاثنين بعدها منه صلى الله عليه وسلم بتعليم الله إياه لعدم قدرتهم عليه، وجواب الأخير لم يذكر لشهرته والعلم به.

﴿ من يرزقكم من السماء ﴾ بالمطر ﴿ والأرض ﴾ بالنبات والمعادن فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية أو من كل واحدة منهما توسعة عليكم ، ومن لابتداء الغاية فإن اعترفوا حصل المطلوب وان لم يعترفوا بأن الله هو الذي خلقهما فقل .

﴿أم من يملك السمع والابصار﴾ أم هي المنقطعة بمعنى بل وفي هذا إضراب انتقال، انتقال من سؤال الى سؤال على القاعدة المقررة في القرآن لا اضراب إبطال، اي من يستطيع خلقهما وتسويتهما او من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالها من أدنى شيء وحقيقة الملك معروفة ويلزمها الاستطاعة لان المالك لشيء يستطيع التصرف فيه والحفظ له والحماية، لذلك تجوّز به عن كل منهما وخصهما بالذكر لما فيهما من الصنعة العجيبة والخلقة الغريبة حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم ويحصلون بهما من الفوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين، ثم انتقل الى حجة ثالثة فقال ﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾ أي الانسان من النطفة والطير من البيضة والنبات من الحبة او المؤمن من الكافر، والاول أقرب الى الحقيقة ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ اي النطفة من الانسان او الكافر من المؤمن، او البيضة من الطائر الحي، والمراد

بهذا الاستفهام عمن يحيي ويميت، وهذه حجة رابعة ثم انتقل الى حجة خامسة فقال:

﴿ومن يدبر الامر﴾ بين الخلائق أي يقدره ويقضيه، وهذا من عطف العام على الخاص لانه قد عم ما تقدم وغيره ﴿فسيقولون الله﴾ اي سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات الخمس ان الفاعل لهذه الامور هو الله سبحانه ان انصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم، والمعنى الله يفعل ذلك.

﴿فقل﴾ أمره ان يقول لهم ذلك وعظاً وتذكيراً بعد ان يجيبوا بهذا الجواب ﴿أفلا تتقون﴾ الاستفهام للانكار والفاء للعطف على مقدر اي تعلمون ذلك أفلا تتقون وتفعلون ما يوجبه هذا العلم من تقوى الله الذي يفعل هذه الافعال، وتعبدون هذه الاموات والاصنام التي لا تقدر على شيء من هذه الامور بل ولا تعلم به، وفي البيضاوي أفلا تتقون عقابه بإشراككم إياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

﴿فذالكم﴾ الذي يفعل هذه الافعال ﴿الله﴾ وهو ﴿ربكم﴾ المتصف بأنه ﴿الحق﴾ لا ما جعلتموهم شركاء له في الموتى والأصنام، والاستفهام في قوله ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ للتقريع والتوبيخ ان كانت ما استفهامية لا ان كانت نافية كما يحتمله الكلام، والمعنى اي شيء بعد الحق إلا الضلال فان ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق باقرارهم وكان غيره باطلاً لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحداً في ذاته وصفاته.

﴿فأنى تصرفون﴾ أي كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر وتقعون في الضلال اذ لا واسطة بينهما فمن تخطى احدهما وقع في الآخر، والاستفهام للانكار والاستبعاد والتعجب.

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿كذلك﴾ أي كما ثبت ان الحق ليس بعده إلا الضلال او كما حق انهم مصروفون عن الحق كذلك ﴿حقت كلمة ربك﴾ أي حق حكمه وقضاؤه ﴿على الذين فسقوا﴾ خرجوا من الحق الى الباطل وتمردوا في كفرهم عناداً ومكابرة، قال الزمخشري: أي مثل ذلك الحق حقت، وقال الزجاج: أي حقت عليهم هذه الكلمة ووجبت وهي ﴿انهم لا يؤمنون﴾ أي عدم ايمانهم بدل كل من كل، او المعنى لانهم لا يؤمنون فيكون تعليلاً لحقيتها عليهم.

﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أورد سبحانه في هذا حجة سادسة على المشركين وامر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يقولها لهم وهم وان كانوا لا يعترفون بالمعاد لكنه لما كان أمراً ظاهراً بيّناً وقد أقام الأدلة عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من انصف ولم يكابر كان كالمسلم عندهم الذي لا جحد له ولا انكار فيه.

والمعنى هل من هذه الاصنام والاموات التي تزعمون انها آلهة من يقدر على ان ينشيء الخلق من العدم على غير مثال سبق ثم يعيده بعد الموت في القيامة كهيئته اول مرة للجزاء.

وهذا السؤال استفهام إنكار، وانما لم يعطف على ما قبله ايذاناً باستقلاله في اثبات المطلوب، وعبارة أبي السعود هذا احتجاج آخر على حقية التوحيد

وبطلان الإشراك باظهار كون شركائهم بمعزل عن استحقاق الالوهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق واعادته به تعالى. اهـ

والحاصل انه لا يقال ان الكفار ينكرون الإعادة والبعث فكيف يحتج عليهم بها لان إلزام الخصم كما يصح بما يعترف به يصح ايضاً بما تبينت وثبتت حقيته لقوة برهانه، فلذا جعل الاعادة كالبدء في الالزام لظهور برهانها وان لم يعترفوا بها.

ولذلك امر الرسول ان ينوب عنهم في الجواب كما قال سبحانه ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي هو الذي يفعل ذلك لا غيره، وهذا القول الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن أمر الله سبحانه له نيابة عن المشركين في الجواب كما تقدم، اما عن طريق التلقين لهم وتعريفهم كيف يجيبون وارشادهم الى ما يقولون، واما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح الى غاية لا يحتاج معها الى اقرار الخصم ومعرفة ما لديه، واما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا الجواب فراراً منهم عن ان تلزمهم الحجة او ان يسجل عليهم بالمكابرة ان حادوا عن الحق.

﴿فأنى تؤفكون﴾ اي فكيف تصرفون عن الحق وتنقلبون منه الى غيره، والمراد التعجب من احوالهم.

ثم امره الله سبحانه ان يورد عليهم حجة سابعة فقال ﴿قل هل من شركائكم﴾ الاستفهام ههنا كالاستفهامات السابقة ﴿من يهدي الى الحق﴾ الإستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً في القرآن كقوله ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ وقوله ﴿الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وقوله ﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾ وفعل الهداية يجيء متعدياً باللام والى وهما بمعنى واحد، روى ذلك عن الزجاج.

وقيل كما يعدى بإلى لتضمنه معنى الانتهاء باللام للدلالة على ان المنتهى

غاية الهداية والمعنى متقارب، وقد يحذف الحرف تخفيفاً وقد جمع بين المتعديين هنا بحرف الجر، فعدى الاول والثالث بإلى والثاني باللام والتعدية بهذين الحرفين من باب التفنن في البلاغة، ولذلك قال الزمخشري هداه للحق والى الحق فجمع بين اللغتين: والمراد بالحق في المواضع الثلاثة ضد الباطل.

ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك او معاندين امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يجيب بقوله ﴿قل﴾ لهم ﴿الله﴾ الذي له الاحاطة الكاملة ﴿يهدي للحق﴾ من يشاء دون غيره ممن زعمتموهم شركاء، ودليل ذلك ما تقدم من الادلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا، وهداية الله سبحانه لعباده الى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات وارساله للرسل وانزاله للكتب، وخلقه لما يتوصل به العباد الى ذلك من العقول والافهام والاسماع والابصار.

والاستفهام في قوله ﴿أفمن﴾ للتقرير والزام الحجة والفاء لترتيبه على ما سبق وهو برهان ثامن لم يذكر جوابه في الآية، والمعنى أفمن ﴿يهدي﴾ الناس ﴿الى الحق﴾ وهو الله سبحانه ﴿أحق أن يتبع﴾ ويقتدي ﴿أم من لا يهدي﴾ أي أم الأحق بان يتبع ويقتدي به من لا يهتدي بنفسه ﴿الا ان يهدى﴾ الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أي لا يهتدي في حال من الاحوال الا في حال هدى الغير اياه، وكان مقتضى المقابلة ان يقال أم من لا يهدي، وانما خولف اشارة الى انه اذا لم يهتد بنفسه لا يهدي غيره.

وقال النحاس: الاستثناء منقطع كما تقول فلان لا يسمع غيره الا ان يسمع اي لكنه يحتاج ان يسمع، فمعنى الا ان يهدى اي لكنه يحتاج ان يهدى ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متواليين اي أيُّ شيء يثبت لكم في هذه الحالة؟ فهذه جملة مستقلة، وكيف تحكمون لي باتخاذ هؤلاء شركاء لله؟ وهي جملة اخرى مستقلة، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ.

ثم بين سبحانه ما هؤلاء عليه في امر دينهم وعلى أي شيء بنوه وبأي شيء اتبعوا هذا الدين الباطل وهو الشرك فقال ﴿وما يتبع اكثرهم الا ظناً﴾ هذا كلام مبتدأ غير داخل في الاوامر السابقة، والمعنى ما يتبع هؤلاء المشركون في اشراكهم بالله وجعلهم له انداداً الا مجرد الظن والتخمين والتحدس، ولم يكن ذلك عن بصيرة والتفات الى فرد من افراد العلم، فضلاً عن ان يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية الى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الصادقة فيفهموا مضمونها ويقفوا على مقتضاها وبطلان ما يخالفها، بل ظن من ظن من سلفهم ان هذه المعبودات تقربهم الى الله وانها تشفع لهم.

ولم يكن ظنه هذا لمستند قط بل مجرد خيال مختل وحدس باطل فقلدوا فيه آباءهم ولعل تنكير الظن هنا للتحقير، اي إلا ظناً ضعيفاً واهياً لا يستند الى ما تستند اليه سائر الظنون.

وقيل المراد بالآية انه ما يتبع اكثرهم في الايمان بالله والاقرار به إلا ظناً والاول اولى، وقيل المراد بالاكثر الكل لان جميعهم يتبعون الظن في دعواهم أن الأصنام تشفع لهم، قال الكرخي: وفيه دليل على ان تحصيل العلم في الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز، وقيل المراد بالاكثر الرؤساء.

ثم اخبرنا الله سبحانه ﴿ان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ لان امر الدين إنما ينبني على العلم وبه يتضح الحق من الباطل، والظن لا يقوم مقام العلم ولا يدرك به الحق ولا يغني عن الحق في شيء من الاشياء، والجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ومن بمعنى عن والحق بمعنى العلم ﴿ان الله عليم بما يفعلون﴾ من الافعال القبيحة الصادرة لا عن برهان فيندرج تحتها ما حكى عنهم من الاعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجاً اولياً.

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

﴿وما كان هذا القرآن ان يفترى﴾ قيل ان بمعنى اللام اي ليفترى، وقيل بمعنى لا أي لا يفترى.

لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه شرع في تثبيت امر النبوة أي وما صح وما استقام ان يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة والبراهين الواضحة مفترى من الخلق ﴿من دون الله﴾ وانما هو من عند الله عز وجل، وكيف يصح ان يكون مفترى على سبيل الافتعال والاختلاق وقد عجز عن الاتيان بسورة منه القوم الذين هم افصح العرب لساناً وادقهم اذهاناً.

قال الفراء: ومعنى الآية وما ينبغي لهذا القرآن ان يفترى كقوله ﴿وما كان لنبي أن يغل وكقوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ يعني ليس وصف القرآن وصف شيء يمكن أن يفترى به على الله لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر، وانه مبرأ عن الافتراء والكذب.

﴿ولكن﴾ كان هذا القرآن، ووقعت لكن هنا احسن موقع اذ هي بين نقيضين وهما الكذب والصدق المضمن للتصديق، وفيه اوجه (احدها) العطف على خبر كان (الثاني) انه خبر لكان مضمرة وتقدم تقديره واليه ذهب الكسائي والفراء وابن سعدان والزجاج وهذا كالذي قبله في المعنى (الثالث) تقديره وما كان هذا القرآن ان يفترى ولكن انزل للتصديق (والرابع) تقديره ولكن يصدق الذي، قاله السمين.

﴿تصديق الذي بين يديه﴾ أي أمامه من الكتب الإلهية المنزلة على

الانبياء قبله، اي انها قد بشرت به قبل نزوله فجاء مصدقاً لها، ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة،لان اقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة مع ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك، وقيل المعنى ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن وهو محمد (ﷺ) لانهم شاهدوه قبل ان يسمعوا منه القرآن.

﴿وتفصيل الكتاب﴾ التفصيل التبيين، أي بين ما في كتب الله المتقدمة، والالف واللام في الكتاب للجنس، وقيل اراد ما بين في القرآن من الاحكام فيكون المراد بالكتاب القرآن وقيل اللوح المحفوظ ﴿لا ريب فيه﴾ الضمير عائد الى القرآن وهو داخل في حكم الاستدراك وهو خبر ثالث او حال من الكتاب اي منتفياً عنه الريب او مستأنف او معترض بين تصديق وبين ﴿من رب العالمين﴾ أي كائن منه خبر رابع او حال ثانية او متعلق بتصديق او بتفصيل او التقدير انزل للتصديق من رب العالمين.

﴿أم يقولون افتراه﴾ الاستفهام للانكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة وام هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة اي بل أيقولون افتراه واختلقه. وقال ابو عبيدة: ام بمعنى الواو أي ويقولون، وقيل الميم زائدة اي أيقولون والاستفهام للتقريع والتوبيخ والانكار والاستبعاد، اي هذا القول منهم في غاية البعد والشناعة، وقيل التقدير أيقرون به ام يقولون.

ثم امره الله سبحانه ان يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال ﴿قل﴾ تبكيتاً لهم واظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة ﴿فأتوا﴾ اي ان كان الامر كما تزعمون من ان محمداً افتراه فأتـوا انتم على جهة الافتراء ﴿بسورة مثله﴾ في البلاغة وجودة الصناعة فأنتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة الالسن، وحسن النظم وبلاغة الكلام، والمراد مثل هذه السورة لانها اقرب ما يمكن ان يشار اليه، هكذا قال الرازي وهي مكية والاولى التناول لجميع السور، فانهم

لا يقدرون ان يأتوا بأقصر سورة.

﴿وادعوا﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿من استطعتم﴾ دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ومن آلهتكم التي تجعلونها شركاء لله ﴿من دون الله﴾ اي من سوى الله من خلقه ﴿ان كنتم صادقين﴾ في دعواكم ان هذا القرآن مفترى، فان ذلك مستلزم لإمكان الاتيان بمثله، وهو ايضا مستلزم لقدرتكم عليه.

وسبحان الله العظيم ما اقوى هذه الحجة واوضحها واظهرها للعقول، فانهم لما نسبوا الافتراء الى واحد منهم في البشرية والعربية قال:لهم هذا الذي نسبتموه اليّ وانا واحد منكم ليس عليكم الا ان تأتوا وانتم الجمع الجَمّ بسورة مماثلة لسورة من سوره، واستعينوا بمن شئتم من اهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم، او من غيرهم من بني آدم ومن الجن او من الاصنام، فان فعلتم هذا بعد اللتيا والتي فأنتم صادقون فيما نسبتموه اليّ والصقتموه بي.

فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف والتنزل البالغ بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة، بل كاعوا عن الجواب وتشبثوا بأذيال العناد البارد والمكابرة المجردة عن الحجة، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل.

ومراتب تحدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن أربعة: **أولها** :انه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن﴾

ثانيها : انه تحداهم بعشر سور. قال تعالى ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾.

ثالثها : انه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى ﴿فأتوا بسورة مثله﴾

رابعها: انه تحداهم بحديث مثله كما قال تعالى ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾

فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله في اثبات ان القرآن معجز.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

ثم ان الله تعالى ذكر السبب الذي لاجله كذبوا بالقرآن واتى به عقب هذا التحدي البالغ فقال ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ فاضرب عن الكلام الأول وانتقل الى بيان انهم سارعوا الى تكذيب القرآن قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه وما اشتمل عليه، وهكذا صنع من تصلب في التقليد ولم يبال بما جاء به من دعا الى الحق وتمسك بذيول الانصاف، بل يرده بمجرد كونه لم يوافق هواه، ولا جاء على طبق دعواه قبل ان يعرف معناه ويعلم مبناه كما تراه عياناً، وتعلمه وجداناً.

والحاصل ان من كذب بالحجة النيرة والبرهان الواضح قبل ان يحيط بعلمه فهولم يتمسك بشيء فيهذا التكذيب الا مجرد كونه جاهلاً انما كذب به غير عالم به، فكان بهذا التكذيب منادياً على نفسه بالجهل بأعلى صوته ومسجلاً بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء.

ما يبلغ الاعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

﴿ولما يأتهم تأويله﴾ اي بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله، اي كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به ولا بلغته عقولهم ولا وصلت اذهانهم معانيه الرائقة المُنبئة عن علو شأنه.

والمعنى ان التكذيب وقع منهم قبل الاحاطة بعلمه، وقبل ان يعرفوا ما

يؤول اليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من اخبار الرسل المتقدمين، والامم السابقين، ومن حكايات ما سيحدث من الامور المستقبلة التي اخبر عنها قبل كونها او قبل ان يفهموه حق الفهم وتتعقله عقولهم، فانهم لو تدبروه كل التدبر لفهموه كما ينبغي، وعرفوا ما اشتمل عليه من الامور الدالة ابلغ دلالة على انه كلام الله.

وعلى هذا فمعنى تأويله ما يئول اليه لمن تدبره من المعاني الرشيقة واللطائف الانيقة وكلمة التوقع اظهر في المعنى الاول، والمعنى ان القرآن معجز من جهة النظم ومن جهة المعنى من حيث الاخبار بالغيب.

﴿كذلك﴾ اي مثل ذلك التكذيب ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ من الامم عند ان جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه فانهم كذبوا به قبل ان يحيطوا بعلمه، وقبل ان يأتيهم تأويله ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ من الامم السالفة من سوء العاقبة بالخسف والمسخ ونحو ذلك من العقوبات التي حلت بهم، كما حكى ذلك القرآن عنهم واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل فرد من الناس والجملة في قوة فأهلكناهم.

﴿ومنهم﴾ اي ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن ﴿من يؤمن به﴾ في نفسه ويعلم انه صدق وحق ولكنه كذّب مكابرة وعناداً، وقيل المراد ومنهم من يؤمن به في المستقبل وان كذب به في الحال ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ ولا يصدقه في نفسه بل كذب به جهلاً وتقليداً، او لا يؤمن به في المستقبل بل يبقى على جحوده واصراره؛ وقيل الضمير في الموضعين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قيل ان هذا التقسيم خاص بأهل مكة، وقيل عام في جميع الكفار ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ فيجازيهم بأعمالهم والمراد بهم المصرون المعاندون.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وان كذبوك فقل﴾ امر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ان اصروا على تكذيبه واستمروا عليه ﴿لي﴾ جزاء ﴿عملي ولكم عملكم﴾ اي جزاؤه فقد ابلغت اليكم ما امرت بابلاغه وليس علي غير ذلك، ثم اكد بقوله ﴿انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون﴾ اي لا تؤاخذون بعملي ولا أوخذ بعملكم، وفيه توكيد لما افادته لام الاختصاص من عدم تعدي اجر العمل الى غير عامله.

وقد قيل ان هذا منسوخ بآية السيف لما فيه من ايهام الاعراض عنهم وتخلية سبيلهم كما ذهب اليه جماعة من المفسرين منهم مقاتل والكلبي، وعن ابن زيد قال: امره الله بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم.

قال الرازي: وهو بعيد لان شرط الناسخ ان يكون رافعاً لحكم المنسوخ، ومدلول الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات افعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية، بل هو باق فكان القول بالنسخ باطلاً.

﴿ومنهم من يستمعون اليك﴾ بين الله سبحانه في هذا ان في اولئك الكفار من بلغت حاله،في النفرة والعداوة الى هذا الحد وهي انهم يستمعون الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة لعدم حصول اثر السماع وهو حصول القبول والعمل بما يسمعونه، وجمع الضمير في يستمعون حملاً على معنى من وافرده في ومنهم من ينظر حملاً على لفظه، قيل والنكتة كثرة المستمعين بالنسبة الى الناظرين لان

الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع والنور الموافق لنور البصر، والتقدير في قوله ومنهم من يستمعون ومنهم من ينظر ومنهم ناس يستمعون ومنهم بعض ينظر.

﴿أفأنت تسمع الصم﴾ الهمزة للانكار يعني ان هؤلاء وان استمعوا في الظاهر فهم صم والصمم مانع من سماعهم فكيف يطمع منهم في ذلك مع حصول المانع وهو الصمم، فكيف اذا انضم الى ذلك ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ فإن من كان أصمَّ غير عاقل لا يفهم شيئاً ولا يسمع ما يقال له، والفاء عاطفة.

وفيه تنبيه على ان حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه،ولذلك لا توصف به البهائم،وهو لا يتأتى الا باستعمال العقل السليم في تدبره، وعقولهم لما كانت مريضة بمعارضة الوهم ومتابعة الإلف والتقليد، تعذر افهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الالفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق.

والكلام في ﴿ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون﴾ كالكلام فيما تقدم لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه في النظر، وقد انضم الى فقد البصر فقد البصيرة، لأن الاعمى الذى له في قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الاحوال فهماً يقوم مقام النظر، وكذلك الأصم العاقل قد يتحدس تحدساً يفيده بعض فائدة بخلاف من جمع له بين عمى البصر والبصيرة فقد تعذر عليه الادراك، وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل فقد انسد عليه باب الهدى.

والمقصود من هذا الكلام تسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن الطبيب اذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج اصلاً أعرض عنه واستراح من الاشتغال به والهمزة للانكار.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

﴿ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون﴾ ذكر هذا عقب ما تقدم من عدم الاهتداء بالاسماع والابصار لبيان ان ذلك لم يكن لاجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة بل لاجل ما صار في طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق والمجادلة بالباطل، والاصرار على الكفر فهم الذين ظلموا انفسهم بذلك، ولم يظلمهم الله شيئاً من الاشياء، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به اكمل ادراك، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به الى ما يريدون، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية *فعلى نفسها براقش تجني*

قيل والنكتة في وضع الظاهر موضع المضمر زيادة اليقين والتقرير، وتقديم المفعول على الفعل لافادة القصر او لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة.

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشرهم﴾ اي المشركين المنكرين للبعث لموقف الحساب،واصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم من مكانهم اي احياؤهم من القبور ﴿كأن﴾ اي كأنهم ﴿لم يلبثوا﴾ اي مشبهين بمن لم يلبث ﴿إلا ساعة من النهار﴾ اي شيئاً قليلاً.

والمراد باللبث هو اللبث في الدنيا وقيل في القبور، استقلوا المدة الطويلة اما لانهم ضيعوا اعمارهم في الدنيا فجعلوا وجودها كالعدم او استقصروها للدهش والحيرة او لطول وقوفهم في المحشر او لشدة ما هم فيه من العذاب، نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن ومثل هذا قولهم ﴿لبثنا يوماً او بعض يوم﴾ او لان مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جداً.

والمقصود من هذا التشبيه كما قاله ابو السعود بيان كمال سهولة الحشر بالنسبة اليه تعالى ولو بعد دهر طويل، واظهار بطلان استعبادهم وانكارهم له بقولهم ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ ونحو ذلك او بيان تمام الموافقة بين النشأتين في الاشكال والصور فان اللبث اليسير يلزمه عدم التبدل والتغير.

والمراد بالساعة الزمن القليل فانها مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار لان ساعاته اعرف حالاً من ساعات الليل.

﴿يتعارفون بينهم﴾ اي يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا الا قليلاً، بيان وتقرير لما سبق وذلك يقع في الحشر الذي هو الاجتماع اي في ابتدائه وينقطع في اثنائه وقيل عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لما بين ايديهم من الامور المدهشة للعقول المذهلة للافهام، واما البعث فلا تعارف فيه لعدم الاجتماع الذي هو لازمه.

وهذا احد وجهين في المقام ذكره البيضاوي وابو البقاء، وغالب المفسرين على خلافه وهو تفسير الحشر بالبعث من القبور وجرى على هذا ابوالسعود والخازن والقرطبي، وقيل ان هذا التعارف هو تعارف التوبيخ والتقريع يقول بعضهم لبعض انت اضللتني واغويتني، لا تعارف شفقة ورأفة كما قال تعالى ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ وقوله تعالى ﴿فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ فيجمع بأن المراد بالتعارف هو تعارف التوبيخ، وعليه يحمل قوله ﴿ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول﴾ وقوله تعالى ﴿كلما دخلت امة﴾ الآية وقوله ﴿ربنا انا اطعنا سادتنا﴾ الآية، قال القرطبي: وهو الصحيح.

وقد جمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر.

﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

بالخسران وتعجيب منه ولذا أتى بحرف التحقيق، والمراد باللقاء يوم القيامة عند الحساب والجزاء اي من باع آخرته الباقية بدنياه الفانية قد خسر لانه آثر الفاني على الباقي، والجملة مستأنفة او في محل نصب باضمار قول اي قائلين قد خسر ﴿وما كانوا مهتدين﴾ نفى عنهم ان يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم ويصلحهم.

﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ اصله ان نُرِكَ وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ولاجله زيدت نون التأكيد خلافاً لسيبويه، والمعنى ان حصلت منا الاراءة لك بعض الذي وعدناهم من اظهار دينك في حياتك بقتلهم واسرهم، وجواب الشرط محذوف، والتقدير فتراه او فذاك.

وجملة ﴿أو نتوفينك﴾ معطوفة على ما قبلها، المعنى او لا نرينك ذلك في حياتك بل نتوفينك قبل ذلك ﴿فالينا مرجعهم﴾ فعند ذلك نعذبهم في الآخرة فنريك عذابهم فيها، وجواب او نتوفينك محذوف ايضاً والتقدير او نتوفينك قبل الاراءة فنحن نريك ذلك في الآخرة، وقيل انه جواب للشرط وما عطف عليه اذ معناه صالح لذلك، والى هذا ذهب العوفي وابن عطية.

وقيل ان جواب او نتوفينك هو قوله فإلينا مرجعهم لدلالته على ما هو

المراد من اراءة النبي صلى الله عليه وسلم تعذيبهم في الآخرة وقيل العدول في الموضعين الى صيغة المستقبل لاستحضار الصورة، والاصل اريناك او توفيناك وفيه نظر فان اراءة صلى الله عليه وسلم ببعض ما وعد المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة.

وحاصل معنى هذه الآية: إن لم ننتقم منهم عاجلاً إنتقمنا منهم آجلاً، وقد اراد الله قتلهم واسرهم وذلهم وذهاب عزهم وانكسار سورة كبرهم بما اصابهم به في يوم بدر وما بعده من المواطن فللّه الحمد.

﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ من تكذيبهم وكفرهم فيعذبهم اشد العذاب وجاء بثم الدالة على التبعيد مع كون الله سبحانه شهيداً على ما يفعلونه في الدارين للدلالة على ان المراد بهذه الافعال ما يترتب عليها من الجزاء او ما يحصل من انطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة، فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم كما ذكره النيسابوري.

وفي السمين ﴿ثم﴾ هنا ليست للترتيب الزماني بل هي لترتيب الاخبار لا لترتيب القصص في نفسها كقولك زيد عالم ثم هو كريم.

قال الزمخشري: ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهوالعقاب، كأنه قيل ثم الله معاقب على ما يفعلون، وفيه وعيد لهم وتهديد شديد.

﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الخالية في وقت من الاوقات ﴿رسول﴾ يرسله الله اليهم يبين لهم ما شرعه الله لهم من الاحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة ﴿فاذا جاء رسولهم﴾ اليهم وبلغهم ما ارسله الله به فكذبوه جميعاً ﴿قضى بينهم﴾ اي بين الامة ورسولها ﴿بالقسط﴾ اي العدل فنجا الرسول وهلك المكذبون له، فيكون ما يعذبون به عدلاً لا ظلماً كما قال سبحانه ﴿وما

كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ وقوله تعالى ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾

ويجوز ان يراد بالضمير في ﴿بينهم﴾ الامة على تقدير انه كذبه بعضهم وصدقه البعض الآخر فيهلك المكذبون وينجو المصدقون، وفي وقت هذا القضاء قولان احدهما انه في الدنيا، والآخر انه في الآخرة، والاول أولى.

﴿وهم لا يظلمون﴾ في ذلك القضاء فلا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة، ومنه قوله تعالى ﴿وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم﴾ وقوله ﴿فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد﴾ والمراد المبالغة في اظهار العدل والنصفة بين العباد.

ثم ذكر سبحانه شبهة اخرى من شبه الكفار ﴿و﴾ ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا (يقولون متى هذا الوعد) والاستفهام منهم للانكار والاستبعاد، والقدح في النبوة لا طلباً لتعيين وقت مجيئه على وجه الالزام كما في سورة الملك فإن المطلوب هناك تعيين الوقت.

﴿ان كنتم صادقين﴾ خطاباً منهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين، ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسلهم الذين ارسلهم الله اليهم.

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادة الشبهة ويقطع اللجاج فقال ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾ اي لا أقدر على جلب نفع لها ولا دفع ضر عنها، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيري، وقدم الضر لان السياق لإظهار العجز عن ظهور الوعد الذي استعجلوه واستبعدوه.

والاستثناء في قوله ﴿إلا ما شاء الله﴾ منقطع كما ذكره ائمة التفسير، وبه قال الزمخشري أي ولكن ما شاء الله من ذلك كان فكيف اقدر على أن أملك لنفسي ضراً أو نفعاً، وقيل متصل تقديره إلا ما شاء الله ان املكه واقدر عليه، والأول أولى.

وفي هذا اعظم واعظ وابلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها الا الله سبحانه، وذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه، فان هذا مقام رب العالمين الذي خلق الانبياء والصالحين وجميع المخلوقين رزقهم واحياهم ويميتهم فكيف يطلب من نبي من الانبياء او ملك من الملائكة او صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه، ويترك الطلب لرب الارباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المعطي المانع.

وحسبك في هذه الآية موعظة فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً فكيف يملكه لغيره، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ الى منزلته لنفسه، فضلاً عن ان يملكه لغيره.

فياعجباً لقوم يعكفون على قبور الاموات الذين قد صاروا تحت اطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه الا الله عز وجل، كيف لا يتيقظون لما وقعوا به من الشرك ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله الا الله، ومدلول قل هو الله احد.

واعجب من هذا اطلاع اهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع الى الجاهلية الاولى بل الى ما هو اشد

منها. فان اولئك يعترفون بان الله سبحانه هو الخالق الرازق المحيي المميت الضار النافع، وانما يجعلون اصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين اليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع وينادونهم تارة على الاستقلال وتارة مع ذي الجلال وكفاك من شر سماعه، والله ناصر دينه ومظهر شريعته من اوضار الشرك وادناس الكفر.

ولقد توسل الشيطان اخزاه الله بهذه الذريعة الى ما تقر به عينه وينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً، إنا لله وإنا اليه راجعون.

ثم بين سبحانه ان لكل طائفة حداً محدوداً لا يتجاوزونه فلا وجه لاستعجال العذاب فقال ﴿لكل أمة﴾ ممن قضى بينهم وبين رسولهم او بين بعضهم لبعض ﴿أجل﴾ اي وقت خاص ومدة مضروبة يحل بهم ما يريده الله سبحانه لهم عند حلوله والاجل يطلق على مدة العمر، وعلى آخر جزء منه، والمراد هنا الثاني كما يؤخذ من التفاسير.

﴿فإذا جاء أجلهم﴾ أي أجل كل أمة، قال ابو السعود: ان جعل الأجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر، وان اريد به ما امتد من الزمان فمجيئه عبارة عن انقضائه اذ هناك يتحقق مجيئه بتمامه ﴿فلا يستأخرون﴾ عن ذلك الاجل المعين ﴿ساعة﴾ اي شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ولا يستقدمون﴾ منه، ومثله قوله تعالى ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ والسين زائدة فيهما، والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدم في تفسير الآية التي في أول الاعراف فلا نعيده.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿قل أرأيتم ان اتاكم عذابه﴾ هذا منه سبحانه تزييف لرأي الكفار في استعجال العذاب بعد التزييف الاول، اي اخبروني عن عذاب الله ان اتاكم اي شيء تستعجلون منه وليس شيء من العذاب يستعجله العاقل، اذ العذاب كله مر المذاق، موجب لنفار الطبع منه.

فتكون جملة الاستفهام جاءت على سبيل التلطف بهم، والتنبيه لهم على ان العذاب لا ينبغي ان يستعجل، أو جاءت على سبيل التعجب والتهويل للعذاب، أي أيُّ شيء شديد تستعجلون منه، أي ما أشد وما أهول ما تستعجلون من العذاب. قاله أبو حيان.

﴿بياتاً﴾ أي وقت بيات، والمراد به الوقت الذي يبيتون فيه وينامون ويغفلون عن التحرز، والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم، وكذلك قوله ﴿او نهاراً﴾ اي وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب، والاستفهام في قوله ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ للانكار المتضمن للنهي كما في قوله ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾

ووجه الانكار عليهم في استعجالهم ان العذاب مكروه تنفر منه القلوب وتأباه الطبائع فما المقتضى لاستعجالهم له، وضمير منه راجع الى العذاب، وقيل الى الله، والجملة جواب الشرط بحذف الفاء وقيل ان الجواب محذوف.

والمعنى إن أتاكم عذابه تندموا على الاستعجال او تعرفوا الخطأ منكم فيه، وقيل ان الجواب قوله ﴿أثُمَّ اذا ما وقع﴾ ويكون جملة ماذا يستعجل اعتراضاً، والمعنى ان اتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان، والأول أولى.

قال الحفناوي: ولم يقل يستعجلون منه للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال وهو الاجرام لان من حق المجرم ان يخاف من العذاب على اجرامه وان يهلك فزعاً من مجيئه وان ابطأ فكيف يستعجله.

ودخول الهمزة الاستفهامية في ﴿أَثُمَّ اذا ما وقع آمنتم به﴾ لانكار ايمانهم حيث لا ينفع الايمان وذلك بعد نزول العذاب، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم وتفظيع ما فعلوه في غير وقته مع تركهم له في وقته الذي يحصل به النفع والدفع، وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به، وجيء بكلمة ثم التي للتراخي دلالة على الاستبعاد، وجيء بإذا مع زيادة ما للتأكيد دلالة على تحقق وقوع الايمان منهم في غير وقته ليكون في ذلك استجهال لهم.

والمعنى ابعد ما وقع عذاب الله عليكم وحل بكم سخطه وانتقامه آمنتم حين لا ينفعكم هذا الايمان شيئاً ولا يدفع عنكم ضراً، وقيل ان هذه الجملة ليست داخلة تحت القول المأمور به وانها من قول الملائكة استهزاء بهم وازراء عليهم ، والاول اولى، وقيل ثم هنا بفتح الثاء بمعنى هناك والأول أولى.

﴿آلآن﴾ بهمزتين الاولى همزة الاستفهام والثانية همزة ال المعرفة اذا اجتمع هاتان الهمزتان وجب في الثانية احد أمرين: تسهيلها من غير الف بينها وبين الاولى وابدالها مداً بقدر ثلاث ألفات، وقد وقع في القرآن الكريم من هذا القبيل ستة مواضع اثنان في الانعام وهما ﴿آلذكرين﴾ مرتين، وثلاثة في هذه السورة فقط آلآن هنا وفيها سيأتي ولفظ ﴿آلله أذن لكم﴾ وواحد في النمل ﴿آلله خير﴾ فلا يجوز في هذه المواضع الستة تحقيق الهمزتين، بل يجب احد الامرين اللذين قد عرفتهما، قيل هو استئناف بتقدير للقول غير داخل تحت القول الذي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقوله لهم، اي قيل لهم عند ايمانهم بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به ﴿و﴾ الحال انكم ﴿قد كنتم به﴾ اي العذاب ﴿تستعجلون﴾ يعني تكذبون لان استعجالهم كان على جهة التكذيب والاستهزاء ويكون المقصود بأمره صلى الله عليه وسلم ان يقول لهم هذا القول على سبيل التوبيخ لهم والازراء عليهم.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤)﴾

﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ انفسهم بالكفر وعدم الايمان ﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾ اي العذاب الدائم الذي لا ينقطع وهو عطف على ما قدر قبل آلآن، والمراد منه التقريع والتوبيخ لهم يوم القيامة على سبيل الاهانة، اي قيل لهم ان هذا الذي تطلبونه ضرر محض عار عن النفع من كل وجه، والعاقل لا يطلب ذلك، والقائل لهم هذه المقالة قيل هم خزنة جهنم، ولا يبعد ان يكون القائل لذلك هم الانبياء على الخصوص او المؤمنون على العموم.

﴿هل تجزون الا بما كنتم تكسبون﴾ في الحياة الدنيا من الكفر والمعاصي والاعمال والاستفهام للتقرير، والاستثناء مفرغ وكأنه يقال لهم هذا القول عند استغاثتهم من العذاب وحلول النقمة بهم.

ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذا البيانات البالغة والجوابات عن اقوالهم الباطلة انهم استفهموا تارة اخرى عن تحقق العذاب فقال ﴿ويستنبئونك﴾ اي يستخبرونك على جهة الاستهزاء منهم والانكار ﴿أحق هو﴾ اي ما تعدنا به من العذاب في العاجل والآجل، وهذا السؤال منهم جهل محض وظلمات بعضها فوق بعض، فقد تقدم ذكره عنهم مع الجواب عليه، فصنيعهم في هذا التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول ولا ما يقال له.

وقيل المراد بهذا الاستخبار منهم هو عن حقية القرآن.

﴿قل﴾ أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم في جواب استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء، أي قل لهم يا محمد غير ملتفت الى

ما هو مقصودهم من الاستهزاء ﴿إي﴾ أي نعم ﴿وربي انه﴾ أي أن ما أعدكم به من العذاب ﴿لحق﴾ ثابت كائن لا محالة.

وفي هذا الجواب تأكيد من وجوه (الاول) القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم (الثاني) دخول إن المؤكدة (الثالث) اللام في لحق (الرابع) اسمية الجملة وذلك يدل على انهم قد بلغوا في الانكار والتمرد الى الغاية التي ليس وراءها غاية.

ثم توعدهم بأشد توعد ورهبهم بأعظم ترهيب فقال ﴿وما انتم بمعجزين﴾ أي فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئاً بل هو مدرككم ولا بد، وهذه الجملة اما معطوفة على جملة جواب القسم او مستأنفة لبيان عدم خلوصهم عن عذاب الله بوجه من الوجوه.

ثم زاد في التأكيد فقال ﴿ولو﴾ امتناعية على ما هو الكثير فيها ﴿أن لكل نفس﴾ من الأنفس المتصفة بأنها ﴿ظلمت﴾ نفسها بالكفر بالله وعدم الايمان به ﴿ما في الارض﴾ من كل شيء من الاشياء التي تشتمل عليها من الاموال النفيسة والذخائر الفائقة ﴿لافتدت به﴾ اي جعلته فدية لها من العذاب يوم القيامة لاينفعها الفداء ولا يقبل منها، ومثله قوله تعالى ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من احدهم ملء الارض ذهباً ولو افتدى به﴾

ويجوز ان يكون الافتداء متعدياً وان يكون قاصراً، فاذا كان مطاوعاً لمتعد كان قاصراً، تقول فديته فافتدى وان لم يكن مطاوعاً يكون بمعنى فدى فيتعدى لواحد، والفعل يحتمل الوجهين فان جعلناه متعدياً فمفعوله محذوف تقديره لافتدت به نفسها وهو من المجاز كقوله تعالى ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾.

﴿وأسروا الندامة﴾ الضمير راجع الى الكفار الذين سياق الكلام معهم،

وقيل راجع الى الانفس المدلول عليها بكل نفس وان كان المراد خصوص الرؤساء منهم.

ومعنى اسروا اخفوا، اي لم يظهروا الندامة على ترك الايمان بل اخفوها لما قد شاهدوه في ذلك الموطن مما سلب عقولهم وذهب بتجلدهم، ويمكن انه بقي فيهم وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم الى العصبية التي كانوا عليها في الدنيا فأسروا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون.

وقيل أسرها الرؤساء فيما بينهم دون اتباعهم خوفاً من توبيخهم لهم لكونهم هم الذين اضلوهم وحالوا بينهم وبين الاسلام، وقيل معنى أسروا أظهروا لأن أسر من الاضداد ومعنى الاول هو المشهور في اللغة وهو في الآية يحتمل الوجهين؛ وقيل وجدوا ألم الحسرة في قلوبهم لان الندامة لا يمكن إظهارها.

وذكر المبرد في ذلك وجهين: الاول: انها بدت في وجوهم أسرة الندامة وهي الانكسار واحدها سرار وجمعها أسارير والثاني: ما تقدم وقيل معنى أسروا الندامة اخلصوها لان إخفاءها اخلاصها، قيل انه ماض على بابه قد وقع، وقيل بل هو بمعنى المستقبل.

﴿لما﴾ ظرف بمعنى حين أي حين ﴿رأوا العذاب﴾ اي وقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ومعاينته، واما بعد الدخول فيه فهم الذين قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا.

﴿وقضى بينهم بالقسط﴾ أي العدل مستأنفة وهو الظاهر او معطوفة على رأوا اي قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين او بين الرؤساء او بين الظالمين من الكفار والمظلومين بالعدل، وقيل معنى القضاء بينهم انزال العقوبة عليهم ﴿وهم لا يظلمون﴾ اي لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذي حل بهم فانه بسبب ما كسبوا.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾

وجملة ﴿ألا إن لله ما في السموات والارض﴾ مسوقة لتقرير كمال قدرته لأن من ملك ما في السموات والارض يتصرف به كيف يشاء، وغلب غير العقلاء لانهم اكثر المخلوقات، قيل لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما في الارض لو كان لهم ذلك بين ان الاشياء كلها لله وليس لهم شيء يتمكنون من الافتداء به.

وقيل لما أقسم على حقية ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم،أراد ان يصحب من ذلك بدليل البرهان البين،بأن ما في العالم على اختلاف انواعه ملكه يتصرف به كيف يشاء وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه انتباه للغافلين وايقاظ للذاهلين.

ثم أكد ما سبق بقوله ﴿ألا ان وعد الله حق﴾ أي كائن لا محالة وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندارجاً اولياً، وتصدير الجملة بحرف التنبيه كما قلنا في التي قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين وتقرير ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضار المحافظة عليه ﴿ولكن اكثرهم﴾ اي اكثر الناس يعني الكفار ﴿لا يعلمون﴾ ما فيه صلاحهم فيعملون به وما فيه فسادهم فيجتنبونه لقصور عقلهم واستيلاء الغفلة عليهم.

﴿هو يحيي ويميت﴾ أي يهب الحياة ويسلبها ﴿واليه ترجعون﴾ في الدار الآخرة فيجازي كلًّا بما يستحقه ويتفضل على من يشاء من عباده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿ياأيها الناس﴾ قيل أراد قريشاً وقيل هو على العموم وهو الأولى واختاره الطبري وفيه التفات ورجوع الى استمالتهم عقب تحذيرهم من غوائل الضلال وشروع في بيان أدلة الرسالة بعد بيان أدلة التوحيد ﴿قد جاءتكم موعظة﴾ يعني القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه والوعظ في الاصل هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب او الترهيب، والواعظ هو كالطبيب، ينهى المريض عما يضره وقيل الوعظ زجر مقترن بتخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب.

﴿من ربكم﴾ من لابتداء الغاية وهو مجاز، او للتبعيض اي موعظة كائنة من مواعظ ربكم ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ من الشكوك التي تعتري بعض المرتابين لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائد الحقة، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة.

عن ابي سعيد الخدري قال: جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: اني اشتكي صدري، فقال: اقرأ القرآن، يقول الله: ﴿شفاء لما في الصدور﴾ اخرجه ابن المنذر وابن مردويه.

واخرج البيهقي في شعب الايمان عن واثلة بن الاسقع ان رجلاً شكا الى النبي صلى الله عليه وسلم وجع حلقه قال: «عليك بقراءة القرآن والعسل فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء من كل داء» والشفاء في الاصل مصدر جعل وصفاً مبالغة او هو اسم لما يشفى به اي يتداوى فهو كالدواء لما

يداوى به، وانما خص الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع في بدن الانسان لمكان القلب فيه، وداء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن، والقرآن مزيل لأمراض القلب كلها.

﴿وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ بانجائهم من الضلال، نزل بالعطف تغاير الصفات منزلة تغاير الذات، والهدى والارشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبر معانيه الى الطريق الموصلة الى الجنة، والرحمة هي ما يوجد في الكتاب العزيز من الامور التي يرحم بها عباده فيطلبها من اراد ذلك حتى ينالها فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الامور جامع لهذه الاشياء كلها.

قال الكرخي: والحاصل ان الموعظة اشارة الى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغي وهو الشريعة، والشفاء اشارة الى تطهير الباطن عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة وهو الطريقة، والهدى اشارة الى ظهور نور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة، والرحمة اشارة الى كونها بالغة في الكمال والاشراق الى حيث تصير مكملة للناقصين، وهي النبوة فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الالفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ما تقدم ذكره إ - هـ.

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم، وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم فقال ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ المراد بالفضل من الله سبحانه تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر والرحمة رحمة لهم، وروي عن ابن عباس انه قال: فضل الله القرآن، ورحمته الاسلام؛ وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة ان فضل الله الايمان ورحمته القرآن.

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله وسلم: فضل الله القرآن ورحمته: أن جعلكم من أهله. رواه ابو الشيخ وابن مردويه، وقد روي عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدمة، والاولى حمل الفضل والرحمة على العموم، ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولاً اولياً.

وتكرير الباء في برحمته للدلالة على أن كل واحد من الفضل والرحمة

سبب مستقل في الفرح، وأصل الكلام قل بفضل الله وبرحمته فيفرحوا ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثاني عليه في قوله ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ وقيل ان فرحوا بشيء فليخصوا فضل الله ورحمته بالفرح وهو اللذة في القلب بسبب ادراك المطلوب وتقديم الظرف على الفعل لإفادة الحصر والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا وفي هاتين الفائين اوجه ذكرها في الجمل.

وقد ذم الله سبحانه الفرح في مواطن كقوله ﴿لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين﴾ وجوَّزه في قوله ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وكما في هذه الآية وقيل التقدير جاءتكم موعظة بفضل الله ورحمته فبذلك أي فبمجيئهما فليفرحوا ﴿هو خير﴾ اي ان هذا خير لهم ﴿مما يجمعون﴾ من حطام الدنيا ولذاتها الفانية قرىء بالياء والتاء وهما سبعيتان.

ثم اشار سبحانه بقوله ﴿قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾ الى طريق اخرى غير ما تقدم في اثبات النبوة وتقرير ذلك ما حاصله انكم تحكمون بتحليل البعض وتحريم البعض، فإن كان بمجرد التشهي والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم، وان كان لاعتقادكم انه حكم الله فيكم وفيما رزقكم فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة الى الله ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين ارسلهم الله الى عباده.

والمعنى اخبروني الذي انزل الله اليكم من رزق اي زرع وضرع وغيرهما فجعلتم بعضه حراماً كالبحيرة والسائبة وبعضه حلالاً كالميتة وذلك كما كانوا يفعلونه في الانعام والحرث حسبما سبق حكاية ذلك عنهم في سورة الانعام من الكتاب العزيز، وقيل ما استفهامية، واليه ذهب الحوفي والزمخشري والظاهر انها موصولة كما تقدم لان فيه ابقاء أرأيت على بابها، ومعنى انزال الرزق كون المطر ينزل من جهة العلو.

وقال الزجاج: انزل بمعنى خلق كما قال ﴿وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج وانزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ ﴿قل آلله أذِنَ لكم﴾ في هذا التحليل والتحريم والهمزة للانكار ﴿أم على الله تفترون﴾ ام منقطعة بمعنى بل كما في الكشاف، والظاهر انها متصلة كما قال السفاقسي: أي آلله اذن لكم ام تكذبون عليه في نسبة الاذن اليه.

قال الكرخي: وكفى به زاجراً لمن افتى بغير اتقان كبعض فقهاء هذا الزمان اهـ.واظهارالاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال قبح الافتراء.

قلت وفي هذه الآية الشريفة ما يصك مسامع المتصدرين للافتاء لعباد الله في شريعته بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي، ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه في دينهم وجعلوه شارعاً مستقلاً، ما عمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم وما لم يبلغه او بلغه ولم يفهمه حق فهمه واخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه فهو في حكم المنسوخ عندهم، المرفوع حكمه عن العباد، مع كون من قلدوه متعبداً بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها ومحكوماً عليه بأحكامها كما هم محكوم عليهم بها، وقد اجتهد رأيه وأدى ما عليه وفاز بأجرين مع الاصابة وأجر مع الخطأ، انما الشأن في جعلهم لرأيه الذي اخطأ فيه شريعة مستقلة ودليلاً معمولاً به.

وقد أخطأوا في هذا خطأً بيّناً وغلطوا غلطاً فاحشاً فان الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصه وحده، ولا قائل من أهل الاسلام المعتد بأقوالهم انه يجوز لغيره ان يعمل به تقليداً له واقتداء به، وما جاء به المقلدة في تقويمهذا الباطل فهو من الجهل العاطل، اللهم كما رزقتنا من العلم ما نميز به الحق والباطل فارزقنا من الانصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك ياواهب الخير.

قال النسفي: الآية زاجرة عن التجوز فيما يسئل من الاحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيه وان لا يقول احد في شيء جائز او غير جائز إلا بعد ايقان واتقان وإلا فهو مفتر على الديّان .

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

ثم قال ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أي أيُّ شيء ظنهم في هذا اليوم وما يصنع بهم فيه، اي لا ينبغي هذا الحسبان ولا صحة له بوجه من الوجوه، وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذي امر الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يقوله لهم بل مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحل بهم من عذاب الله، وذكر الكذب بعد الافتراء مع ان الافتراء لا يكون إلا كذباً لزيادة التأكيد.

﴿ان الله لذو فضل على الناس﴾ يتفضل عليهم بأنواع النعيم في الدنيا والآخرة ومنه بعثة الرسل وانزال الكتب لبيان الحلال والحرام وابقاء الكتاب والسنة الى آخر الدهر والزمان ﴿ولكن اكثرهم لا يشكرون﴾ الله على نعمه الواصلة اليهم منه سبحانه في كل وقت من الاوقات وطرفة من الطرفات، ولا يصرفون مشاعرهم الى ما خلقت له.

﴿وما تكون في شأن﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما نافية والشأن الأمر بمعنى القصد وجمعه شئون، قال الاخفش: تقول العرب ما شأنت شأنه اي ما عملت عمله، وما قصدت قصده فهو مصدر بمعنى المفعول.

﴿وما تتلو منه من قرآن﴾ قال الفراء والزجاج: الضمير يعود على الشأن والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف اي تلاوة كائنة منه، اذ التلاوة للقرآن من اعظم شؤونه صلى الله عليه وسلم، والمعنى انه يتلو من اجل الشأن الذي حدث القرآن فيعلم كيف حكمه او يتلو القرآن الذي ينزل في ذلك الشأن، وقال ابن

جرير الطبري: الضمير في منه عائد الى الكتاب اي ما يكون من كتاب الله من قرآن واعاده تفخيماً له كقوله ﴿إني أنا الله﴾ وقيل ما تتلو من الله من قرآن نازل عليك، فمن الثانية زائدة والاولى إما تعليلية او ابتدائية بحسب الـوجهين المتقدمين .

والخطاب في ﴿ولا تعملون من عمل﴾ لـرسول الله ولـلأمة، وقيـل الخطاب لكفار قريش ﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال للمخاطبين بالأفعال الثلاثة أي ما تلابسون بشيء منها في حال من الأحوال الا في حال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له، يقال شهدت على الشيء اطلعت عليه فأنا شاهد وشهيد، والجمع اشهاد وشهود.

والضمير في ﴿اذ تفيضون فيه﴾ عائد الى العمل يقال أفاض فلان في الحديث والعمل اذا اندفع فيه، وقال الضحاك الضمير في ﴿فيه﴾ عائد الى القرآن والمعنى اذ تشيعون في القرآن الكذب ، والافاضة الدخول في العمل على جهة الانتصاب اليه والانبساط فيه.

قال ابن الأنباري: اذ تدفعون فيه وتبسطون في ذكره، وقيل الافاضة الدفع بكثرة، وقال الزجاج: تنشرون فيه، وقيل تخوضون فيه، وقيل تأخذون اي تشرعون فيه والمعاني متقاربة .

﴿ومـا يعزب﴾ أي يغيب ويخفى، وقيـل يبعد، وقـال ابن كيسـان: يذهب، وهذه المعاني متقاربة، قرىء بضم الزاي وبكسرها سبعيتان وهما لغتان فصيحتان ﴿عن ربك﴾ أي عن علمه، ومن في ﴿من مثقال ذرة﴾ زائـدة للتأكيد أي وزن ذرة أي نملة حمراء وهي خفيفة الوزن جداً ﴿في الأرض ولا في السماء﴾ أي في دائرة الوجود والامكان، وإنما عبر عنها بهما مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شيء لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما لأن الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات؛ وقدم الأرض على السماء لأنها محل استقرار العالم، فهم يشاهدون ما فيها من قرب.

﴿ولا أصغر من ذلك﴾ أي من مثقال ذرة كلام برأسه مقرر لما قبله، ولا نافية للجنس ﴿ولا أكبر﴾ منها ﴿الا﴾ وهو ﴿في كتاب مبين﴾ فكيف يغيب عنه وهو الكتاب الذي عند الله، يعني اللوح المحفوظ، قاله السدي. وقد أورد على توجيه النصب والرفع في أصغر وأكبر على العطف على لفظ مثقال ومحله أو على لفظ ذرة اشكال، وهو انه يصير تقدير الآية لا يعزب عنه شيء في الارض ولا في السماء إلا في كتاب، ويلزم منه أن يكون ذلك الشيء الذي في الكتاب خارجاً عن علم الله وهو محال.

وقد أجيب عن هذا الاشكال بأن الاشياء المخلوقة قسمان: قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة كخلق الملائكة والسموات والأرض، وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأول من حوادث عالم الكون والفساد، ولا شك أن هذا القسم الثاني متباعد في السلسلة العلية عن مرتبة الأول.

فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء الا وهو في كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات، والغرض الرد على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات.

وأجيب أيضاً بأن الاستثناء منقطع أي لكن هو في كتاب مبين، وذكر أبو علي الجرجاني أن إلا بمعنى الواو أي وهو أيضا في كتاب مبين، والعرب قد تضع إلا موضع الواو، ومنه قوله تعالى: ﴿إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم﴾ يعني ومن ظلم، وقوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا﴾ أي والذين ظلموا، وقدر هو بعد الواو التي جاءت إلا بمعناها كما في قوله ﴿وقولوا حطة﴾ أي هي حطة.

قال الكرخي: وهذا الوجه فيه تعسف، ومثله قوله: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

وجوّز الكواشي كونه متصلاً مستثنى من «يعزب» على أن معناه يبين

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

ويصدر، والمعنى لا يصدر عن الله شيء بعد خلقه له الا وهو في كتاب؛ وقال الكلبي: قد حاول الرازي جعله متصلاً بعبارة طويلة محصلها أنه جعله استثناء مفرغاً وهو حال من أصغر وأكبر، وهو في قوة المتصل، ولا يقال فيه متصل ولا منقطع.

ثم لما بين سبحانه احاطته بجميع الأشياء وكان في ذلك تقوية لقلوب المطيعين وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين فقال: ﴿ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم﴾ الولي في اللغة ضد العدو فهو المحب، ومحبة العباد لله طاعتهم له، ومحبته لهم اكرامه إياهم، وعلى الأول يكون فعيل بمعنى فاعل، وعلى الثاني بمعنى مفعول فهو مشترك بينهما، وتركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب، فولي كل شيء هو الذي يكون قريباً منه.

والمراد بالأولياء خُلَّص المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته، والمراد بنفي الخوف عنهم أنهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم، لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظن بربهم.

وكذلك ﴿ولا هم يحزنون﴾ على فوت مطلب من المطالب لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره فيسلمون للقضاء والقدر، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر، فصدورهم منشرحة وجوارحهم نشطة وقلوبهم مسرورة.

وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي يؤمنون بما يجب الايمان به، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي الله سبحانه قال أبو السعود: والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقي عن الشرك التي يفيدها الايمان أيضاً، ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك، أعني تنزه الانسان عن كل ما يشغل سره عن الحق، والتبتل اليه بالكلية وهي التقوى الحقيقي المأمور به في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ وبه يحصل الشهود والحضور والقرب الذي عليه يدور إطلاق الاسم عليه فملاك أمر الولاية هو التقوى المذكور فأولياء الله هم المؤمنون المتقون.

وعن سعيد بن جبير قال: هم الذين إذا رُؤوا ذكر الله. وعن ابن عباس قال: إذا رُؤوا يذكر الله لرؤيتهم. وقال أبو حنيفة والشافعي: اذا لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي، قال النووي: وذلك في العالم العامل بعلمه.

وقد أكثر أهل العلم من المتكلمين والصوفية وغيرهم في تعريف الولي ووصفه وأطالوا المقالات في ذلك بما لا حاجة اليه، وهذه الآية تغني عنها، فإنه اذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

والحاصل أن ولي الله من كان آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل، وبالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به السنة المطهرة، لأن الايمان مبني على العقيدة والعمل، ومقام التقوى هو أن يتقي العبد كل ما نهى الله عنه.

وعن عمرو بن الجموح أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يحق العبد حق صريح الايمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض

لله فقد استحق الولاية من الله وأن أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يذكرون بذكري واذكر بذكرهم»[١] أخرجه أحمد وغيره.

وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم «خيار عباد الله الذين اذا رُؤوا ذكر الله، وشرار عباده المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون البراء العنت»[٢].

وعن ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خياركم من ذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم منطقه ورغبكم في الآخرة عمله»[٣] أخرجه الحكيم الترمذي، وعن ابن عمر مرفوعاً: ان لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربهم ومجلسهم منه، فجثى اعرابي على ركبتيه فقال: يا رسول الله صفهم لنا، جلهم لنا، قال قوم من أفناء الناس من نزاع القبائل تصافوا في الله وتحابوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم، يخاف الناس ولا يخافون، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[٤] أخرجه الحاكم وصححه.

وأخرج أبو داود وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن عمر ابن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه، قال ابن كثير:[٥] واسناده جيد، وروي بطريق عن جماعة من الصحابة، وقد ورد في فضل المتحابين في الله أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية.

﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ تفسير لمعنى كونهم أولياء الله

---

(١) الإمام احمد ٣/ ٤٣٠.

(٢) الإمام احمد ٦/ ٤٥٩.

(٣) ضعيف الجامع الصغير ٢٨٧٣.

(٤) المستدرك كتاب البر والصلة ٤/ ١٧٠

(٥) ابن كثير ٢/ ٤٢٢.

أي لهم البشرى من الله ما داموا في الحياة بما يوحيه الى أنبيائه وينزله في كتبه من كون حال المؤمنين عنده هو ادخالهم الجنة ورضوانه عنهم كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القرآن الكريم.

وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة وما يتفضل الله به عليهم من اجابة دعائهم، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة. قاله الزهري وقتادة.

وأما البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب، والبشرى مصدر أريد به المبشر به، والمراد حال كونهم في الدنيا وحال كونهم في الآخرة.

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن معنى قوله: ﴿لهم البشرى﴾ فقال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت عليَّ، هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له فهي بشراه في الحياة الدنيا وبشراه في الآخرة الجنة» وفي اسناده هذا الرجل المجهول. وعن عبادة بن الصامت مرفوعاً مثله عند أحمد والدارمي والترمذي وابن ماجة. وأخرج أحمد والبيهقي عن ابن عمر مرفوعاً قال: الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر بها»[1] الحديث، وفي الباب أحاديث وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات، وأنها جزء من أجزاء النبوة ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية.

---

(١) الإمام احمد ٢/٢١٩.

وقد روي عن ابن عباس أن المراد بالبشرى في الآية هي قوله: ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ وعنه انها قوله: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ وقيل البشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة الجنة.

وعن أبي ذر قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، قال: تلك عاجل بشرى المؤمن»[1] أخرجه مسلم، قال أهل العلم وهي دليل للبشرى المؤخرة في الآخرة، وهذه البشرى المعجلة دليل على رضاء الله عنه؛ وقيل غير ذلك واللفظ أوسع من ذلك.

﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا خلف لمواعيده على العموم فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولاً أولياً ﴿ذلك﴾ أي المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين في الدارين ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا يقادر قدره ولا يماثله غيره، والجملتان اعتراض في آخر الكلام عند من يجوزه وفائدتها تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، والأولى اعتراضية والثانية تذييلية.

---

(١) مسلم ٢٦٤٢.

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ولا يحزنك قولهم﴾ نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح في دينه، والمقصود تسلية له صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الأذية الناشئة عن مقالاتهم الموحشة، وتبشير له بأنه تعالى ينصره.

ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معللاً لما ذكره من النهي فقال: ﴿إن العزة لله جميعاً﴾ أي الغلبة والقدرة والقهر له في مملكته وسلطانه، ليست لأحد من عباده، وإذا كان ذلك كله له فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة وهم لا يملكون من الغلبة شيئاً، ولا ينافي هذا ما في سورة المنافقين ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ لأن كل عزة بالله فهي كلها لله حقيقة لكن قد يظهرها على يد رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أيدي المؤمنين تكريماً وتعظيماً لهم؛ ومنه قوله: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إنّا لننصر رسلنا﴾ ﴿هو السميع﴾ لما يقولون ﴿العليم﴾ بما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك.

﴿ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض﴾ ومن جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم، وإذا كانوا في ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يأذن الله به، و﴿ألا﴾ كلمة تنبيه معناه أنه لا ملك لأحد فيهما إلا لله عز وجل فهو يملك ما فيهما.

وقال في الآية الاولى ﴿ما﴾ وفي هذه ﴿من﴾ فمجموعهما دل على ان الله يملك جميع كل شيء فيهما من العقلاء وغيرهم، أو غلب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف: وفي الآية نعي على عباد البشر والملائكة، والجمادات لأنهم عبدوا المملوك وتركوا المالك وذلك مخالف لما يوجبه العقل، ولهذا عقبه بقوله:

﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ ما نافية وشركاء مفعول يتبع وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفاً، والاصل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، شركاء في الحقيقة إنما هي أسماء لا مسميات لها، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه، يعني أنهم وان سموا معبوداتهم شركاء لله فليس شركاء له على الحقيقة لان ذلك محال ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

وقيل ما استفهامية أي أيُّ شيء يتبع الذين يدعون؛ وعلى هذا شركاء منصوب بيدعون والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم والازراء عليهم.

وقيل موصولة، والمعنى ان الله مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من في السموات ومن في الارض.

ثم زاد سبحانه في تأكيد الرد عليهم والدفع لاقوالهم فقال: ﴿ان يتبعون الا الظن﴾ أي ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظناً ويظنون انهم آلهة تشفع لهم، وان الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴿وان هم إلا يخرصون﴾ أصل معنى الخرص الحزر بتقديم الزاي على الراء أي التخمين والتقدير، ويستعمل بمعنى الكذب لغلبته في مثله، والاسم الخرص بالكسر أي يقدرون انهم شركاء تقديراً باطلاً وكذباً بحتاً وقد تقدمت هذه الآية في الانعام.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ثم ذكر سبحانه طرقاً من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه فقال: ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ الجعل ان كان بمعنى الابداع والخلق فمبصراً حال، وان كان بمعنى التصيير فهو المفعول الثاني أي جعل لعباده الزمان منقسماً إلى قسمين أحدهما مظلم وهو الليل لأجل أن يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريحون أنفسهم عن الكد والكسب، والآخر مبصر لأجل ان يسعوا فيه بما يعود على نفعهم وتوفير معايشهم ويحصلون ما يحتاجون اليه في وقت مضيء منير لا يخفى عليهم كبير ولا حقير، وجعله سبحانه للنهار مبصراً مجاز.

والمعنى أنه مبصر صاحبه كقولهم نهاره صائم وقال قطرب: تقول العرب أظلم الليل وأبصر النهار بمعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء، وفي الكلام شبه احتباك حيث حذف من كل ما أثبته أو مقابله في الآخر فحذف مظلماً لدلالة مبصراً عليه وحذف لتتحركوا لدلالة لتسكنوا عليه، وهذا أفصح الكلام.

﴿ان في ذلك﴾ الجعل المذكور ﴿لآيات﴾ عجيبة كثيرة ﴿لقوم يسمعون﴾ ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره الله سبحانه ههنا منها ومن غيرها مما لم يذكره فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون ويعلمون ان الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الله المتفرد بالوحدانية في الوجود فيكون ذلك من أعظم أسباب الايمان.

﴿قالوا اتخذ الله ولداً﴾ هذا نوع آخر من أباطيل المشركين أو أهل الكتاب التي كانوا يتكلمون بها وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ وتبنى ولداً فرد ذلك عليهم بقوله: ﴿سبحانه﴾ فتنزه جل وعلا عما نسبوه اليه من هذا الباطل البين وكلمتهم الحمقاء، وبين أنه ﴿هو الغني﴾ عن ذلك، وان الولد انما يطلب لأجل الحاجة، والغنى المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها، واذا انتفت الحاجة انتفى الولد، وأيضاً إنما يحتاج الى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه، والازلي القديم لا يفتقر إلى ذلك، وقد تقدم تفسير الآية في البقرة.

ثم بالغ في الرد عليهم بما هو كالبرهان فقال: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ وإذا كان الكل له وفي ملكه فلا يصح أن يكون شيء مما فيهما ولداً له للمنافاة بين الملك والبنوة والأبوة.

ثم زيف دعواهم الباطلة وبين انها بلا دليل فقال ﴿إن﴾ أي ما ﴿عندكم من سلطان﴾ حجة وبرهان ﴿بهذا﴾ القول الذي تقولونه ومن زائدة للتأكيد؛ ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ استفهام توبيخ ويستفاد من هذا ان كل قول لا دليل عليه ليس هو من العلم في شيء بل من الجهل المحض.

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يقول لهم قولاً يدل على أن ما قالوه كذب، وان من كذب على الله لا يفلح فقال: ﴿قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي كل مفتر هذا شأنه ويدخل فيه قائل هذا القول دخولاً أولياً؛ وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز والمعنى أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب، ولا يسعدون وان اغتروا بطول السلامة والبقاء في النعمة

مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾

ثم بين سبحانه ان هذا الافتراء وان فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة فهو ﴿متاع﴾ قليل ﴿في الدنيا﴾ ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى الله، فيعذب المفتري عذاباً مؤبداً، والجملة مستأنفة لبيان ان ما يحصل للمفتري بافترائه وما يتراءى فيه بحسب الظاهر من نيل المطالب والحظوظ الدنيوية بمعزل أن يكون من جنس الفلاح وليس بفائدة يعتد بها، بل هو متاع يسير في الدنيا يتعقبه الموت والعذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها الكذب على الله، وليس بنافع في الآخرة، وقال الأخفش: ان التقدير لهم متاع في الدنيا، وقال الكسائي: ذلك متاع أو هو متاع.

﴿ثم إلينا مرجعهم﴾ بعد الموت ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد بما﴾ أي بسبب ما ﴿كانوا يكفرون﴾ أي يجحدون في الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله.

ولما بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبه المنهارة شرع في ذكر قصص الانبياء وما جرى لهم مع أممهم، لما في ذلك من التسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأسوة بمن سلف من الانبياء، ولما كان قوم نوح أول الأمم هلاكاً وأعظمهم كفراً وجحوداً ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش فقال:

﴿واتل عليهم﴾ أي على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة ﴿نبأ نوح﴾ أي خبره، والنبأ هو الخبر الذي له خطر وشأن؛

والمراد بعض ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعله كفار قريش وأمثالهم.

﴿اذ﴾ أي وقت ان ﴿قال لقومه﴾ اللام لام التبليغ ﴿يا قوم ان كان كبر﴾ أي عظم وثقل ﴿عليكم مقامي﴾ من باب الاسناد المجازي كقولهم ثقل عليّ ظله، والمقام بفتح الميم الموضع الذي يقام فيه، وبالضم مكان الاقامة أو الاقامة نفسها، وقد اتفق القراء هنا على الفتح.

وقرأ أبو رجاء وأبو مجلز وابن الجوزي بالضم، قال ابن عطية: ولم يقرأ هنا بالضم، وكأنه لم يطلع على قراءة هؤلاء، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال فعلته لمكان فلان أي لأجله، ومنه ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ أي خاف ربه، ويجوز أن يراد بالمقام المكث أي شق عليكم مكثي بين أظهركم لانه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ويجوز أن يراد بالمقام القيام لان الواعظ يقوم حال وعظه.

والمعنى إن كان كبر عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم ﴿و﴾ كبر عليكم ﴿تذكيري﴾ لكم ﴿بآيات الله﴾ التكوينية والتنزيلية ﴿فعلى الله توكلت﴾ أي دمت على تخصيص التوكل به تعالى، وهذه الجملة جواب الشرط، والمعنى اني لا أقابل ذلك منكم الا بالتوكل على الله، فان ذلك دأبي الذي انا عليه قديماً وحديثاً، ويجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل، ويجوز أن يكرن جواب الشرط فأجمعوا كما يأتي، قاله الاكثرون، والجملة اعتراض كقولك ان كنت أنكرت عليّ شيئاً فالله حسبي وثقتي.

وقيل ﴿فأجمعوا أمركم﴾ عطف على الجواب، وجزم السفاقسي بأن جوابه محذوف أي فافعلوا ما شئتم، والمعنى اعزموا عليه، من أجمع الأمر اذا نواه وعزم عليه قاله الفراء، وروي عنه أجمع الشيء أعده وقال مؤرج السدوسي: أجمع الامر أفصح من أجمع عليه، وقال أبو الهيثم: أجمع أمره جعله جميعاً بعدما كان متفرقاً، وتفرقه أن يقول مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه أي جعله جميعاً.

فهذا هو الأصل في الاجماع ثم صار بمعنى العزم والتصميم، يقال أجمع في المعاني وجمع في الأعيان وقد يستعمل كل واحد مكان الآخر، وفي التنزيل ﴿فجمع كيده﴾ قال ابن الانباري: المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لا تدعو من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه.

﴿وشركاءكم﴾ أي ادعوهم لنصرتكم، قاله الكسائي والفراء، وقال الزجاج والفارسي: والمعنى مع شركائكم، ولم يذكر الزمخشري غير هذا، وقيل أجمعوا شركاءكم، وفي مصحف أُبَي:وادعوا شركاءكم، قال النحاس وغيره: وقراءة الرفع بعيدة، وقال المهدوي: يجوز رفع الشركاء بالابتداء والخبر محذوف أي وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم، ونسبة ذلك الى الشركاء مع كون الاصنام لا تعقل لقصد التوبيخ والتقريع لمن عبدها.

﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ أي خفياً، والغمة التغطية من قولهم غم الهلال إذا استتر أي ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً قاله الزجاج، وقال الهيثم: معناه لا يكن أمركم مبهماً، وقيل ان الغمة ضيق الامر، كذا روي عن أبي عبيدة.

والمعنى لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتي والمجاملة لي ضيقاً شديداً بل ادفعوا هذا الضيق والشدة بما شئتم وقدرتم عليه، وعلى الوجهين الأولين يكون المراد بالامر الثاني هو الامر الاول، وعلى الثالث يكون المراد غيره، وانما نسب عدم الستر الذي هو عدم الغمة إلى الأمر مبالغة.

﴿ثم اقضوا إليّ﴾ ذلك الأمر الذي تريدونه بي؛ وأصل اقضوا من القضاء وهو الاحكام، والمعنى احكموا ذلك الأمر.

قال الأخفش والكسائي: هو مثل «وقضينا اليه ذلك الأمر» أي أنهيناه اليه وأبلغناه إياه. وقيل معناه ثم امضوا إليّ، قال النحاس: هذا قول صحيح في اللغة ومنه قضى الميت مضى. وعن بعض القراء ثم افضوا بالفاء أي توجهوا ﴿ولا تنظرون﴾ أي ثم لا تمهلوني ولا تؤخروني، بل عجلوا أمركم ونفذوا واصنعوا ما بدا لكم.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

وفي هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدل على وثوقه بنصر ربه وعدم مبالاته بما يتوعده به قومه، ثم بين لهم أن كل ما أتى به اليهم من الأعذار والانذار وتبليغ الشريعة عن الله ليس هو لطمع دنيوي ولا لغرض خسيس فقال ﴿فإن توليتم﴾ أي إن أعرضتم عن العمل بنصحي لكم وتذكيري إياكم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

﴿فما سألتكم﴾ في مقابلة ذلك عليه ﴿من أجر﴾ تؤدونه إليّ حتى تتهموني فيما جئت به والفاء جزائية ﴿ان أجري﴾ أي ما ثوابي في النصح والتذكير ﴿إلا على الله﴾ سبحانه فهو يثيبني آمنتم أو توليتم ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ المنقادين لحكم الله الذين يجعلون أعمالهم خالصة لله سبحانه لا يأخذون عليها أجراً ولا يطمعون في عاجل أو من المستسلمين لكل ما يصعب من البلاء. ﴿فكذبوه﴾ أي استمروا على تكذيبه وأصروا على ذلك. وليس المراد أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن.

﴿فنجيناه﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿ومن معه﴾ أي من قد أجابه وصار على دينه، وكانوا ثمانين: أربعين رجلاً وأربعين امرأة ﴿في الفلك﴾ أي السفينة، والمفرد على وزن قفل والجمع على وزن أسد والمراد هنا المفرد.

﴿وجعلناهم﴾ أي الذين نجاهم معه في الفلك حملاً على معنى من ﴿خلائف﴾ جمع خليفة، والمعنى انه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض

التي كانت للمهلكين بالغرق ويخلفونهم فيها ﴿وأغرقنا﴾ بالطوفان ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾ من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به، تأخيره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع في قوله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً﴾ الآية لاظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللايذان بسبق الرحمة التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب الذي هو من مستتبعات جرائم المجرمين ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ من إهلاكهم، فكذلك نفعل بمن كذبك، فيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للمشركين وتهويل عليهم.

﴿ثم بعثنا من بعده﴾ أي من بعد نوح عليه السلام ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل، وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب ﴿فجاؤوهم بالبينات﴾ أي بالمعجزات الباهرات والدلالات الواضحات وبما أرسلهم الله به من الشرائع التي شرعها لقوم كل نبي ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ أي فما أحدثوا الايمان بل استمروا على الكفر وأصروا عليه.

والمعنى أنه ما صح ولا استقام لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل الله اليهم رسله أن يؤمنوا في وقت من الأوقات ﴿بما كذبوا به من قبل﴾ أي من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجيء الرسل اليهم، والمعنى أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند أن أرسل الله اليهم الرسول المبعوث اليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه اليهم، لأنهم كانوا غير مؤمنين بل مكذبين بالدين، ولو كانوا مؤمنين لم يبعث اليهم رسولاً، وهذا مبني على أن الضمير في ﴿كانوا وكذبوا﴾ راجع إلى القوم المذكورين في قوله ﴿الى قومهم﴾ وقيل ضمير كذبوا راجع إلى قوم نوح، أي فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح، وقيل المعنى بما كذبوا به من قبل أي في عالم الذر.

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الطبع العظيم المحكم ﴿نطبع﴾ بنون العظمة، وقرىء بالياء على أن الضمير لله ﴿على قلوب المعتدين﴾ أي المتجاوزين للحدود

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾

المعهودة في الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد، وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم، لانهماكهم في الغي والضلال، وقد تقدم تفسير هذا في غير موضع.

﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ أي بعد الرسل المتقدم ذكرهم وخص ﴿موسى وهرون﴾ بالذكر مع دخولها تحت الرسل لمزيد شرفهما وخطر شأن ما جرى بينهما وبين فرعون ﴿الى فرعون وملئه﴾ المراد بالملأ الأشراف، هكذا قرره بعض المفسرين؛ وقرر بعضهم أن المراد بالملأ هنا مطلق القوم من استعمال الخاص في العام وهو ظاهر صنيع السيوطي في الجلالين.

﴿بآياتنا﴾ أي مصحوبين بالمعجزات وهي التسع المذكورة في الكتاب العزيز ﴿فاستكبروا﴾ عن قبولها ولم يتواضعوا لها ولم يذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق من جاء بها، والاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق، والفاء فصيحة، وقيل عن الايمان بموسى وهرون، والأول أولى. ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي كانوا ذوي اجرام عظام وآثام كبيرة، فبسبب ذلك اجترؤوا على ردها لأن الذنوب تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق وابصار الصواب، قيل وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها.

﴿فلما جاءهم﴾ أي فرعون وملأه ﴿الحق﴾ أي المعجزات التسع ﴿من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ أي لم يؤمنوا بها، بل حملوها على السحر مكابرة منهم.

قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾

﴿قال موسى﴾ أي جملاً ثلاثاً: الأولى ﴿أتقولون للحق لما جاءكم﴾ قيل في الكلام حذف والتقدير أتقولون للحق سحر، فلا تقولوا ذلك.

ثم استأنف انكاراً آخر من جهة نفسه فقال: ﴿أسحر هذا﴾ وهي الثانية والملجىء الى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكي ما قالوه بقوله أسحر هذا بل هم قوم قاطعون بأنه سحر لأنهم قالوا ان هذا الا سحر مبين، فحينئذ لا يكون قوله ﴿أسحر هذا﴾ من قولهم. وقال الأخفش: هو قولهم، وفيه نظر لما قدمنا.

وقيل معنى أتقولون أتعيبون الحق وتطعنون فيه وكان عليكم أن تذعنوا له ثم قال ﴿أسحر هذا﴾ منكراً لما قالوه؛ والاستفهام للتقريع والتوبيخ بعد الجملة الأولى المستأنفة، والمعنى أتقولون للحق لما جاءكم ان هذا لسحر مبين، وهو أبعد شيء من السحر.

ثم أنكر عليهم وقرعهم ووبخهم فقال: ﴿أسحر هذا﴾ فجاء موسى عليه السلام بإنكار بعد انكار وتوبيخ بعد توبيخ وتجهيل بعد تجهيل. والثالثة ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ أي والحال كذا فلا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ولا ينجون من مكروه، فكيف يقع في هذا من هو مرسل من عند الله، وقد أيده بالمعجزات والبراهين الواضحة، وحاصل السحر تمويه وتخييل وصاحب ذلك لا يفلح أبداً.

﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾ مستأنفة، قال مجاهد:

لتلوينا وتصرفنا، وقال السدي: لتصدنا عن آلهتنا، وفي هذا ما يدل على أنهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن إبراز الحجة، ولم يجدوا ما يجيبون به عما أورده عليهم، بل لجؤوا إلى ما يلجأ اليه أهل الجهل والبلادة، وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينة وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا عليها وظنوا انها ستذهب عنهم إن آمنوا.

وكم بقي على الباطل وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر، ومنهم من حبسه عن الخروج الى السنة من البدعة والى الرواية الصحيحة من الرأي البحت. قال أبو السعود: استئناف بياني مسوق لبيان انه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن الاتيان بكلام له تعلق بكلامه صلى الله عليه وسلم فضلاً عن الجواب الصحيح، واضطروا إلى التشبث بذيل التقليد الذي هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل عاند لدود. انتهى.

واللفت والفتل أخوان وكلاهما من باب ضرب، يقال لفته لفتاً اذا صرفه عن الشيء ولواه عنه، وفي السمين: اللفت اللّيّ والصرف، يقال لفته عن رأيه اذا صرفه، ولواه عنه الى ذات اليمين أو الشمال.

وقال الأزهري: لفت الشيء وفتله لواه وهذا من المقلوب.

قلت ولا يدعي فيه قلب حتى يرجح أحد اللفظين في الاستعمال على الآخر. أي تريد أن تصرفنا عن الشيء الذي وجدنا عليه آباءنا وهو عبادة الأصنام.

﴿وتكون لكما﴾ أي لموسى وهرون ﴿الكبرياء﴾ مصدر على وزن فعلياء ومعناها العظمة والملك والسلطان ﴿في الأرض﴾ أي مصر، وفيه خمسة أوجه جوزها أبو البقاء.

«أحدها» أن يكون متعلقاً بنفس الكبرياء «الثاني» أن يتعلق بنفس تكون «الثالث» أن يتعلق بالاستقرار في لكما لوقوعه خبراً «الرابع» أن يكون حالاً من الكبرياء «الخامس» أن يكون حالاً من الضمير في لكما لتحمله اياه.

قال الزجاج: سمي الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمور الدنيا، وقيل سمي بذلك لان الملك يتكبر، والحاصل أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين: التمسك بالتقليد للآباء والحرص على الرياسة الدنيوية، لانهم اذا أجابوا النبي وصدقوه صارت مقاليد أمر أمته اليه، ولم يبق للملك رياسة تامة لان التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات.

ثم قالوا ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ تصريحاً منهم بالتكذيب وقطعاً للطمع في ايمانهم، وقد أفردوا الخطاب لموسى في قولهم اجئتنا لتلفتنا ثم جمعوا بينه وبين هرون في الخطابين الاخيرين، ووجه ذلك انهم أسندوا المجيء والصرف عن طريق آبائهم الى موسى لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم، وجمعوا بينهما في الضميرين الآخرين لان الكبرياء شامل لهما في زعمهم، ولكن ترك الايمان بموسى يستلزم ترك الايمان بهرون، وقد مرت القصة في الاعراف.

﴿وقال فرعون﴾ لما رأى اليد البيضاء والعصا ﴿ائتوني بكل ساحر عليم﴾ لانه اعتقد أنهما من السحرة فأمر قومه بأن يأتوا بكل ساحر، أراد أن يعارض معجزة موسى بأنواع من التلبيس ليظهر أن ما أتى به موسى سحر، وقد تقدم الكلام على هذا في الاعراف، وقرىء «سحّار» على صيغة المبالغة أي كثير السحر كثير العلم بعمله وأنواعه.

﴿فلما جاء السحرة﴾ في الكلام حذف أي فأتوا بهم اليه، فلما جاء السحرة ﴿قال لهم موسى﴾ بعد أن قالوا له اما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أي اطرحوا على الارض ما معكم من حبالكم وعصيكم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين أن ما أتوا به فاسد زاهق.

فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فلما ألقوا﴾ ما ألقوه من ذلك الحبال والعصى ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى ما جئتم به﴾ ما موصولة مبتدأ و﴿السحر﴾ خبره، والمعنى انه سحر لا انه آية من آيات الله كما سماه فرعون وقومه أو هو من جنس السحر، يريهم أن حاله بين لا يعبأ به كأنه قال: ما جئتم به مما لا ينبغي أن يجاء به، وقرىء السحر على الاستفهام فما استفهامية أي شيء جئتم به أهو السحر الذي يعرف حاله كل أحد، ولا يتصدى له عاقل، وقرىء ما جئتم به سحر، وقرىء ما أتيتم به سحر، ودلالتهما على المعنى الثاني في القراءة المشهورة أظهر، وأجاز الفراء وغيره نصب السحر بجئتم وما شرطية والجزاء:

﴿ان الله سيبطله﴾ على تقدير الفاء أي سيمحقه بالكلية ويهلكه فيصير باطلاً بما يظهره على يديَّ من الآيات والمعجزة فلا يبقى له أثر والسين للتأكيد: ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ أي عمل هذا الجنس فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد، ويدخل فيه السحر والسحرة دخولاً أولياً، والجملة تعليل لما قبلها أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم.

﴿ويحق الله الحق﴾ أي يبينه ويوضحه ﴿بكلماته﴾ التي أنزلها في كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين أو بوعده الصادق لموسى انه يظهره أو بما سبق من قضائه وقدره لموسى انه يغلب السحرة، أو بأوامره وأحكامه، والأول أولى.

﴿ولو كره المجرمون﴾ من آل فرعون أو المجرمون على العموم ويدخل تحتهم آل فرعون دخولاً أوليا والاجرام الآثام.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فما آمن لموسى الا ذرية﴾ اسم يقع على القليل من القوم، وقيل المراد به التصغير وقلة العدد ﴿من قومه﴾ أي من قوم موسى، وهم طائفة من ذراري بني إسرائيل، وقيل المراد طائفة من ذراري فرعون فيكون الضمير عائداً على فرعون. قيل ومنهم مؤمن آل فرعون وامرأته وماشطة ابنته وامرأة خازنه. وقيل هم قوم آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل.

روي هذا عن الفراء، كما يقال لأولاد فارس الذين نقلوا الى اليمن الابناء لأن أمهاتهم من غير جنس الآباء.

﴿على﴾ أي مع ﴿خوف من فرعون وملئهم﴾ الضمير لفرعون وجمع لأنه لما كان جباراً جمعوا ضميره تعظيماً له.

وقيل ان قوم فرعون سموا فرعون مثل ثمود فرجع الضمير اليهم بهذا الاعتبار، وقيل انه عائد على مضاف محذوف أي على خوف من آل فرعون روي هذا عن الفراء ومنعه الخليل وسيبويه، وروي عن الأخفش ان الضمير يعود على الذرية وقواه النحاس.

﴿أن يفتنهم﴾ أي يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان ينزله بهم وهو بدل اشتمال أو مفعول للمصدر أو مفعول له بعد حذف اللام والضمير عائد لفرعون وأفرد، ولم يقل ان يفتنوهم أي فرعون والملأ للدلالة على ان الخوف من الملأ كان بسبب فرعون وتجبره من حيث استعانتهم به.

﴿وان فرعون لعال في الارض﴾ أي عات متكبر متغلب على أرض مصر اعتراض تذييلي مؤكد لمضمون ما سبق ﴿وانه لمن المسرفين﴾ المجاوزين للحد في الكفر وما يفعله من القتل والصلب وتنويع العقوبات أو لانه كان عبداً فادعى الربوبية.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وقال موسى يا قوم﴾ تطميناً لقلوبهم وازالة للخوف عنهم، وسماهم قومه من حيث ايمانهم به والا فهم من قوم فرعون أو المراد به بنو إسرائيل أو مطلق من آمن به ولو من القبط ﴿ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين﴾ قيل ان هذا من باب التكرير للشرط فشرط في التوكل على الله الايمان به والاسلام أي الاستسلام لقضائه وقدره، وبه قال الكرخي.

وقيل ان هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالايمان هو وجوب التوكل والمشروط بالاسلام حصوله ووجوده فإنه لا يوجد مع التخليط، والمعنى أن يسلموا أنفسهم لله أي يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها لان التوكل لا يكون مع التخليط، قال الكازروني: المعنى ان كنتم آمنتم وجب عليكم التوكل وان كنتم مسلمين توكلتم عليه.

﴿فقالوا﴾ أي قوم موسى مجيبين له ﴿على الله توكلنا﴾ أي اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا الله مخلصين فقالوا ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة﴾ أي موضع فتنة ﴿للقوم الظالمين﴾ والمعنى لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا، قاله مجاهد أو لا تجعلنا فتنة لهم يفتنون بنا غيرنا فيقولون لهم لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم، قاله مجاهد أيضاً وعلى المعنى الأول تكون الفتنة بمعنى المفتون.

ولما قدموا التضرع إلى الله سبحانه ان يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا: ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ أي من أيديهم، وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

﴿وأوحينا الى موسى وأخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً﴾ قيل هي الاسكندرية، وقيل هي مصر المعروفة لا الاسكندرية، وأن هي المفسرة لأن في الايحاء معنى القول أي اتخذوا لقومكما يقال بوأت زيداً مكاناً وبوأت لزيد مكاناً، والمبوأ المنزل الملزوم، ومنه بَوَّأَهُ الله منزلاً أي ألزمه اياه وأسكنه فيه، ومنه حديث «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1] والتبوء النزول والرجوع؛ واللام زائدة أي بوآ قومكما، وقيل غير زائدة.

﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي متوجهة الى جهة القبلة، قال قتادة: ذلك حين منعهم فرعون الصلاة فأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم وان يوجهوها نحو القبلة، وعن مجاهد قال: كانوا لا يصلون إلا في البيع حتى خافوا من آل فرعون فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، وعن ابن عباس نحوه، وقيل المراد بالبيوت هنا المساجد، واليه ذهب جماعة من السلف، وقيل التي يسكنون فيها أمروا بأن يجعلوها مقابلة بعضها بعضاً.

والمراد بالقبلة على القول الأول هي جهة بيت المقدس وهو قبلة اليهود الى اليوم، وقيل جهة الكعبة وانها كانت قبلة موسى ومن معه، قال أبو سنان: إن آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة، وظاهر القرآن لا يدل على

(١) مسلم ٣ ـ البخاري ٩٤.

تعيينها، وقيل انهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سراً لئلا يصيبهم من الكفار معرة بسبب الصلاة.

ومما يؤيد هذا قوله ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أي التي أمركم الله باقامتها فانه يفيد أن القبلةْ هي قبلة الصلاة إما في المساجد أو في البيوت لا جعل البيوت متقابلة وقيل أمر الله موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الأعداء وتكفل بأن يصونهم عن شر الأعداء، ذكره الخطيب، وإنما جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهرون ثم جعله لهما ولقومهما في قوله ﴿واجعلوا، وأقيموا﴾ ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك فقال ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي بالنصر والجنة لان اختيار المكان مفوض الى الأنبياء، ثم جعل عاماً في استقبال القبلة وإقامة الصلاة لان ذلك واجب على الجميع لا يختص بالانبياء ثم جعل خاصاً بموسى لانه الاصل في الرسالة وهرون تابع له فكان ذلك تعظيماً للبشارة وللمبشر بها.

وقيل ان الخطاب في ﴿وبشر المؤمنين﴾ لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم على طريقة الالتفات والاعتراض والاول أولى.

﴿و﴾ لما بالغ موسى عليه السلام في اظهار المعجزات واقامة الحجج البينات ولم يكن لذلك تأثير فيمن أرسل اليهم، دعا عليهم بعد أن بين سبب إصرارهم على الكفر وتمسكهم بالجحود والعناد ﴿قال موسى﴾ مبيناً للسبب أولاً ﴿ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾ قد تقدم أن الملأ هم الاشراف، والزينة اسم لكل ما يتزين به من ملبوس ومركوب وحلية وفراش وسلاح وغير ذلك، والمال ما زاد على هذه الاشياء من الصامت ونحوه.

ثم كرر النداء للتأكيد فقال ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ قال الخليل

وسيبويه: انها لام العاقبة والصيرورة، والمعنى أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم من النعم ليضلوا، وقيل انها لام كي؛ قاله الفراء: أي أعطيتهم لكي يضلوا، وقال قوم ان المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا فحذفت لا، كما قال سبحانه ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾.

قال النحاس: ظاهر هذا الجواب حسن إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن فموَّه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله تعالى المتقدم، وقيل اللام للدعاء عليهم، والمعنى إبتلِهِمْ بالهلاك عن سبيلك، قاله ابن الانباري واستدل بقوله سبحانه بعد هذا ﴿اطمس واشدد﴾ واليه ذهب الحسن البصري، وقيل انها لام العلة والمعنى انك آتيتهم ما آتيتهم على سبيل الاستدراج فكان الايتاء لهذه العلة.

وقد أطال صاحب الكشاف في تقرير هذا بما لا طائل تحته، والقول الاول هو الاولى، وقرىء ليضلوا بضم الياء أي يوقعوا الاضلال على غيرهم، وقرأ الباقون بالفتح أي يضلون في أنفسهم.

﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ أي امسخها وأزل صورها، قال الزجاج: طمس الشيء إذهابه عن صورته وإزالة أثر الشيء بالمحو. قال مجاهد: أهلكها، وقال أكثر المفسرين أمسخها وغيرها عن هيئاتها، والمعنى الدعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم ويهلكها.

وقرىء بضم الميم من ﴿اطمُس﴾ وقد روي عن قتادة أن أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم ودراهمهم ودنانيرهم تحولت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً. قيل إن عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شيء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهي حجارة.

قال السدي: مسخ الله أموالهم حجارة والنخل والثمار والدقيق والأطعمة، وقال القرظي: صارت صورهم حجارة، وفيه ضعف لأن موسى دعا على أموالهم ولم يدع على أنفسهم بالمسخ، وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التي أوتيها موسى عليه السلام.

﴿واشدد على قلوبهم﴾ أي اربط عليها واجعلها قاسية مطبوعة حتى لا تقبل الحق ولا تنشرح للايمان ولا تلين، قال الواحدي: وهذا دليل على أن الله تعالى يفعل ذلك لمن يشاء، ولولا ذلك لما جسر موسى على هذا السؤال.

﴿فلا يؤمنوا﴾ أي آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا، قاله المبرد والزجاج، وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة: هو دعاء بلفظ النهي والتقدير، اللهم فلا يؤمنوا. وقال الاخفش: انه جواب الأمر أي اطمس واشدد فلا يؤمنوا ﴿حتى يروا العذاب الاليم﴾ أي فلا يحصل منهم الايمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به وعند ذلك لا ينفع ايمانهم، قال ابن عباس العذاب هو الغرق.

وقد استشكل بعض أهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء وقال: ان الرسل انما تطلب هداية قومهم وايمانهم، وأجيب بأنه لا يجوز لنبي أن يدعو على قومه الا بإذن الله سبحانه، وانما يأذن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن، ولهذا لما أعلم الله نوحاً عليه السلام بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن قال: ﴿رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً﴾.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾ جعل الدعوة ههنا مضافة إلى موسى وهرون، وفيما تقدم أضافها إلى موسى وحده، فقيل إن هرون كان يؤمّن على دعاء موسى فسمى ههنا داعياً وإن كان الداعي موسى وحده، ففي أول الكلام أضاف الدعاء الى موسى لكونه الداعي، وههنا أضافه إليهما تنزيلاً للمؤمّن منزلة الداعي.

ويجوز أن يكونا جميعاً داعيين، ولكن أضاف الدعاء الى موسى في أول الكلام لإصالته في الرسالة. قال النحاس: سمعت علي بن سليمان يقول: الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى ربنا ولم يقل رب، وقرىء دعاؤكما ودعواكما. قال ابن عباس: فاستجاب له وحال بين فرعون وبين الايمان، ويزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة لحكمة يعلمها هو، وعن ابن جريج ومجاهد نحوه ﴿فاستقيما﴾ أي امضيا لأمري ودوما على الاستقامة، قاله ابن عباس، والاستقامة الثبات على ما هما عليه من الدعاء إلى الله.

قال الفراء وغيره: أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه وعلى دعاء فرعون وقومه إلى الايمان إلى أن يأتيهما تأويل الاجابة أربعين سنة ثم أهلكوا، وقيل معنى الاستقامة ترك الاستعجال ولزوم السكينة والرضاء والتسليم لما يقضي الله به سبحانه.

﴿ولا تتبعان﴾ قرىء بتشديد النون للتأكيد وبتخفيفها على النفي لا على

النهي أو انه نفي في معنى النهي أي لا تسلكا ﴿سبيل الذين لا يعلمون﴾ حكمة تأخير المطلوب، نهاهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعبادة الله سبحانه في إجراء الأمور على ما تقتضيه المصالح تعجيلاً وتأجيلاً، وقيل انه خبر محض مستأنف لا تعلق له بما قبله، والمعنى أنهما أخبرا بأنهما لا يتبعان، وأما تشديد التاء وتخفيفها فلغتان من أتبع يتبع، وتبع يتبع وهما بمعنى واحد، يقال تبعه أي مشى خلفه واتبعه كذلك إلا أنه حاذاه في المشي واتبعه لحقه.

قال الرازي: وهذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى وهرون كما أن قوله ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ لا يدل على صدور الشرك منه.

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ هو من جاوز المكان إذا خلفه وتخطاه، والباء للتعدية أي جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط، لأن الله سبحانه جعل البحر يبساً فمروا فيه حتى خرجوا منه الى البر، والمراد بحر القلزم وهو بحر السويس وكانوا ستمائة ألف، قاله الخطيب.

وفي الخازن قال أهل التفسير: اجتمع يعقوب وبنوه إلى يوسف وهم اثنان وتسعون وخرج بنوه مع موسى من مصر في الوقت المعلوم وهم ستمائة الف، وقد تقدم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه ﴿واذ فرقنا بكم البحر﴾ وقرأ الحسن وجوزنا وهما لغتان والآية دليل على خلق الأفعال.

﴿فأتبعهم فرعون وجنوده﴾ يقال تبع وأتبع بمعنى واحد اذا لحقه. قال الأصمعي: يقال تبعه بقطع الألف إذا لحقه وأدركه، واتبعه بوصل الألف اذا اتبع أثره أدركه أو لم يدركه، وكذا قال أبو زيد، وقال أبو عمرو: اتبعه بالوصل اقتدى به، وفي المختار تبعه من باب طرب اذا مشى خلفه أو مر به فمضى معه، وكذا اتبعه وهو افتعل، واتبعه على افعل إذا كان قد سبقه فلحقه؛ وقال الاخفش: تبعه وأتبعه بمعنى مثل ردفه وأردفه.

﴿بغياً﴾ ظلماً ﴿وعدوا﴾ اعتداء، أي لأجلهما أو باغين معتدين، وقرأ

الحسن عدواً بضم العين والدال وتشديد الواو، وقيل إن البغي الاستعلاء في القول بغير حق، والعدو في الفعل، قال عكرمة: العدو والعتو والعلو في كتاب الله التجبر.

﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ أي ناله ووصله وألجمه غاية لاتباعه، وذلك أن موسى خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده ففرق الله البحر لموسى وبني اسرائيل فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الاخر، وتبعهم فرعون والبحر باق على الحالة التي كان عليها عند مضي موسى ومن معه، فلما تكامل دخول جنود فرعون وكادوا أن يخرجوا من الجانب الاخر انطبق عليهم فغرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك.

﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ أي صدقت، ولم ينفعه هذا الايمان لأنه وقع منه بعد ادراك الغرق له كما تقدم في النساء، ولم يقل اللعين آمنت بالله أو برب العالمين، بل قال ما تقدم لأنه بقي فيه عرق من دعوى الإلٰهية ﴿وأنا من المسلمين﴾ أي المستسلمين لأمر الله المنقادين له الذين يوحدونه وينفون ما سواه.

فإن قيل إنه آمن ثلاث مرات كما في هذه الآية فما السبب في عدم القبول؟.

قيل إنه آمن عند نزول العذاب، والايمان والتوبة عنده غير مقبول، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ وأن الايمان إنما يتم بالاقرار بالتوحيد والنبوة، وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح إيمانه، وقيل غير ذلك، ذكره الخطيب.

أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أغرق الله فرعون فقال: آمنت. الآية. قال جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة»[1] والمعنى دس جبريل في فيه بأمر الله فلا اعتراض عليه.

وقد روى هذا الحديث الترمذي من غير وجه وقال صحيح حسن غريب، وصححه أيضا الحاكم عن ابن عباس من طرق أخرى واسناده على شرط البخاري، وليس في رواتها متهم وإن كان فيهم من هو سيء الحفظ فقد تابعه عليه غيره. وقد أطال الخازن في جواب ما اعترض به الرازي وأشكله في هذا الحديث بما يطول ذكره.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال لي جبريل: ما كان على الأرض - يعني أبغض إليّ - من فرعون فلما آمن جعلت أحشو فاه حمأة وأنا أعطه خشية أن تدركه الرحمة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعاً نحوه، وأبو الشيخ عن أبي أمامة نحوه أيضاً، وفي إسناد حديث أبي هريرة رجل مجهول وباقي رجاله ثقات. والعجب كل العجب ممن لا علم له بفن الرواية من المفسرين، ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه، كيف يتجارى على الكلام في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، والحكم ببطلان ما صح منها؛ ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت، والقصور الفاضح الذي يضحك منه كل من له أدنى ممارسة بفن الحديث. فيا مسكين ما لك ولهذا الشأن الذي لست فيه في شيء، ألا تستر نفسك وتربع على ضلعك وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين، وتشتغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه وحاصلك الذي ليس لك غيره، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية.

---

(١) الإمام احمد ١/٢٤٥.

ولقد صار صاحب الكشاف عفا الله عنه بسبب ما يتعرض له في تفسيره من علم الحديث الذي ليس هو منه في ورد ولا صدر سخرة للساخرين، وعبرة للمعتبرين، فتارة يروي في كتابه الموضوعات وهو لا يدري انه منها، وتارة يتعرض لرد ما صح ويجزم بأنه من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم والبهت عليه، وقد يكون في الصحيحين وغيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات حجج اثبات.

وادنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم في علم لا يعلمه ولا يدري به اقل دراية، وان كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التي يتواضع عليها طائفة من الناس، ويصطلحون على أمور فيما بينهم، فما بالك بعلم السنة الذي هو قسم كتاب الله، وقائله رسول الله صلى الله عليه وسلم وراويه عنه خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عام لجميع أهل الاسلام.

﴿آلآن﴾ أي فقيل له أتؤمن من الآن، وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة، فقيل هي من قول الله سبحانه، وقيل من قول جبريل، وقيل من قول ميكائيل وقيل من قول فرعون قال ذلك في نفسه لنفسه، والمعنى انكار الايمان منه عند أن ألجمه الغرق، والمقصود التقريع والتوبيخ له، قال ابن عباس: لم يقبل الله ايمانه عند نزول العذاب به وقد كان في مهل، والايمان والتوبة عند اليأس لا يقبل ﴿وقد عصيت قبل﴾ تأكيد لهذا المقصود، والجملة حالية أي وقد أيست من نفسك ولم يبق لك اختيار، والايمان في هذه الحالة لا يفيد، يعني آلآن تتوب وقد ضيعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية ﴿وكنت من المفسدين﴾ في الارض بضلالك عن الحق واضلالك لغيرك.

فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

﴿فاليوم ننجيك﴾ أي نخرجك من البحر ونلقيك على الشط، وذلك ان بني اسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق وقالوا هو اعظم شأناً من ذلك فألقاه الله على نجوة من الارض أي مكان مرتفع حتى شاهدوه أحمر قصيراً كأنه ثور، ثم اعاده الى البحر ثانياً، فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتاً أبداً، قاله الخازن، وقيل المعنى نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر ونجعلك طافياً ليشاهدوك ميتاً بالغرق، وقرىء بالحاء المهملة من التنحِية، اي نطرحك على ناحية من الأرض.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿ببدنك﴾ فقيل معناه بجسدك بعد سلب الروح منه لا كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لطمعه، والباء للمصاحبة، وقيل معناه بدرعك والدرع تسمى بدناً، والأبدان الدروع، قاله ابو عبيدة، ورجح الاخفش الأول. وقرأ ابو حنيفة رحمه الله بأبدانك وهو مثل قولهم هو بأجرامه أي ببدنك كله وافياً بأجزائه، وقيل عرياناً لا شيء عليه، وقيل الباء سببية لان بدنه سبب في تنجيته.

﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ هذا تعليل لتنجيته ببدنه، وفي ذلك دليل على انه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلّة لا سوى، والمراد بالآية العلامة، أي لتكون علامة يعرفون بها هلاكك وانك لست كما تدعي ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتاً بالغرق.

وقيل المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك

آية من آيات الله يعتبر بها الناس او يعتبر بها من سيأتي من الأمم اذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبّر والتمرد على الله سبحانه فان هذا الذي بلغ الى ما بلغ اليه من دعوى الإلّهية واستمر على ذلك دهراً طويـلاً كانت له هذه العاقبة القبيحة.

وقرىء لمن خلفك على صيغة الماضي، اي لمن يأتي بعدك من القرون او من خلفك في الرياسة او في السكون في المسكن الذي كنت تسكنه، وهذا آخر مقول جبريل عليه السلام.

﴿وان كثيراً من الناس عن آياتنا﴾ التي توجب الاعتبار والتفكر وتوقظ من سنة الغفلة ﴿لغافلون﴾ عما توجبه تلك الآيات، وهذه الجملة تـذييلية جيء بها عقب الحكاية تقرير الكلام المحكى.

﴿ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق﴾ هذا من جملة ما عدده الله سبحانه من النعم التي انعمها عليهم، ومعنى بوأنا أسكنا يقال بوأت زيداً منزلاً أسكنته فيه، والمبوأ اسم مكان او مصدر، واضافته الى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب فانهم كانوا اذا مدحوا شيئاً اضافوه الى الصدق، والمراد به هنا المنزل المحمود الصالح المختار المرضي، قيل هو ارض مصر، قاله الضحاك، وقيل جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره، وقيل الاردن وفلسطين، وقيل الشام قاله قتادة، وقيل بيت المقدس لانها بلاد الخصب والخير والبركة.

﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ اي المستلذات من الرزق ﴿فما اختلفوا﴾ في أمر دينهم وتشعبوا فيه شعباً بعدما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿حتى جاءهم العلم﴾ اي لم يقم منهم هذا الاختلاف في الدين الا بعد ما جاءهم

العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها وما اشتملت عليه من الاخبار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل العلم هو القرآن المنزل على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فاختلفوا فيه وفي صفته وآمن به من آمن منهم، وكفر به من كفر، قال ابن زيد: يعني كتاب الله الذي أنزله وأمره الذي أمرهم به، وانما سمي القرآن علماً لانه سبب العلم، فيكون المراد بالمختلفين على القول الاول هم اليهود بعد ان أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها، وعلى القول الثاني هم اليهود المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وسلم، وقد روي في الحديث ان اليهود اختلفوا على احدى وسبعين فرقة وان النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة[1] وهو في السنن والمسانيد، والكلام فيه يطول.

﴿ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ من أمر الدين بانجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين فيجازي المحسن باحسانه، والمسيء باساءته، والمحق بعمله بالحق، والمبطل بعمله بالباطل.

(١) الإمام أحمد، ٢/٣٣٢ نحوه. وقد ألف العلماء الكثير من الكتب حول ماهية هذه الفرق وبعضهم كتب وعَدَّ الفرق الضالة، انظر مثلاً كتاب (الفَرْقُ بين الفِرَقْ) للبغدادي.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

﴿فإن كنت﴾ يامحمد ﴿في شك﴾ هو في أصل اللغة ضم الشيء بعضه الى بعض، ومنه شك الجوهر في العقد والشاك كأنه يضم الى ما يتوهمه شيئاً آخر خلافه فيتردد ويتحير، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والمراد غيره كما ورد في القرآن في غير موضع.

وعن ابن عباس قال: لم يشك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يسأل ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصري وعن قتادة قال: ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا اشك ولا أسأل وهو مرسل.

﴿مما﴾ أي في شك ناشيء مما ﴿انزلنا اليك﴾ بأن تشك فيه، ومن للابتداء او انها بمعنى في من اول الامر، قال القاضي عياض في الشفاء: احذر ثبت الله قلبك ان يخطر ببالك ما ذكره بعض المفسرين من اثبات شك النبي (ﷺ) فيما اوحى اليه فمثل هذا لا يجوز عليه اهـ.

وقال ثعلب والمبرد: أي قل يامحمد للكافر فان كنت في شك ﴿فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾ يعني مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وامثاله وقد كان عبدة الاوثان يعترفون لليهود بالعلم ويقرون بأنهم اعلم منهم، فأمر الله سبحانه نبيه ان يرشد الشاكين فيما انزله الله اليه من القرآن ان يسألوا اهل الكتاب الذين قد اسلموا فانهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقا، وان هذا رسوله وان التوراة شاهدة بذلك ناطقة به فان ذلك محقق عندهم ثابت في كتبهم، والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة الاخبار، وفي هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر.

قال الزجاج: ان الله خاطب الرسول وهو شامل للخلق، وهذا وجه حسن أيضاً لكن فيه بعد لأن الرسول متى كان داخلاً في هذا الخطاب كان الايراد موجوداً، والاعتراض وارداً.

وقيل ان في قوله ﴿فان﴾ للنفى اي ما أنت في شك حتى تسأل وهذا أبعد.

وقال القتيبي: المراد بهذه الآية من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ولا بتصديقه بل كان في شك، وقيل المراد بالخطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا غيره والمعنى لو كنت ممن يلحقه الشك فيما اخبرناك به فسألت اهل الكتاب لأزالوا عنك الشك، وقيل الشك هو ضيق الصدر أي ان ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر واسأل يخبرونك بصبر من قبلك من الانبياء على اذى قومهم.

وقيل معنى الآية الفرض والتقدير كأنه قال له فان وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيالاً منه تقديراً، فاسأل فانهم سخبرونك عن نبوءتك وما نزل عليك، ويعترفون بذلك لانهم يجدونه مكتوباً عندهم، وقد زال فيمن اسلم منهم ما كان مقتضياً للكتم عندهم.

﴿لقد﴾ أي اقسم لقد ﴿جاءك الحق من ربك﴾ وفي هذا بيان ما يقلع الشك من اصله ويذهب به بجملته، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذي وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير في الشاك هو الحق الذي لا يخالطه باطل ولا تشوبه شبهة.

ثم عقبه بالنهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن الامتراء فقال ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ فيما انزل الله عليه بل تستمر على ما انت عليه من اليقين وانتفاء الشك، ويمكن ان يكون هذا النهي له تعريضاً لغيره كما في مواطن من الكتاب العزيز، وهكذا القول في نهيه صلى الله عليه وسلم عن التكذيب في قوله تعالى ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ فان الظاهر فيه التعريض

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾

ولا سيما بعد تعقيبه بقوله ﴿فتكون من الخاسرين﴾ وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو ابلغ واوقع من النهي لهم انفسهم، لانه اذا كان ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه فكيف بمن يمكن منه ذلك.

﴿ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ قد تقدم مثله في هذه الصورة والمعنى انه حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرون على الكفر ويموتون عليه، لا يقع منهم الايمان بحال من الاحوال وان وقع منهم ما صورته صورة الايمان كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو في حكم العدم، قال مجاهد: حق عليهم سخط الله بما عصوه، وقيل لعنة الله، وقيل الكلمة هي قوله «خلقت هؤلاء للنار ولا أبالي»

﴿ولو جاءتهم كل آية﴾ من الآيات التكوينية والتنزيلية فان ذلك لا ينفعهم لان الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم ﴿حتى يروا العذاب الاليم﴾ فيقع منهم ما صورته صورة الايمان وليس بايمان، ولا يترتب عليه شيء من أحكامه.

﴿فلولا كانت قرية آمنت﴾ لولا هذه هي التحضيضية التي بمعنى هلا، كما قال الأخفش والكسائي وغيرهما، ويدل على ذلك ما في مصحف أُبَيّ وابن

مسعود ﴿فهلا قرية﴾ وفي هذا التحضيض معنى التوبيخ والنفي فوبخ الله اهل القرى المهلكة قبل يونس على عدم ايمانهم قبل نزول العذاب بهم، والمعنى فهلا قرية واحدة من هذه القرى التي اهلكناها آمنت ايماناً معتداً به نافعاً وذلك بأن يكون خالصاً لله قبل معاينة عذابه ولم تؤخره كما أخره فرعون.

﴿فنفعها ايمانها﴾ في حال اليأس ﴿إلا قوم يونس﴾ استثناء منقطع من القرى لان المراد أهلها، والمعني لكن قوم يونس، وقد قال بأن هذا الاستثناء منقطع جماعة من الائمة منهم الكسائي والاخفش والفراء، وقيل متصل، والجملة في معنى النفي، كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، قال ابن جرير: خص قوم يونس من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب، وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين.

وقال الزجاج: انه لم يقع العذاب وانما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الايمان، وهذا أولى من قول ابن جرير.

﴿لما آمنوا﴾ ايماناً معتداً به قبل معاينة العذاب حين رؤية أماراته او عند اول المعاينة قبل حلوله بهم ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ هو العذاب الذي كان قد وعدهم يونس انه سينزل عليهم ولم يروه او الذي قد رأوا علاماته دون عينه ﴿ومتعناهم الى حين﴾ أي بعد كشف العذاب عنهم متعهم الله في الدنيا الى حين معلوم قدره لهم اي الى وقت انقضاء آجالهم.

قال قتادة: لم يكن هذا في الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس، وذكر لنا ان قومه كانوا بنينوى من ارض الموصل فلما فقدوا نبيهم قذف الله في قلوبهم التوبة، وبحث في ذلك الزجاج فقال: انه لم يقع بهم العذاب وانما رأوا علامته ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الايمان.

قال القرطبي: وهو كلام حسن فإن المعاينة التي لا ينفع معها الايمان هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون.

واخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن يونس دعا قومه فلما أبوا ان يجيبوه وعدهم العذاب فقال: إنه يأتيكم يوم كذا وكذا ثم خرج عنهم، وكانت الأنبياء اذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما اظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة وولدها والسخلة وولدها، وخرجوا يعجون الى الله، وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب وقعد يونس في الطريق يسأل عن الخبر فمر به رجل فقال: ما فعل قوم يونس؟ فحدثه بما صنعوا فقال: لا ارجع الى قوم قد كذبتهم، وانطلق مغاضباً، يعني مراغماً. وعن سعيد بن جبير قال: غشي قوم يونس العذاب كما يغشى القبر، بالثوب اذا دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دماً.

وعن ابن عباس: ان العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه الا قدر ثلثي ميل فلما دعوا كشفه الله عنهم، وقال قتادة: قدر ميل. وقال وهب: غامت السماء غيماً اسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً، فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت اسطحتهم فتابوا واخلصوا النية فرحمهم ربهم وكشف ما نزل بهم من العذاب بعدما اظلهم، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء، وكان يوم الجمعة، قيل انهم قالوا: ياحي حين لا حي، ويا حي يحيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت. وقيل قالوا: اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلّت وانت اعظم وأجَلّ، فافعل بنا ما أنت اهله ولا تفعل بنا ما نحن اهله، قاله الفضيل بن عياض، والله اعلم ما قالوه.

ثم بيّن سبحانه ان الايمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره فقال ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم﴾ بحيث لا يخرج عنهم احد ﴿جميعاً﴾

مجتمعين على الايمان لا يتفرقون فيه ويختلفون، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للمصلحة التي ارادها الله سبحانه.

قال الاخفش: جاء بقوله جميعاً بعد كلهم للتأكيد كقوله ﴿لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ وقيل اتى به مع ان كُلاًّ منهما يفيد الاحاطة والشمول للدلالة على ان وجود الايمان منهم بصفة الاجتماع الذي لا يدل عليه كلهم، ذكره الكرخي.

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على إيمان جميع الناس أخبره الله بأن ذلك لا يكون لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لا تقتضي ذلك فقال ﴿أفأنت تكره الناس﴾ استفهام تأديب للنبي صلى الله عليه وسلم أي اتكرههم بما لم يشأه الله منهم.

﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ فإن ذلك ليس في وسعك يا محمد ولا داخل تحت قدرتك، وفي هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ودفع لما يضيق به صدره، من طلب صلاح الكل الذي لو كان لم يكن صلاحاً محققاً بل يكون الى الفساد أقرب، ولله الحكمة البالغة وإيلاء الاسم حرف الاستفهام للاعلام بأن الاكراه ممكن مقدور عليه، وانما الشأن في المكره من هو وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه لأنه هو القادر على أن يخلق في قلوبهم ما يضطرون عنده الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

ثم بيّن سبحانه ما تقدم بقوله ﴿وما كان﴾ اي ما صحّ وما استقام ﴿لنفس﴾ من الأنفس ﴿ان تؤمن إلا بإذن الله﴾ اي بتسهيله وتيسيره ومشيئته لذلك فلا يقع غير ما يشاؤه كائناً ما كان ﴿ويجعل الرجس﴾ بكسر الراء وضمنها لغتان، اي العذاب او السخط او الكفر او الخذلان الذي هو سبب العذاب، وهذا معطوف على محذوف، كأنه قيل فيأذن لبعضهم في الايمان ويجعل الخ، والمضارع في المعطوف والمعطوف عليه بمعنى الماضي.

والمراد بقوله ﴿على الذين لا يعقلون﴾ هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله ولا يتفكرون في آياته ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الادلة.

﴿قل انظروا﴾ بضم اللام وكسرها سبعيتان ﴿ماذا في السموات والارض﴾ لما بين سبحانه ان الايمان لا يحصل الا بمشيئة الله أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية، والمراد بالنظر التفكر والاعتبار، أي قل يامحمد للكفار تفكروا واعتبروا بما فيهما من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته.

ثم ذكر سبحانه ان التفكر والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حق من استحكمت شقاوته فقال ﴿وما تغني﴾ اي ما تنفع على ان ﴿ما﴾ نافية وهذا هو الظاهر ويجوز ان تكون استفهامية أي اىُّ غنى تغني ﴿الآيات﴾ هي التي عبَّر عنها بقوله ماذا في السموات والأرض، ففي الكلام اظهار في مقام الاضمار،

والجملة إما حالية او اعتراضية بنوع ايضاح ﴿والنذر﴾ جمع نذير وهم الرسل او جمع انذار وهو المصدر ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ في علم الله سبحانه، والمعنى ان من كان هكذا لا يجدى فيه شيء ولا يدفعه عن الكفر دافع.

﴿فهل ينتظرون إلا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وسلم بتكذيبه إلا مثل وقائع الله سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء قوم نوح وعاد وثمود، فقد كان الانبياء المتقدمون يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على انواع العذاب، وهم يكذبونهم ويصممون على الكفر حتى ينزل الله عليهم عذابه ويحل بهم انتقامه، والعرب تسمي العذاب اياماً والنعم اياماً، كقوله تعالى ﴿وذكرهم بأيام الله﴾.

ثم قال: ﴿قل﴾ يامحمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك ﴿فانتظروا﴾ اي تربصوا لوعد ربكم ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لوعد ربي، وفي هذا تهديد شديد ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الاهلاك.

﴿ثم ننجي﴾ بالتشديد باتفاق العشرة وقرىء بالتخفيف وهما لغتان فصيحتان أنجى ينجي انجاء، ونجى ينجي تنجية بمعنى واحد، وثم للعطف على مقدر يدل عليه ما قبله، كأنه قيل أهلكنا الأمم ثم نجينا ﴿رسلنا﴾ المرسلين اليهم ﴿و﴾ نجينا ﴿الذين آمنوا﴾ والتعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلاً لأمرها.

﴿كذلك﴾ صفة لمصدر محذوف اي انجاء مثل ذلك الإنجاء، وقوله ﴿حقاً علينا﴾ اعتراض، اي حق ذلك علينا حقاً أي وجب وتحتم بمقتضى الفضل والكرم ﴿ننجي﴾ بالتخفيف والتشديد قراءتان سبعيتان ﴿المؤمنين﴾ من عذابنا للكفار والمراد بالمؤمنين الجنس فيدخل في ذلك الرسل واتباعهم او يكون خاصاً بالمؤمنين وهم اتباع الرسل لان الرسل داخلون في ذلك بالاولى، وقال السيوطي: النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه حين تعذيب المشركين لهم.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾

﴿قل يا أيها الناس﴾ أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين مخاطباً لجميع الناس او للكفار منهم أو لأهل مكة على الخصوص بقوله ﴿ان كنتم في شك من ديني﴾ الذي انا عليه وهو عبادة الله وحده لا شريك له ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته، وانه الدين الحق الذي لا دين غيره فاعلموا اني بريء من اديانكم التي انتم عليها.

﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ في حال من الاحوال ﴿ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم﴾ اي أخصه بالعبادة لا اعبد غيره من معبوداتكم من الاصنام وغيرها، وخص صفة التوفي من بين الصفات لما في ذلك من التهديد لهم، أي أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد، ولكونه يدل على الخلق أولاً وعلى الإعادة ثانياً، ولكونه أشد الأحوال مهابة في القلوب ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة فكأنه قال أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم.

ولما ذكر انه لا يعبد إلا الله بيَّن انه مأمور بالايمان فقال ﴿وامرت أن أكون من المؤمنين﴾ أي بأن أكون من جنس من آمن بالله واخلص له الدين ﴿وان أقم وجهك للدين﴾ المعنى ان الله سبحانه أمره بالاستقامة في الدين والثبات فيه وعدم التزلزل عنه بحال من الاحوال وخص الوجه لانه اشرف الاعضاء، أو أمره باستقبال القبلة في الصلاة وعدم التحول عنها ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن كل دين من الاديان الى دين الاسلام مستقيماً عليه غير معوج عنه الى دين آخر، ثم أكد الأمر المتقدم بالنهي عن ضده فقال: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ عطف على أقم داخل تحت الأمر، وهو من باب التعريض لغيره صلى الله عليه وسلم.

وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

﴿ولا تدع من دون الله﴾ على حال من الاحوال ﴿مالا ينفعك ولا يضرك﴾ بشيء من النفع والضر ان دعوته، ودعاء من كان هكذا لا يجلب نفعاً ولا يقدر على ضر، ضائع لا يفعله عاقل على تقدير انه لا يوجد من يقدر على النفع والضر غيره فكيف إذا كان موجوداً فإن العدول عن دعاء القادر الى دعاء غير القادر أقبح وأقبح.

﴿فإن فعلت﴾ أي فإن دعوت ولكنه كنى عن القول بالفعل ﴿فإنك اذاً من الظالمين﴾ هذا جزاء الشرط، اي فإنك في عداد الظالمين لأنفسهم، والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره صلى الله عليه وسلم.

﴿و﴾ جملة ﴿إن يَمْسَسْك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ مقررة لمضمون ما قبلها، والمعنى ان الله سبحانه هو الضار النافع، فإن انزل بعبده ضراً لم يستطع احد ان يكشفه كائناً من كان بل هو المختص بكشفه كما هو اختص بإنزاله.

﴿وان يردك بخير﴾ أيَّ خير كان لم يستطع احد أن يدفعه عنك ويحول بينك وبينه كائناً من كان، هو من القلب واصله ان يرد بك الخير، ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز ان يكون كل واحد منهما مكان الآخر.

قال النيسابوري: وفي تخصيص الارادة بجانب الخير والمس بجانب الشر دليل على ان الخير يصدر عنه سبحانه بالذات والشر بالعرض.

قلت: وفي هذا نظر فإن المس هو أمر وراء الارادة فهو مستلزم لها، وقيل ان الضر انما مسهم لا بالقصد الاول والمعنى متقارب.

﴿فلا راد لفضله﴾ اي لا دافع لما ارادك به من الخير ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على انه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه، ولم يستثن لان مراد الله تعالى لا يمكن رده وإرادة الله قديمة لا تتغير بخلاف مس الضر فانه صفة فعل.

﴿يصيب به﴾ أي بفضله او بكل واحد من الخير والضر ﴿من يشاء من عباده﴾ وجملة ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ تذييلية.

عن عامر بن قيس قال: ثلاث آيات في كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق اولهن ﴿ان يَمْسَسْك الله﴾ الآية، والثانية ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له﴾ والثالثة ﴿وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها﴾ اخرجه البيهقي في الشعب، وأخرج أبو الشيخ عن الحسن نحوه.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضائه وقدره فقال ﴿قل يا أيها الناس﴾ لأجل ان تنقطع معذرتهم فهذا نهاية الأمر ﴿قد جاءكم الحق من ربكم﴾ أي القرآن او الإسلام او محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه﴾ اي منفعة اهتدائه مختصة به ﴿ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ اي ضرر كفره مقصور عليه لا يتعداه، وليس لله حاجة في شيء من ذلك ولا غرض يعود اليه ومن في الموضعين يجوز ان تكون شرطية والفاء واجبة الدخول وان تكون موصولة والفاء جائزته ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ اي بحفيظ يحفظ اموركم وتوكل اليه، انما أنا بشير ونذير.

ثم أمره الله سبحانه ان يتبع ما اوحاه من الأوامر والنواهي التي شرعها الله له ولأمته فقال ﴿واتبع ما يوحى اليك﴾ ثم أمره بالصبر على أذى الكفار وما يلاقيه من مشاق التبليغ وما يعانيه من تلون اخلاق المشركين وتعجرفهم فقال ﴿واصبر﴾ وجعل ذلك الصبر ممتداً الى غاية هي قوله ﴿حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ اي يحكم الله بينه وبينهم في الدنيا بالنصر له عليهم وفي الآخرة بعذابهم بالنار وهم يشاهدونه صلى الله عليه وسلم هو وامته المتبعون له المؤمنون به العاملون بما يأمرهم به المنتهون عما ينهاهم عنه، ينقلبون في نعيم الجنة الذي لا ينفد ولا يمكن وصفه ولا يوقف على ادنى مزاياه.

وقال مجاهد: هذا منسوخ بأمره بجهادهم والغلظة عليهم وبه قال ابن عباس، قال السيوطي: وقد صبر حتى حكم على المشركين بالقتال واهل الكتاب بالجزية اهـ؛واشار بهذا الى قول مجاهد، قاله الكرخي.



سورة هود عليه السلام

وهي مائة وثلاث وعشرون آية . وهي مكّية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ومجاهد وابن زيد . وقال ابن عباس وقتادة : الا آية وهي قوله : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ وقال مقاتل : أو الا ﴿ فلعلك تارك ﴾ الآية ﴿ واولئك يؤمنون به ﴾ الآية :

والحاصل ان المدني عند ابن عباس آية واحدة وعند مقاتل آيتان . وعن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اقرؤا هود يوم الجمعة »[1] . أخرجه الدارمي وأبو داود والبيهقي وغيرهم . وعن أبي بكر الصديق قال : قلت يا رسول الله لقد اسرع اليك الشيب فقال : شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت[2] أخرجه الطبراني والترمذي وحسنه . وعن أنس مرفوعاً وهل أتاك حديث الغاشية رواه البزار . وقد روي بطرق عن جمع من الصحابة .

قال بعض العلماء : سبب شيبه من هذه السور ما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله اعلم بمراد رسوله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ١١٦٨ .

(٢) الترمذي تفسير سورة ٦/٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

﴿الر﴾ ان كان مسروداً على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور فلا محل له، وان كان اسماً للسورة فهو في محل الرفع على انه مبتدأ وما بعده خبره او خبر مبتدأ محذوف وهو الاظهر، او في محل النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر او اقرأ.

وقوله ﴿كتاب﴾ خبر لمبتدأ محذوف اي هذا كتاب، ويدل على ذلك قوله في آية اخرى ﴿ذلك الكتاب﴾ والاشارة اما الى بعض القرآن او الى مجموعه.

ومعنى ﴿أحكمت آياته﴾ صارت محكمة متقنة لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم المرصف، وقيل معناه انها لم تنسخ بخلاف التوراة والانجيل، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب وهو المحكم الذي لم ينسخ، وقيل معناه احكمت آياته بالأمر والنهي، والآيات المراد بها حقيقتها وهي الجمل من السور المنفصل بعضها عن بعض اي نظمت نظماً متقناً لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه، وقيل معنى احكامها ان لا فساد فيها أخذاً من قولهم أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح.

﴿ثم فصلت﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب، وقيل احكمها الله من الباطل ثم فصلها بالحلال والحرام، وقيل أحكمت جملته ثم فصلت آياته، وقيل جُمعت في اللوح المحفوظ ثم فُصلت بالوحي، وقيل أيدت بالحجج القاطعة الدالّة على كونها من عند الله، والتراخي المستفاد من ثم إما زماني إن فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح، واما رتبي ان فسر بغيره مما تقدم، واليه ذهب الزمخشري، وقال: هي محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن

التفصيل كما يقال فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل.

﴿من لدن حكيم خبير﴾ فيه طباق حسن، لان المعنى احكمها حكيم وفصلها خبير عالم بواقع الامور، وقيل صفة ثانية لكتاب خبر ثان واليه نحا الزمخشري وقيل غير ذلك ﴿ان لا تعبدوا إلا الله﴾ قال الكسائي والفراء: التقدير احكمت بأن، وقال الزجاج: احكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا، وقيل تعليل للفعلين قبله اي لأجل ان تتركوا عبادة غير الله وتعبدوا الله فأخذ الترك من لا النافية والاثبات من الاستثناء.

وقيل تقديره هي ان لا تعبدوا، وقيل ان مفسرة لما في التفصيل من معنى القول أي قال لا تعبدوا او أمركم ان لا تعبدوا، وهذا اظهر الاقوال لانه لا يحوج الى اضمار، ولما ذكر شؤون الكتاب ذكر ان من جاء به مرسل من عند الله لتبليغ احكامه فقال ﴿انني لكم منه نذير وبشير﴾ اي ينذرهم ويخوفهم من عذابه لمن عصاه ويبشرهم بالجنة والرضوان لمن اطاعه، والضمير في منه راجع الى الله سبحانه اي كائن من جهة الله.

وهذا على ظاهره ليس بجيد لان الصفة لا تتقدم على الموصوف فكيف تجعل صفة لنذير وكأنه يريد انه صفة في الاصل لو تأخر، ولكن لما تقدم صار حالاً، صرح به ابو البقاء فصوابه كائناً من جهته، وقيل يعود على الكتاب أي نذير لكم من مخالفته وبشير منه لمن آمن وعمل صالحاً، وقدم الانذار لأن التخويف أهم إذ يحصل به الانزجار، وقيل هو من كلام الله سبحانه كقوله ﴿ويحذركم الله نفسه﴾

﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه﴾ قدم الارشاد الى الاستغفار على التوبة لكونه وسيلة اليها وقيل ان التوبة من متممات الاستغفار وقيل معنى استغفروا توبوا، ومعنى توبوا أخلصوا التوبة واستقيموا عليها، وقيل استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا من لاحقها.

وقيل استغفروا من الشرك ثم ارجعوا اليه بالطاعة؛ قال الفراء: ثم ههنا بمعنى الواو أي وتوبوا اليه لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هي الاستغفار فذكرهما للتأكيد، وقيل إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب اليها، وما كان آخراً في الحصول كان أولاً في الطلب، وقيل استغفروا في الصغائر وتوبوا اليه في الكبائر.

ثم رتب على ما تقدم أمرين: الأول ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ أصل الامتاع الاطالة ومنه امتع الله بك، فمعنى الآية يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية موسعة للرزق ورغد العيش، وقيل هو الرضاء بالميسور والصبر على المقدور ﴿الى أجل مسمى﴾ الى وقت مقدر عند الله وهو الموت، وقيل القيامة، وقيل دخول الجنة والأول أولى.

والأمر الثاني قوله ﴿ويؤت كل ذي فضل﴾ في الطاعة والعمل ﴿فضله﴾ أي جزاء فضله إما في الدنيا او في الآخرة او فيهما جميعاً، والضمير راجع الى كل ذي فضل، وقيل راجع الى الله سبحانه على معنى ان الله يعطي كل من فضلت حسناته الذي يتفضل به على عباده.

عن ابن مسعود قال: من عَمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فان عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول هلك من غلب آحاده اعشاره، وقال ابو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت حسناته ودرجاته في الجنة.

ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال ﴿وان تولوا﴾ أي تعرضوا عن الاخلاص في العبادة والاستغفار والتوبة ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ هو يوم القيامة، ووصفه بالكبر لما فيه من الأهوال، وقيل اليوم الكبير يوم بدر، وقيل صفة لعذاب فهو منصوب وإنما خفض على الجوار.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

ثم بيَّن سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله ﴿الى الله مرجعكم﴾ أي رجوعكم اليه بالموت ثم البعث ثم الجزاء لا الى غيره.

﴿وهو على كل شيء قدير﴾ومن ذلك عذابكم على عدم الامتثال، وهذه الجملة مقررة لما قبلها.

ثم أخبر الله سبحانه بأن هذا الانذار والتحذير والتوعد لم ينجع فيهم، ولا لانت له قلوبهم، بل هم مصرون على العناد مصممون على الكفر، فقال مصدراً لهذا الاخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجيب من حالهم، وانه أمر ينبغي ان يتنبه له العقلاء ويفهموه ﴿ألا انهم يثنون صدورهم﴾ يقال ثنى صدره عن الشيء اذا ازور وانحرف عنه، فيكون في الكلام كناية عن الإعراض لأن من عارض عن الشيء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه.

وقيل معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفياً مستوراً فيها كما تعطف الثياب على ما فيها من الأشياء المستورة، فيكون في الكلام كناية عن الاخفاء لما يعتقدونه من الكف كما كان دأب المنافقين، والوجه الثاني أولى، ويؤيده قوله ﴿ليستخفوا منه﴾ أي من الله فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين او من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم كرر كلمة التنبيه مبيناً للوقت الذي يثنون فيه صدورهم فقال ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ أي يستخفون في وقت استغشاء الثياب وهو التغطي

بها، وقد كانوا يقولون: إذا اغلقنا أبوابنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فمن يعلم بنا.

وقيل معناه يأوون الى فراشهم ويتدثرون بثيابهم، وقيل انه حقيقة، وذلك ان بعض الكفار كان إذا مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال البخاري عن ابن عباس: يغطون رؤوسهم، وروى عنه ايضاً قال: يعني به الشك في الله وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهما، أي إنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه فيظنون إنهم سيخفون من الله بذلك، فأعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل يعلم سرهم وعلانيتهم.

وعن عبد الله بن شداد قال: كان المنافقون إذا مر أحدهم بالنبي (ﷺ) ثنى صدره وتغشى ثوبه لكيلا يراه فنزلت، وعن الحسن قال: في ظلمة الليل في أجواف بيوتهم، وعن قتادة قال: كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله.

وجملة ﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ مستأنفة لبيان انه لا فائدة لهم في الاستخفاء لأن الله سبحانه يعلم ما يسرونه في أنفسهم أو في ذات بينهم وما يظهرونه فالظاهر والباطن عنده سواء والسر والجهر سيان ﴿انه عليم بذات الصدور﴾ تعليل لما قبله وتقرير له، وذات الصدور هي الضمائر التي تشتمل عليها الصدور وقيل هي القلوب.

والمعنى انه عليم بجميع الضمائر او عليم بالقلوب واحوالها في الأسرار والاظهار فلا يخفى عليه شيء من ذلك.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

ثم أكد كونه عالماً بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان ونهاية الاحسان فقال ﴿وما من دابة﴾ هي كل حيوان يدب على وجه الأرض، وتطلق على كل ذي اربع من الحيوان على سبيل العرف، والمراد منه الاطلاق فيدخل فيه الآدمي وغيره من جميع الحيوان، وفي المصباح دب منه الصغير يدب من باب ضرب إذا مشى ودب الجيش دبيباً ايضاً سار، ومن زائدة للتأكيد أي ما من حيوان وغيره.

﴿في الارض إلا على الله رزقها﴾ أي الرزق الذي يحتاج اليه من الغذاء اللائق بالحيوان على اختلاف انواعه تفضلاً منه واحساناً، وانما جيء به على طريق الوجوب كما تشعر به كلمة ﴿على﴾ اعتباراً بسبق الوعد به منه، وقيل أن ﴿على﴾ على بابها وانه عليه من باب الفضل لا الوجوب لانه لا يجب عليه شيء.

والحاصل ان المراد بالوجوب وجوب اختيار لا وجوب الزام، فهو موكول الى مشيئته، إن شاء رزقها وان شاء لم يرزقها. وقيل ان على بمعنى «من» أي من الله رزقها، أي ما يقوم به رمقها وتعيش به، قال مجاهد: ما جاءها من رزق فمن الله، وربما لم يرزقها فتموت جوعاً.

ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله ان الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق، فكيف يغفل عن أحواله وأقواله وأفعاله ﴿ويعلم مستقرها﴾ أي محل استقرارها في الأرض أو محل قرارها في

الاصلاب ﴿ومستودعها﴾ موضعها في الأرحام وما يجري مجراها كالبيضة ونحوها، وقال الفراء: مستقرها حيث تأوى اليه ليلاً أو نهاراً، ومستودعها موضعها الذي تموت فيه، وقد مر تمام الاقوال في سورة الأنعام.

ووجه تقديم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر، واما على القول الاول فلعل وجه ذلك ان المستقر أنسب باعتبار ما هي عليه حال كونها دابة، والمعنى وما من دابة الا يرزقها الله حيث كانت من اماكنها بعد كونها دابة، وقبل كونها دابة، وذلك حين تكون في الرحم ونحوه.

وفي البيضاوي أماكنها في الحياة وفي الممات أو الاصلاب والأرحام أو مساكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة. اهـ

والمراد كالمني والعلقة، والمقار كالصلب والرحم، وعن ابن مسعود قال: مستقرها في الأرحام ومستودعها حيث تموت، ويؤيد هذا التفسير ما أخرجه الحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبي (ﷺ) قال: اذا كان أجل أحدكم بأرض اتيحت له اليها حاجة حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض، فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعتني[1]

ثم ختم الآية بقوله ﴿كل في كتاب مبين﴾ أي كل مما تقدم ذكره من الدواب ومستقرها ومستودعها ورزقها في اللوح المحفوظ أي مثبت فيه قبل خلقها.

ثم أكد دلائل قدرته بالتعرض لذكر خلق السموات والأرض وكيف كان الحال قبل خلقها فقال ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض﴾ وما بينهما ﴿في ستة أيام﴾ الكلام على التوزيع، فكان خلق السموات في يومين والأرضين في يومين، وما عليها من أنواع الحيوان والنبات والأقوات والجمادات في يومين،

---

(١) المستدرك كتاب الإيمان ١/٤١.

والمراد بالأيام هنا الأوقات، أي في ستة أوقات، كما في قوله ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ وقيل مقدار ستة ايام.

وقيل المراد هنا الأيام المعروفة وهي المقابلة لليالي أولها الأحد وآخرها الجمعة ولا يستقيم ذلك لانه لم تكن حينئذ أرض ولا سماء، وليس اليوم إلا عبارة عن مدة كون الشمس فوق الارض؛ وفي الجمل وهذا مشكل جداً إذ لا يتعين الأحد ولا غيره من الأيام إلا عند وجودها بالفعل، وفي تلك الحال لم يكن زمان قط فضلاً عن تفضيله أياماً فضلاً عن تخصيص كل يوم باسم.

والجواب عن هذا الاشكال بأن المراد مقدار ستة أيام لا يدفع هذا الاشكال إنما يدفع الاشكال الآخر وهو انه لم يكن ثم زمان اهـ.

﴿وكان عرشه﴾ قبل خلقهما ﴿على الماء﴾ ليس تحته شيء غيره، سواء كان بينهما فرجة او كان موضوعاً على متنه فلا دلالة فيه على إمكان الخلاء، كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على إمكانه فقط ولا على كون الماء أول ما حدث في العالم بعد العرش، وإنما يدل على ان خلقهما أقدم من خلق السموات والأرض من غير تعرض للنسبة بينهما.

قلت: وكونه قبل خلقهما مأخوذ من كان لأن المعنى المستفاد منها بالنسبة للحكم لا للتكلم وهو خلق السموات والأرض، وهذا ظاهر سواء كانت الجملة معطوفة او حالية بتقدير قد. ونقل عن السلف انه كان على الماء وهو الآن على ما كان عليه وعبارة سليمان الجمل: بل هو في مكانه الذي هو فيه الآن وهو ما فوق السموات السبع والماء في المكان الذي هو فيه الآن وهو ما تحت الأرضين السبع. انتهى

عن ابن عباس انه سئل على أي شيء كان الماء؟ قال على متن الريح، وعن أبي رزين العقيلي قال: قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء وخلق عرشه على الماء[1]

---

(١) الترمذي تفسير سورة ١١/١.

اخرجه الترمذي. قال أحمد: يريد بالعماء انه ليس معه شيء. قال البيهقي: العماء ان كان ممدوداً فمعناه سحاب رقيق والمعنى فوق سحاب مدبراً له وعالياً عليه، وان كان مقصوراً فمعناه لاشيء ثابت لانه مما عمي عن الخلق لكونه غير شيء، ونحوه قال جمع من أهل العلم.

قال الازهري: فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته، وقد وردت احاديث كثيرة في صفة العرش، وفي كيفية خلق السموات والأرض ليس هذا موضع ذكرها. ﴿ليبلوكم﴾ أي خلق هذه المخلوقات ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال على كمال قدرته على البعث والجزاء ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ فيما أمر به ونهى عنه من غيره، ويدخل في العمل الاعتقاد لانه من أعمال القلب، وقيل المراد بالأحسن عملاً الأتم عقلاً، وقيل الأزهد في الدنيا وقيل الأكثر شكراً، وقيل الأتقى لله، وجاز تعليق فعل البلوى لما في الاختبار من معنى العلم لانه طريق اليه فهو ملابس له.

﴿ولئن قلت﴾ اللام موطئة للقسم فقد اجتمع في الكلام شرط وقسم، والقاعدة ان يحذف جواب المتأخر ويذكر جواب المتقدم، فقوله ليقولن جواب القسم وجواب الشرط محذوف، وكذا في قوله ﴿ولئن أخرنا﴾ وقوله ﴿ولئن أذقنا الانسان﴾ وقوله ﴿ولئن أذقناه﴾ فالمواضع اربعة.

ولما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره، والمعنى لئت قلت لهم يامحمد على ما توجبه قضية الابتلاء ﴿إنكم مبعوثون من بعد الموت﴾ فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، قيل أنكم بمعنى لعلكم على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين، أي توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بإنكاره ﴿ليقولن الذين كفروا﴾ من الناس ﴿ان هذا﴾ الذي تقوله يامحمد ﴿إلا سحر مبين﴾ أي كالسحر أو باطل كبطلان السحر وخدع كخدعه فالكلام من باب التشبيه البليغ.

ويجوز ان تكون الاشارة بهذا الى القرآن لانه المشتمل على الاخبار بالبعث وقرىء ساحر يعني النبي صلى الله عليه وسلم.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾

﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب﴾ أي الذي يستعجلونه استهزاء، وهو ما تقدم ذكره في قوله ﴿عذاب يوم كبير﴾ وقيل عذاب يوم القيامة وما بعده، وقيل عذاب يوم بدر ﴿الى أمة معدودة﴾ أي الى طائفة من الأيام قليلة لأن ما يحصره العد قليل والأمة اشتقاقها من الأم وهو القصد وأراد بها الوقت المقصود لايقاع العذاب، وقيل هي في الأصل الجماعة من الناس، وقد يسمى الحين باسم ما يحصل فيه، كقولك كنت عند فلان صلاة العصر، أي في ذلك الحين، فالمراد على هذا الى حين تنقضي أمة معدودة من الناس ﴿ليقولن ما يحبسه﴾ أي أيُّ شيء يمنعه من النزول استعجالاً له على جهة الاستهزاء والتكذيب والسخرية.

فأجابهم الله بقوله ﴿ألا﴾ أداة استفتاح داخلة على ليس في المعنى ﴿يوم يأتيهم﴾ أي العذاب ﴿ليس مصروفاً﴾ أي محبوساً ﴿عنهم﴾ بل واقع بهم لا محالة، ويوم منصوب بخبر ﴿ليس﴾ مقدماً عليه وهو دليل البصريين على جواز تقديم خبرها عليها إذ المعمول تابع للعامل فلا يقع إلا حيث يقع متبوعه والا يلزم تقديم الفرع على أصله.

ورد بأن الظرف يجوز فيه ما لا يجوز في غيره توسعاً، ويبنى الأمر فيه على التسامح فيه، وبأنه قد يقدم المعمول حيث لا مجال لتقدم العامل كما في قوله تعالى ﴿فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر﴾ فان اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها.

قال أبو حيان: وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ﴿ليس﴾ عليها ولا بتقديم معموله إلا ما دل عليه ظاهر هذه الآية، وقول الشاعر:

فيأبى فما يزداد إلا لجاجة ،وكنت أبياً في الخنا لست أقدم

قلت وهذا الخلاف بينهم في تقديم الخبر على ﴿ليس﴾ لا على اسمها فإنه جائز بلا خلاف والكلام فيه وفي أدلته مفصل في كتب النحو.

﴿وحاق﴾ أي أحاط ﴿بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ أي العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم، ووضع هذا مكان يستعجلون لأن استعجالهم كان استهزاء منهم، وعبر بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه فكأنه قد حاق بهم ﴿ولئن أذقنا الانسان﴾ أي الجنس فيشمل المؤمن والكافر، ويدل على ذلك الاستثناء الآتي، قيل المراد به جنس الكفار، ويؤيده أن اليأس والكفران والفرح والفخر هي أوصاف أهل الكفر لا أهل الاسلام في الغالب، وقيل المراد بالانسان الوليد بن المغيرة، وقيل عبد الله بن أمية المخزومي ﴿منا رحمة﴾ أي نعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن وسعة العيش والرخاء.

﴿ثم نزعناها منه﴾ أي سلبناه اياها واخذناها قهراً عليه، وايراد النزع للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها ﴿انه ليؤوس﴾أي آيس من الرحمة شديد القنوط من عودها وامثالها لقلة صبره وعدم ثقته بالله ﴿كفور﴾ عظيم الكفران وهو الجحود لها. قاله ابن الاعرابي

وفي ايراد صيغتي المبالغة ما يدل على ان الانسان كثير اليأس وكثير الجحد عند ان يسلبه الله بعض نعمه فلا يرجو عودها ولا يشكر ما قد سلف له منها. وفي التعبير بالذوق ما يدل على انه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه لأن الإذاقة والذوق أقل ما يوجد به الطعم.

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾ والنعماء انعام يظهر اثره على صاحبه؛ والضراء ظهور أثر الاضرار على من أصيب به، والمعنى انه ان أذاق الله سبحانه العبد نعماءه من الصحة والسلامة والغنى بعد أن كان في ضر من فقر او مرض أو خوف، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه، وفي اختلاف الفعلين نكتة لا تخفى.

﴿ليقولن﴾ اي بل يقول ﴿ذهب السيئات عني﴾ أي المصائب التي ساءته من الضر والفقر والخوف والمرض عنه وزال أثرها غير شاكر لله ولا مثن عليه بنعمه ﴿انه لفرح فخور﴾ أي كثير الفرح بطراً أو أشراً كثير الفخر على الناس بتعديد المناقب والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم، والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المراد والمشتهى.

وفي التعبير عن ملابسة الضر له بالمس مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالإذاقة فإن كليهما لأدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة كما تقدم.

﴿إلا الذين صبروا﴾ فإن عادتهم الصبر عند نزول المحن، والشكر عند حصول المنن، قال الاخفش: هو استثناء منقطع، يعني ولكن الذين صبروا فإنهم ليسوا كذلك، وقيل متصل اذ المراد بالانسان الجنس لا واحد بعينه قاله الفراء ﴿وعملوا الصالحات﴾ في حالة النعمة والنقمة.

﴿اولئك﴾ إشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات ﴿لهم مغفرة﴾ لذنوبهم وان جمت ﴿وأجر﴾ يؤجرون به على اعمالهم الحسنة ﴿كبير﴾ متناه في الكبر، وهو الجنة، ووصف الأجر به لما احتوى عليه من النعيم السرمدي ودفع التكاليف والأمن من عذاب الله والنظر الى وجهه الكريم، واختياره على العظيم لعله لرعاية الفواصل.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ (١٢) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٣)﴾

ثم سلى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فقال ﴿فلعلك﴾ لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب واقتراح الآيات التي يقترحونها عليك على حسب هواهم وتعنتهم ﴿تارك بعض ما يوحى اليك﴾ مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه مما يشق عليهم سماعه او يستشقون العمل به كسب آلهتم، وأمرهم بالايمان بالله وحده. وقيل هذا الكلام خارج مخرج الاستفهام أي هل أنت تارك، وقيل هو في معنى النفي مع الاستبعاد أي لا يكون منك ذلك بل تبلغهم جميع ما انزل الله عليك أحبوا ذلك أم كرهوا، شاءوا أم أبوا.

﴿وضائق به صدرك﴾ الضمير راجع الى «ما» او الى بعض وعبر بضائق دون ضيق لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدوث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم ﴿أن يقولوا﴾ أي كراهة أو مخافة، أو لأجل أن أو بأن لا. وقال أبو البقاء: لأن يقولوا ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿أنزل عليه كنز﴾ أي مال مكنوز مخزون ينتفع به ويستغني به ﴿أو جاء معه ملك﴾ يصدقه ويبين لنا صحة رسالته.

ثم بيّن سبحانه أن حاله صلى الله عليه وسلم مقصور على النذارة فقال ﴿إنما أنت نذير﴾ أي ليس عليك إلا الانذار بما أوحى اليك، وليس عليك حصول مطلوبهم وايجاد مقترحاتهم ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب ان يفعل.

﴿أم يقولون افتراه﴾ أم هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة، أضرب عما تقدم من تهاونهم بالوحي وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة، وشرع في ذكر ارتكابهم لما هو أشد من ذلك وهو افتراؤهم عليه بأنه افتراء، والاستفهام للتقريع والتوبيخ والضمير المستتر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والبارز لما يوحى.

ثم أمره الله سبحانه ان يجيب عليهم بما يقطعهم ويبيِّن كذبهم ويظهر به عجزهم فقال ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله﴾ أي مماثلة له في البلاغة وحسن النظم، وجزالة اللفظ، وفخامة المعنى، ووصف السور بما يوصف به المفرد فقال مثله ولم يقل أمثاله لأن المراد مماثله كل واحدة من السور أو لقصد الايماء الى أن وجه الشبه ومداره المماثلة في شيء واحد وهو البلاغة البالغة الى حد الاعجاز.

وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة في الجمع والتثنية والافراد شرط، وقيل لفظة مثل وان كانت بلفظ الافراد فانها يوصف بها المثنى والمجموع والمؤنث كقوله تعالى ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ وتجوز المطابقة قال تعالى ﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ﴾ وقال تعالى: ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ والهاء في مثله تعود لما يوحى.

ثم وصف السور بصفة أخرى فقال ﴿مفتريات﴾ جمع مفتراة كمصطفيات في مصطفاة فانقلبت الألف ياء كالتثنية، قاله السمين أي مختلفات حيث قالوا له افتريت هذا القرآن من عند نفسك وليس من عند الله، فتحداهم وارخى لهم العنان وفاوضهم على مثل دعواهم وقال مفتريات في مقابلة قولهم افتراه.

ولما تحداهم بهذا الكلام أمره بأن يقول لهم ﴿وادعوا﴾ للاستظهار على المعارضة بالعشر السور ﴿من استطعتم﴾ دعاءه وقدرتم على الاستعانة به من هذا النوع الانساني و ﴿من دون الله﴾ أي ممن تعبدونه وتجعلونه شريكاً لله سبحانه أي ادعوا من استطعتم متجاوزين الله سبحانه ﴿ان كنتم صادقين﴾ فيما تزعمون من افترائي له.

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

﴿فإلَّم﴾ تكتب بغير نون كما في خط المصحف وهذا في خصوص هذا الموضع ﴿يستجيبوا لكم﴾ أي فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم وتحديتهم به من الاتيان بعشر سور مثله، ولا استجابوا الى المعارضة المطلوبة منهم، ويكون الضمير في لكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين او للنبي (ﷺ) وحده وجمع تعظيماً وتفخيماً.

﴿فاعلموا﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين او للرسول وحده على التأويل الذي سلف قريباً ومعنى أمرهم بالعلم أمرهم بالثبات عليه لأنهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الاتيان بعشر سور مثله او المراد بالأمر بالعلم الأمر بالازدياد منه الى حد لا يشوبه شك، ولا تخالطه شبهة، وهو علم اليقين، والأول أولى.

﴿أنما أنزل﴾ متلبساً ﴿بعلم الله﴾ المختص به الذي لا تطلع على كنهه العقول ولا تستوضح معناه الافهام لما اشتمل عليه من الاعجاز الخارج عن طوق البشر، وليس مفترى على الله، وانما أداة حصر ويجوز في ما أن تكون موصولة اسمية او حرفية تقديره فاعلموا ان تنزيله أو أن الذي أنزله متلبس بعلم الله ﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أي واعلموا أن الله هو المتفرد بالالوهية لا شريك له ولا يقدر غيره على ما يقدر عليه، ثم ختم الآية بقوله ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ اي ثابتون على الاسلام راسخون فيه مخلصون له إذا تحقق عندكم اعجازه.

عن مجاهد قال: الخطاب لاصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم أي هل أنتم مزدادون من الطاعات لانه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الاتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمأنينة فوق ما كنتم وبصيرة زائدة وان كنتم مسلمين من قبل هذا فان الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة به مطلوب منكم.

وقيل المعنى فان لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاضدة والمناصرة على الإتيان بعشر سور من سائر الكفار ومن تعبدونهم وتزعمون أنهم يضرون وينفعون فاعلموا أن هذا القرآن الذي أنزله الله على هذا الرسول خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى لما اشتمل عليه من الاعجاز الذي يتقاصر دونه قوة المخلوقين وانه أنزل الله الذي لا تحيط به العقول ولا تبلغه الأفهام.

واعلموا انه المتفرد بالألوهية لا شريك له فهل أنتم بعد هذا مسلمون أي داخلون في الإسلام متبعون لأحكامه مقتدون بشرائعه بعد قيام الحجة القاطعة.

وفي مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر، وهذا الوجه أقوى من الوجه الأول من جهة، وأضعف منه من جهة.

فأما جهة قوته فلاتّساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها الى تأويل، وأما ضعفه في ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه الى تكلف، وهو أن يقال إن عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والآلهة مع حرصهم، على نصرهم ومعاضدتهم ومبالغتهم في عدم ايمانهم واستمرارهم على الكفر، يفيد حصول العلم لهؤلاء

الكفار بأن هذا القرآن من عند الله وان الله سبحانه هو الإلٓه وحده لا شريك له وذلك يوجب دخولهم في الإسلام.

وأعلم انه قد اختلف التحدث للكفار بمعارضة القرآن فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله: ﴿لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾ وبعشر سور كما في هذه الآية وذلك لأن العشرة أول عقد من العقود، وبسورة منه كما تقدم في البقرة ويونس، وذلك لأن السورة أقل طائفة منه.

ثم ان الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها فقال: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ واختلف أهل التفسير في هذه الآية فقال الضحاك: نزلت في الكفار وأهل الشرك واختاره النحاس بدليل الآية التي بعدها ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ وقال أنس: نزلت في اليهود والنصارى، وعن الحسن مثله، وقيل نزلت في المنافقين، وقيل الآية واردة في الناس على العموم كافرهم ومسلمهم والحمل على العموم أولى.

والمعنى ان من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافأ بذلك وليس المراد مجرد الارادة والمراد بزينتها ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة في الرزق وارتفاع الحظ ونفاذ القول وكثرة الاولاد والرياسة ونحو ذلك، وادخال كان في الآية يفيد انهم مستمرون على ارادة الدنيا بأعمالهم لا يكادون يريدون الآخرة ولهذا قيل انهم مع اعطائهم حظوظ الدنيا يعذبون في الآخرة لأنهم جردوا قصدهم الى الدنيا ولم يعملوا للآخرة.

وظاهر قوله: ﴿نوف اليهم أعمالهم فيها﴾ ان من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوي لا محالة، ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك فليس كل متمن ينال من الدنيا أمنيته وان عمل لها وأرادها فلا بدّ من تقييد ذلك

بمشيئة الله سبحانه، عن ابن عباس قال: يعني من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة او تهجداً بالليل لا يعمله إلا لذلك.

قال القرطبي: ذهب اكثر العلماء الى ان هذه الآية مطلقة وكذلك الآية التي في الشورى ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه - ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾ ﴿ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها كذلك، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ وقيدتها وفسرتها التي في سبحان ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾.

﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ أي وهؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم في الدنيا لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب اعمالهم لها وذلك في الغالب، وليس بمطرد بل ان قضت به مشيئته سبحانه ورجحته حكمته البالغة.

وقال القاضي: معنى الآية من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا وهو ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والطيبات والمنافع، فخص الجزاء بمثل ما ذكره وهو حاصل لكل عامل للدنيا ولو كان قليلاً يسيراً. أ هـ.

وانما عبر عن عدم نقص أعمالهم بنفي البخس الذي هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التي هي إعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل عن كونها مستوجبة لذلك، بناء للأمر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة في نفي النقص، كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلاً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾

﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ الاشارة الى المريـدين المذكورين ولا بدّ من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتد بها الموجبة للجزاء الحسن في الدار الآخرة او تكون الآيـة خاصة بالكفار كما تقدم.

﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ أي ظهر في الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الاعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الاخروي لولا انهم أفسدوها بفساد مقاصدهم وعدم الخلوص وارادة ما عند الله في دار الجزاء، بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها.

ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال: ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي انه كان عملهم في نفسه باطلاً غير معتد به، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح.

عن مجاهد قال: هم أهل الرياء، وهذا مشكل لأن قوله اولئك الذين، الآية لا يليق بحال المؤمن إلا إذا قلنا إن تلك الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد الشديد وهو عذاب النار. ويدل له ما روي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار»[1] أخرجه الترمذي.

---

(١) الترمذي، كتاب العلم باب ٦.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً اشرك فيه معي غيري تركته وشركه[٢] اخرجه مسلم. وفي الباب أحاديث بمعناه والرياء هو الشرك الأصغر كما ورد في الحديث، وهذا هو أحد الأقوال.

والذي تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون في القرآن العظيم اندراجاً أولياً، فإنه عز وعلا لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن يزدادوا علماً ويقيناً بأن القرآن مُنزل بعلم الله وبأن لا قدرة لغيره على شيء أصلاً، وهيجهم على الثبات على الاسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة، وتبين أنهم ليسوا على شيء أصلاً، اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شئونهم الموهمة لكونهم على شيء في الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية، وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه، لقد بيّن ذلك أي بيان.

(٢) مسلم ٢٩٨٥.

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

ثم بيَّن سبحانه ان بين من كان طالباً للدنيا فقط ومن كان طالباً للآخرة تفاوتاً وتبايناً بعيداً فقال: ﴿أفمن كان على بيّنة﴾ برهان يدل على الحق ﴿من ربه﴾ في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم والايمان بالله كغيره، ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها، وقيل المراد به النبي صلى الله عليه وسلم، أي أفمن كان معه بيان من الله ومعجزة كالقرآن ومعه شاهد كجبريل، وقد بشرت به الكتب السابقة كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها.

والضمير في ﴿ويتلوه شاهد﴾ راجع الى البيّنة باعتبار تأويلها بالبرهان أي يؤيده ويشدّده ويقويه، والضمير في ﴿منه﴾ راجع الى القرآن لأنه تقدم ذكره في قوله أم يقولون افتراه أو راجع الى الله تعالى. والمعنى ويتلو البرهان الذي هو البيّنة شاهد يشهد بصحته من القرآن أو من الله سبحانه، والشاهد هو الاعجاز الكائن في القرآن او المعجزات التي ظهرت لرسول الله (ﷺ) فإن ذلك من الشواهد التابعة للقرآن.

وقال الفراء: قال بعضهم: ويتلوه شاهد منه الانجيل وان كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق، والهاء في منه لله عز وجل. وقيل المراد بمن كان على بيّنة من ربه هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام واضرابه.

وعن علي بن أبي طالب قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود ﴿أفمن كان على بيّنة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ فرسول الله صلى الله عليه وسلم بيّنة

من ربه وأنا شاهد منه، اخرجه أبو نعيم وابن أبي حاتم.

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويتلوه شاهد منه، علي[1] أخرجه ابن عساكر. وعنه وددت أني أنا هو ولكنه لسان محمد. وعن ابن عباس أن الشاهد جبريل، ووافقه سعيد بن جبير وعلقمة وابراهيم ومجاهد والضحاك واكثر المفسرين. وقال الحسن وقتادة: هو لسان النبي صلى الله عليه وسلم.

ووجه ذلك أن اللسان لما كان يعرب عما في الجنان، ويظهره جعل كالشاهد له لأنه آية الفصل والبيان وبه يتلى القرآن. وقال مجاهد: الشاهد هو ملك يحفظ النبي (ﷺ) ويسدده والأول أولى.

﴿ومن قبله﴾ أي القرآن ﴿كتاب موسى﴾ عطف على شاهد والتقدير ويتلوه الشاهد وشاهد آخر وهو كتاب موسى، فهو ان كان متقدماً في النزول فهو يتلو الشاهد في الشهادة، وانما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخراً في الوجود لكونه وصفاً لازماً غير مفارق فكان أعرق في الوصفية من كتاب موسى.

ومعنى شهادة كتاب موسى وهو التوراة انه بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وأخبر بأنه رسول من الله.

قال الزجاج: والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى لأن النبي صلى الله عليه وسلم موصوف في كتاب موسى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل، وقرىء كتاب موسى بالنصب أي يتلو كتاب موسى جبريل.

﴿إماماً ورحمة﴾ الإمام هو الذي يؤتم به في أمور الدين ويقتدى به في الأحكام والشرائع، والرحمة النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على من أنزله

(١) فيه رائحة التشيع.

عليهم وعلى من بعدهم الى يوم القيامة باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن.

﴿أولئك﴾ أي المتصفون بتلك الصفة الفاضلة وهو الكون على البينة من الله ﴿يؤمنون به﴾ أي يصدقون بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بالقرآن ﴿ومن يكفر به﴾ أي بالنبي أو بالقرآن ﴿من الأحزاب﴾ وهم المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة وغيرهم أو المتحزبون من أهل الأديان كلها قال قتادة: الكفار أحزاب كلهم على الكفر.

﴿فالنار موعده﴾ أي هو من أهل النار لا محالة وفي جعل النار موعداً إشعار بأن فيها ما لا يحيط بها الوصف من أفانين العذاب.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي ارسلت به إلا كان من أصحاب النار[١] اخرجه البغوي بسنده، قال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله حتى بلغني هذا الحديث، فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية.

﴿فلا تك في مرية منه﴾ أي في شك من كون القرآن نازلاً من عند الله وفيه تعريض بغيره صلى الله عليه وسلم لأنه معصوم عن الشك في القرآن او في شك من الموعد. والمرية بالكسر والضم والأولى لغة الحجاز، وبها قرأ جماهير الناس، والثانية لغة أسد وتميم وبها قرأ السلمي وغيره ﴿انه الحقّ من ربك﴾ فلا مدخل للشك منه بحال من الأحوال ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بذلك مع وجوب الايمان به وظهور الدلائل الموجبة له، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقاً أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلاً.

(١) شرح السنة ١/١٠٤.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (١٩)﴾

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي لا أحد أظلم منهم لانفسهم لأنهم افتروا عليه سبحانه كذباً بقولهم لأصنامهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وقولهم الملائكة بنات الله، وأضافوا كلامه سبحانه الى غيره، واللفظ وان كان لا يقتضي إلا نفي وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الانكاري فالمقام يفيد نفي المساوي لهم في الظلم، فالمعنى على هذا لا أحد مثلهم في الظلم فضلاً عن أن يوجد من هو أظلم منهم، وذكر لهم هنا من أوصافهم أربعة عشر وصفاً، أولها افتراء الكذب وآخرها كونهم في الآخرة أخسر من غيرهم

﴿أولئك﴾ أي الموصوفون بالظلم المتبالغ ﴿يعرضون على ربهم﴾ يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم أو المراد بعرضهم عرض أعمالهم عرضاً تظهر به فضيحتهم ﴿ويقول الاشهاد﴾ جمع شهيد، ورجحه أبو علي بكثرة ورود شهيد في القرآن كقوله ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً، فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾.

وقيل هو جمع شاهد كأصحاب وصاحب. قال مجاهد: هم الملائكة الحفظة وقيل المرسلون. قاله ابن عباس، وقيل الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم الله بإبلاغه، وقيل جميع الخلائق، قاله قتادة. والمعنى انه يقول هؤلاء الاشهاد عند العرض

﴿هؤلاء﴾ المعرضون أو المعروضة أعمالهم ﴿الذين كذبوا على ربهم﴾ في

الدنيا بما نسبوه اليه ولم يصرحوا بما كذبوا به، كأنه كان أمراً معلوماً عند أهل ذلك الموقف ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء، هذا من تمام كلام الاشهاد، أي يقولون ألا لعنة الله الخ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه. قاله بعدما قال الاشهاد.

وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يدني المؤمن حتى يضع كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول رب أعرف، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه انه قد هلك قال فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق فيقول الاشهاد الى قوله الظالمين[١].

والفائدة في قول الاشهاد بهذه المقالة المبالغة في فضيحة الكفار والتقريع لهم على رؤوس الاشهاد.

ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بأنهم ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ أي يمنعون من قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه، وقال السدي عن محمد صدت قريش عنه الناس.

﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي يصفونها بالاعوجاج تنفيراً للناس عنها أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها إلى الكفر، يقال بغيتك شراً أي طلبته لك. وقال أبو مالك: يعني يرجون بمكة غير الاسلام ديناً.

﴿وهم﴾ أي والحال أنهم هم بالآخرة ﴿كافرون﴾ أي غير مصدقين فكيف يصدون الناس عن طريق الحق وهم على الباطل البحت، وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به، حتى كأن كفر غيرهم غير معتد به بالنسبة الى عظيم كفرهم.

---

(١) البخاري كتاب التوحيد باب ٣٦ بلفظ: «يدنو احدكم من ربه حتى...».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ (٢٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٢١)﴾

﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿لم يكونوا معجزين في الأرض﴾ أي ما كانوا يعجزون الله في الدنيا إن أراد عقوبتهم، وقيل معناه سابقين، وقيل فائتين، وقيل مفلتين أنفسهم من أخذه لو أرادوا ذلك في الارض مع سعتها وان هربوا فيها كل مهرب

﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ يدفعون عنهم ما يريده الله سبحانه من عقوبتهم وانزال بأسه بهم؛ ومن زائدة

﴿يضاعف﴾ وقرىء يضعَّف بالتشديد ﴿لهم العذاب﴾ في الآخرة مستأنفة لبيان أن تأخير العذاب والتراخي عن تعجيله لهم ليكون عذاباً مضاعفاً بسبب صدهم عن سبيل الله وإنكارهم البعث، بعد الموت

وقال السيوطي: بإضلالهم غيرهم قال الصاوي: حاصله[1] ان المضاعفة مخصوصة بالحسنات، وأما السيئآت فلا تضاعف قال تعالى ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ فمعنى المضاعفة الشدة لأنهم يعذبون عذابين عذاباً على ضلالهم في أنفسهم وعذاباً على اضلالهم غيرهم.

﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ أي أفرطوا في إعراضهم عن الحق وبغضهم له حتى كأنهم لا يقدرون على السمع للحق وهذا تعليل لمضاعفة

---

(١) قوله حاصله أي حاصل قول السيوطي إ هـ منه.

العذاب ﴿وما كانوا يبصرون﴾ أي ولا يقدرون على الابصار لفرط تعاميهم عن الصواب.

ويجوز أن يراد بقوله ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ انهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله ولا ينفعهم ذلك، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعاً ويدفعون عنهم ضراً .

وقوله : ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ اعتراض وسط بينهما نعياً عليهم من أول الأمر سوء العاقبة ويجوز أن يكون ما هي المدة، والمعنى انه يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والبصر، وقال الفراء: لا يستطيعون السمع لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ.

وقال الزجاج : لبغضهم النبي صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون ان يسمعوا منه ولا يفهموا عنه .

قال النحاس: هذا معروف في كلام العرب يقال فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان، إذا كان ثقيلاً عليه.

﴿أولئك﴾ المتصفون بتلك الصفات ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ بعبادة غير الله، والمعنى اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله فكان خسرانهم في تجارتهم أعظم خسران ﴿وضل﴾ أي ذهب وضاع ﴿عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الآلهة التي يدعون انها تشفع لهم ولم يبق بأيديهم إلا الخسران.

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿لا جرم انهم في الآخرة هم الاخسرون﴾ قال الخليل وسيبويه: لا جرم بمعنى حق فهي عندهما بمنزلة كلمة واحدة وبه قال الفراء، وروي عن الخليل والفراء أنها بمنزلة قولك لا بد ولا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً.

وقال الزجاج: ان جرم بمعنى كسب وفاعله مضمر أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران، وان منصوبة بجرم.

قال الأزهري: وهذا من أحسن ما نقل في هذه اللغة، وقال الكسائي: معنى لا جرم لا صد ولا منع، وقال جماعة من النحويين: ان معنى لا جرم لا قطع قاطع قالوا والجرم القطع وقد جرم النخل واجترمه أي قطعه.

ووردت هذه اللفظة في القرآن في خمسة مواضع متلوة بأن واسمها ولم يجيء بعدها فعل ويقال في كل واحد منها ما قيل هنا، وفيه لغات بكسر الجيم وبضمها ولا جر بحذف الميم، ولا ان ذا جرم ولا ذو جرم وغير ذلك:

وفي هذه الآية بيان انهم قد بلغوا في الخسران الى حد يتقاصر عنه غيرهم ولا يبلغ اليه، وهذه الآيات مقررة لما سبق من نفي المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها وبين من كان على بينة من ربه.

﴿ان الذين آمنوا﴾ أي صدقوا بكل ما يجب عليهم التصديق به من

كون القرآن من عند الله وغير ذلك من خصال الايمان ﴿وعملوا الصالحات﴾ أراد بها جميع أعمال الجوارح ﴿وأخبتوا إلى ربهم﴾ أي أنابوا اليه وسكنوا، وقيل خشعوا وقيل خضعوا وقيل خافوا، قاله ابن عباس وقيل اطمأنوا قاله مجاهد، وهذا اشارة إلى أعمال القلوب، وقيل وأصل الاخبات الاستواء في الخبت وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان.

قال الفراء: الى ربهم ولربهم واحد، وقيل لفظ الاخبات يتعدى باللام وإلى فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن اليه، وإذا قلت له فمعناه خشع وخضع ﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات الصالحة ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ لا انقطاع لنعيمها ولا زوال لأهلها.

﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ ضرب للفريقين مثلاً وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع على ان كل فريق شبه بشيئين أو شبه بمن جمع بين الشيئين، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر، وعلى هذا يكون الواو في والاصم وفي والسميع لعطف الصفة على الصفة.

﴿هل يستويان مثلاً﴾ أي حالاً وصفة ﴿أفلا تذكرون﴾ في عدم استوائهما وفيما بينهما من التفاوت الظاهر لا يخفى على من له تذكر وعنده تفكر وتأمل. والهمزة لإنكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين.

ولما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم أنواع الدلائل التي هي أوضح من الشمس أكد ذلك بذكر القصص على طريقة الافتنان في الكلام، ونقله من اسلوب الى اسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين والقبول أتم فقال.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ولقد﴾ الواو للابتداء واللام هي الموطئة للقسم ﴿أرسلنا نوحاً الى قومه اني لكم نذير مبين﴾ بالكسر على ارادة القول أي فقال أو قائلا، وقرىء بالفتح على اضمار حرف الجر-أي أرسلناه متلبساً بذلك الكلام وهو اني لكم، واقتصر على النذارة دون البشارة لأن دعوته كانت لمجرد الانذار أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به.

وفي هذه السورة ذكر أنواع من القصص، الأولى قصة نوح، الثانية قصة هود، الثالثة قصة صالح، الرابعة قصة ابراهيم؛ الخامسة قصة لوط، السادسة قصة شعيب، السابعة قصة موسى وهي آخر القصص على الترتيب الزماني.

﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ أن مصدرية أو مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير أو بمبين ولا ناهية ﴿اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ تعليلية والمعنى نهيتكم عن عبادة غير الله لاني أخاف عليكم، وفيها تحقيق لمعنى الانذار، واليوم هو يوم القيامة أو يوم الطوفان، ووصفه بالأليم من باب الاسناد المجازي مبالغة.

ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه، وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم في نبوته من ثلاث جهات ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ الملأ الاشراف كما تقدم غير مرة، ووصفهم بالكفر ذماً لهم وفيه دليل على أن بعض اشراف قومه لم يكونوا كفرة ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم في نبوته، أي نحن وأنت مشتركون في البشرية فلم تكن لك علينا مـزية تستحق بها النبوة دوننا.

والجهة الثانية ﴿وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا﴾ أي ولم يتبعك أحد من الاشراف فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الاراذل لك، والأراذل جمع أرذل بضم الذال وأرذل جمع رذل بسكونها مثل أكالب واكلب وكلب فهو جمع الجمع، وقيل الاراذل جمع أرذل كالاساود جمع أسود، وهم السفلة كالحاكة والاساكفة، والارذل الأدون من كل شيء فقال النحاس الأراذل الفقراء والذين لا حسب لهم والحسب الصناعات.

وقال الزجاج: نسبوهم الى الحياكة ولم يعلموا ان الصناعات لا أثر لها في الديانة لأن الرفعة في الدين ومتابعة الرسل لا تكون بالشرف والمال والمناصب العلية بل للفقراء الخاملين وهم أتباع الرسل ولا تضرهم خسة صنائعهم إذا حسنت سيرتهم في الدين، وهذه عادة الله في الانبياء والأولياء ان أول من يتبعهم ضعفاء الناس لذلهم فلا يتكبرون عن الاتباع بمال ولا جاه.

وقال ثعلب عن ابن الاعرابي: السفلة هو الذي يصلح الدنيا بدينه قيل له فمن سفلة السفله، قال: الذي يصلح دنيا غيره بفساد دينه.

والظاهر من كلام أهل اللغة ان السفلة هو الذي يدخل في الحرف الدنية، والرؤية في الموضعين ان كانت القلبية فبشراً في الأول واتبعك في الثاني هما المفعول الثاني، وان كانت البصرية فهما منتصبان على الحال.

﴿بادي الرأي﴾ أي في ظاهر الرأي من غير تعمق، يقال بدا يبدو إذا ظهر قال الازهري: معناه فيما يبدو لنا من الرأي، وقيل أول الرأي قرىء بالهمز وتركه وهما سبعيتان ونصبه على الظرف أي وقت حدوث أول رأيهم.

والوجه الثالث من جهات قدحهم في نبوته ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ بالمال والشرف والجاه والرأي خاطبوه في الوجهين الأولين منفرداً، وفي هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه، ثم اضربوا عن الثلاثة المطاعن وانتقلوا إلى ظنهم المجرد عن البرهان الذي لا مستند له إلا مجرد العصبية والحسد واستبقاء ماهم فيه من الرياسة الدنيوية فقالوا ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ فيما تدعونه، ويجوز

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾

أن يكون هذا خطاباً للأراذل وحدهم، والأول أولى لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له.

ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليه السلام عليهم اجمالاً فقال ﴿قال يا قوم أرأيتم﴾ أي اخبروني ﴿ان كنت على بينة﴾ برهان ﴿من ربي﴾ في النبوة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها مع كون ما جعلتموه قادحاً ليس بقادح في الحقيقة فان المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في صفة النبوة واتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة فانهم مثلكم في البشرية والعقل والفهم فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة، وفي هذا الخطاب غاية التلطف بهم.

﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ وهي النبوة وقيل الرحمة المعجزة والبينة النبوة قيل ويجوز أن يكون الرحمة هي البينة نفسها والأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به البينة وقيل الرحمة هي على الحق، وقيل هي الهداية إلى معرفة البرهان، وقيل الإيمان والافراد في ﴿فعميت﴾ على ارادة كل واحدة منهما أو على ارادة البينة لأنها هي التي تظهر لمن تفكر وتخفى على من لم يتفكر، ومعنى عميت خفيت يقال عميت عن كذا وعمي عليّ كذا إذا لم أفهمه.

قيل وهو من باب القلب لأن البينة أو الرحمة لا تعمي، وانما يعمى عنها

فهو كقولهم ادخلت القلنسوة رأسي، وقيل ان عمى الدليل بمعنى خفائه مجازاً فيقال حجة عمياء كما يقال مبصرة للواضحة وهو استعارة تبعية، شبه خفاء الدليل بالعمى في ان كُلاًّ يمنع الوصول الى المقاصد وقرىء فعميت بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول أي فعماها الله.

﴿عليكم﴾ فلم تهدكم كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغيرها وفي قراءة أُبيّ فعماها عليكم.

والاستفهام في ﴿أنلزمكموها﴾ للانكار أي لا يمكنني ان اضطركم الى المعرفة بها أي بالرحمة والمراد الزام الجبر بالقتل ونحوه لا إلزام الايجاب إذ هو حاصل ولذا فسره السيوطي بقوله انجبركم على قبولها ﴿وأنتم﴾ أي والحال انكم ﴿لها كارهون﴾ أي منكرون ونافون لها، والمعنى أخبروني ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة النبوة إلا انها خافية عليكم أيمكننا أن نضطركم إلى العلم بها والحال انكم لها كارهون غير متدبرين فيها فان ذلك لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

وعن قتادة قال: أما والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يمكنه.

﴿ويا قوم لا أسالكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله﴾ فيه التصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالاً حتى يكون بذلك محلاً للتهمة، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه ادعى طلباً للدنيا، والضمير في عليه راجع إلى ما قاله لهم فيما قبل هذا.

﴿و﴾ قوله ﴿ما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ كالجواب عما يفهم من قولهم ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل

عنه وقيل إنهم سألوه طردهم تصريحاً لا تلميحاً، وهذا كما قالت قريش لمحمد (ﷺ) كما تقدم في سورة الأنعام ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ الآية

ثم علل ذلك بقوله ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ أي لا أطردهم فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عنده سبحانه، وكأنه قال هذا على وجه الإعظام لهم، ويحتمل أنه قاله خوفاً من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم.

ثم بين لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طلبوها منه والعلل التي اعتلوا بها عن إجابته فقال ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ كل ما ينبغي أن يعلم، ومن ذلك استرذالهم للذين اتبعوه وسؤالهم له أن يطردهم.

وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾

ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله ﴿ويا قوم من ينصرني من الله﴾ أي من يمنعني من عذاب الله وانتقامه ﴿ان طردتهم﴾ فإن طردهم بسبب سبقهم إلى الايمان والاجابة الى الدعوة التي أرسل الله رسوله لأجلها ظلم عظيم لا يقع من الأنبياء المؤيدين بالعصمة، ولو وقع ذلك منهم فرضاً وتقديراً لكان فيه من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس.

﴿أفلا تذكرون﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل بما ذكر فلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكره وتتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ، وما هم عليه الصواب، وقيل تقديره أتامروني بطردهم فلا تذكرون، وقيل الأصل فلا تذكرون، وقيل أفلا بمعنى هلا التحضيضية كما ذكره الكرخي.

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أعطيكم منها، بين لهم انه كما لا يطلب منهم شيئاً من أموالهم على تبليغ الرسالة، كذلك لا يدعي أن عنده خزائن الله حتى تستدلوا بعدمها على كذبه كما قالوا ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ والمراد بخزائن الله خزائن رزقه، وقال ابن الانباري: الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطو عن الخلق والأول أولى لقوله ﴿ولا أعلم الغيب﴾ أي ولا أدعي أني أعلم بغيب الله بل لم أقل لكم إلا إني نذير مبين إني أخاف

عليكم عذاب يوم أليم وهذا رد لقولهم ﴿وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ أي في ظاهر حالهم وأول فكرهم، وفي الباطن لم يتبعوك، فقال لهم إني إنما أعوّل على الظاهر لأني لا أعلم الغيب فأحكم به.

﴿ولا أقول﴾ لكم ﴿إني ملك﴾ حتى تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلنا، فإن البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها، وقد استدل بهذا من قال إن الملائكة أفضل من الانبياء، والأدلة نفي هذه المسألة مختلفة وليس لطالب الحق الى تحقيقها حاجة، فليست هي مما كلفنا الله بعلمه

﴿ولا أقول للذين﴾ أي في شأن الذين ﴿تزدري أعينكم﴾ أي تحتقر وتستصغر، والإزدراء مأخوذ من أزرى عليه إذا عابه وزرى عليه إذا احتقره، والمعنى اني لا أقول لهؤلاء المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم ﴿لن يؤتيهم الله خيراً﴾ أي توفيقاً وهداية وإيماناً وأجراً بل قد آتاهم الخير العظيم بالايمان به واتباع نبيه، فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة ورافعهم في الدنيا الى أعلى محل، ولا يضرهم احتقاركم لهم شيئاً.

﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ من الايمان به والاخلاص له فمجازيهم على ذلك ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء ﴿اني اذاً لمن الظالمين﴾ لهم ان فعلت ما تريدونه بهم أو من الظالمين لأنفسهم ان فعلت ذلك بهم

ثم جاوبوه بغير ما تقدم من كلامهم وكلامه ﴿قالوا﴾ عجزاً عن القيام بالحجة وقصوراً عن رتبة المناظرة وانقطاعاً عن المباراة بقولهم ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾ أي خاصمتنا بأنواع الخصام ودفعتنا بكل حجة لها مدخل في المقام، ولم يبق لنا في هذا الباب مجال فقد ضاقت علينا المسالك وانسدت أبواب الحيل ﴿فائتنا بما تعدنا﴾ من العذاب الذي تخوفنا منه وتخافه علينا ﴿ان كنت من الصادقين﴾ فيما تقوله لنا.

إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

فأجاب بأن ذلك ليس اليه وإنما هو بمشيئة الله وإرادته و﴿قال إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم، وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيره أخره ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بفائتين عما أراده الله بكم بهرب أو مدافعة ﴿ولا ينفعكم نصحي﴾ الذي أبذله لكم وأستكثر منه قياماً مني بحق النصيحة لله بإبلاغ رسالته لكم بإيضاح الحق؛ وبيان بطلان ما أنتم عليه ﴿ان أردت أن أنصح لكم﴾ وجواب هذا الشرط محذوف والتقدير لا ينفعكم نصحي كما يدل عليه ما قبله

﴿ان كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي إغواءكم فلا ينفعكم النصح مني، وكان جواب هذا الشرط محذوفاً كالأول وتقديره ما ذكرنا، وهذا التقدير انما هو على مذهب من يمنع من تقدم الجزاء على الشرط، وأما على مذهب من يجيزه فجزاء الشرط الأول ولا ينفعكم نصحي، والجملة جزاء للشرط الثاني.

قال ابن جرير: معنى يغويكم يهلككم بعذابه؛ وظاهر لغة العرب أن الاغواء الاضلال، فمعنى الآية لا ينفعكم نصحي ان كان الله يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد، ويخذلكم عن طريق الحق. وحكى عن طي أصبح فلان غاوياً أي مريضاً وليس هذا المعنى هو المراد في الآية، وقد ورد الإغواء بمعنى الاهلاك، ومنه فسوف يلقون غياً، وهو غير ما في الآية هذه.

﴿هو ربكم﴾ فإليه الاغواء واليه الهداية ﴿واليه ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم ان خيراً فخير، وان شراً فشر

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿أم يقولون افتراه﴾ أنكر سبحانه عليهم قولهم ان ما أوحى الى نوح مفترى ثم أمره أن يجيب بكلام منصف فقال ﴿قل ان افتريته فعليَّ اجرامي﴾ بكسر الهمزة مصدر أجرم أي فعل ما يوجب الاثم وجرم واجرم بمعنى، قاله النحاس أي اكتسب الذنب وافتعله، والمعنى فعليّ اثمي أو جزاء كسبي، ومن قرأ بفتح الهمزة قال هو جمع جرم ذكره النحاس أيضاً.

قال قتادة: اجرامي أي عملي، والاجرام اكتساب السيئة واقترافها، يقال جرم جرماً أذنب والاسم منه الجرم بالضم والجريمة مثله، وأجرم هو الفاشي في الاستعمال، ويجوز جرم ثلاثياً، والمعنى ان كنت افتريته فعليّ عقاب جرمي، وان كنت صادقاً وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا انه حذفت هذه البقية لدلالة الكلام عليها، ولا يدل ذلك على انه كان شاكاً لأنه قول يقال على وجه الانكار عند اليأس من القبول ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ أي من اجرامكم بسبب ما تنسبون الى من الافتراء، قيل وفي الكلام حذف والتقدير لكن ما افتريته فالاجرام وعقابه ليس الا عليكم وأنا بريء منه.

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية فقيل انها حكاية عن نوح وما قاله لقومه، وقيل هي حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكفار مكة قاله مقاتل، فعلى هذا تكون الآية معترضة في قصة نوح والأول أولى، لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام.

﴿وأوحى الى نوح انه﴾ في محل رفع على أنه نائب الفاعل الذي لم يسم، ويجوز أن يكون في محل نصب بتقدير الباء أي بأنه ﴿لن يؤمن من قومك الا من قد آمن﴾ وفي الكلام تأييس له من ايمانهم وانهم مستمرون على كفرهم مصممون عليه لا يؤمن أحد منهم الا من قد سبق ايمانه، أو المراد الا من استعد للايمان وتوقع منه ولا يراد ظاهره، والا كان المعنى الا من آمن فإنه يؤمن

وقيل ان الاستثناء منقطع وهو على طريقة قوله ﴿الا ما قد سلف﴾ قال قتادة: وذلك حين دعا عليهم نوح قال ﴿لا تذر على الارض من الكافرين دياراً﴾ وعن الحسن قال: ان نوحاً لم يدع على قومه حتى نزلت الآية هذه فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ البؤس الحزن أي فلا تحزن عليهم، قاله ابن عباس والبائس المستكين، فنهاه الله سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين لأن الابتئاس حزن في استكانة، يقال ابتأس فلان اذا بلغه ما يكره والمبتئس الكاره الحزين.

ثم ان الله سبحانه لما أخبره انهم لا يؤمنون البتة عرفه الله هلاكهم وألهمه الأمر الذي يكون به خلاصة وخلاص من آمن معه فقال ﴿واصنع الفلك﴾ الظاهر أنه أمر ايجاب لأنه لا سبيل إلى صون روح نفسه وأرواح غيره من الهلاك إلا بهذا الطريق وصون النفس من الهلاك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أي اعمل السفينة متلبساً ﴿بأعيننا﴾ أي بمرأى منا وبأبصارنا لك وهو مجاز عن كلاء الله له بالحفظ وعبر بالأعين عن ذلك لأنها آلة الرؤية وهي التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب.

وقيل بعلمنا لك وجمع الأعين للمبالغة والتعظيم لا للتكثير، وقيل معناها بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك، وقيل بأمرنا، والحق ان العين صفة من صفاته لا ندري كيفيتها فيجب إمرارها على ظاهرها من دون

تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تقدير.

ومعنى ﴿ووحينا﴾ بما أوحينا اليك من كيفية صنعتها، وقال ابن عباس: بعين الله ووجهه ولم يعلم نوح كيف يصنع الفلك فأوحى الله اليه ان يصنعها مثل جؤجؤ الطائر.

﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ قيل هم امرأته وابنه أي لا تطلب إمهالهم وترك اهلاكهم أي لا تراجعني ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم فقد حان وقت الانتقام منهم ﴿انهم مغرقون﴾ تعليل لما قبله أي فانهم محكوم منا عليهم بالغرق وقد مضى به القضاء فلا سبيل الى دفعه ولا تأخيره، وقيل المعنى ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم فانهم مغرقون في الوقت المضروب لذلك لا يتأخر اغراقهم عنه.

﴿و﴾ طفق ﴿يصنع الفلك﴾ أو أخذ أو أقبل يصنعها فاقتصر على يصنع وقيل هو حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة، وأياً ما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الآتية الواقعة حالاً من ضميره، ومكث في صنع السفينة مائتي سنة ذكره الصاوي وقيل أربعمائة سنة ذكره أبو السعود، وقال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في سنتين وقيل ثلاثين سنة.

وكان طولها ثلثمائة ذراع وسمكها في السماء ثلاثين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً والذراع إلى المنكب، وكانت من خشب الساج لها ثلاثة بطون وأطباق سفلي ووسطى وعليا، وكان بابها في عرضها فحمل في أسفلها الدواب والوحش، وفي أوسطها الانس وفي أعلاها الطير، وقيل السفلى للوحش والوسطى للطعام والعليا له ولمن آمن، قال الخفاجي: والساج شجر عظيم يكثر بالهند، وقيل إنه ورد في التوراة انها من الصنوبر وقيل غير ذلك[1].

﴿وكلما مر عليه ملأ﴾ أي جماعة ﴿من قومه سخروا منه﴾ كل ظرفية وما

---

(١) ليس على ما أورده المفسر من دليل صريح عن المعصوم فلا داعي إلى مثله.

مصدرية ظرفية أي كل وقت مرور قوم استهزؤوا به لعمله السفينة، والجملة في محل نصب على الحال، قال الأخفش والكسائي: يقال سخرت به ومنه.

وفي وجه سخريتهم منه قولان ﴿أحدهما﴾ انهم كانوا يرونه يعمل السفينة فيقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً، وكان يصنعها في برية في أبعد موضع من الماء وفي وقت عزته عزة شديدة ﴿والثاني﴾ انهم لما شاهدوه يعمل السفينة وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وقالوا: يا نوح ما تصنع بها.

﴿قال﴾ أمشي بها على الماء فعجبوا من قوله وسخروا به ثم أجاب عليهم بقوله ﴿إن تسخروا منا﴾ وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال والمعنى ان تسخروا منا بسبب عملنا السفينة اليوم.

﴿فانا نسخر منكم﴾ غداً عند الغرق، ومعنى السخرية هنا الاستجهال أي ان تستجهلونا فانا نستجهلكم، وهذا على سبيل المشاكلة إذ السخرية لا تليق بمقام الأنبياء، وقيل انه لجزائهم من جنس صنيعهم فلا يقبح ﴿كما تسخرون﴾ أي تستجهلون واستجهاله لهم باعتبار اظهاره لهم ومشافهتهم وإلا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده والتشبيه لمجرد التحقيق والوقوع أو التجدد والتكرر.

والمعنى انا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك أو متجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك، وقيل معناه نسخر منكم في المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق وفيه نظر فان حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية إذ هم في شغل شاغل عنها ثم هددهم بقوله.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فسوف تعلمون من﴾ موصولة في محل نصب او استفهامية في محل رفع أي أينا ﴿يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي يهينه وهو عذاب الغرق في الدنيا، قاله ابن عباس: والمراد بعذاب الخزي العذاب الذي يخزي صاحبه ويحل عليه العار ﴿ويحل﴾ التلاوة بكسر الحاء ويجوز لغة ضمها كما في المصباح أي ينزل ﴿عليه عذاب مقيم﴾ في الآخرة وهو عذاب النار الدائم والخلود فيها.

وقيل معنى يحل يجعل المؤجل حالاً مأخوذ من حلول الدين المؤجل.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها ثم جعل يعمل منها سفينة ويمرون فيسألونه فيقول اعملها سفينة فيسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر وكيف تجري، قال سوف تعلمون، فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب الماء بها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي[١]، وقد ضعفه الذهبي في مستدركه على مستدرك الحاكم، وقد روي في صفة السفينة وقدرها أحاديث وآثار ليس في ذكرها هنا كثير فائدة.

---

(١) المستدرك كتاب التفسير /هود ٣٤٢/٢١.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ (٤٠) ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (٤١)

﴿حتى اذا جاء أمرنا﴾ حتى هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية وجعلت غاية لقوله ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾ وما بينهما اعتراض والمراد بالأمر العذاب أو وقته وهو واحد الأمور لا الأوامر ويصح أن يراد الثاني على معنى جاء أمرنا بركوب السفينة.

﴿وفار التنور﴾ أي غلى، واختلف في تفسير التنور على أقوال (الأول) انه وجه الأرض والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً أو اشرف موضع فيها؛ روى ذلك عن ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عيينة.

(الثاني) أنه تنور الخبز الذي يخبزون فيه ابتدىء منه النبع على خلاف العادة وبه قال مجاهد وعطية والحسن وهو قول أكثر المفسرين، قيل وهذا أولى لأن اللفظ اذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى، ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه (الثالث) انه موضع اجتماع الماء في

السفينة وروى هذا عن الحسن. (الرابع) انه طلوع الفجر من قولهم تنور الفجر، روي ذلك عن علي بن أبي طالب (الخامس) انه مسجد الكوفة، روي ذلك عن علي أيضاً ومجاهد، وقال مجاهد: كان ناحية التنور بالكوفة على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان الشعبي يحلف بالله أنه ما فار إلا من ناحية الكوفة. (السادس) أنه أعالي الأرض والمواضع المرتفعة قاله قتادة (السابع) انه العين التي بالجزيرة المسماة عين الوردة وهي بالشام، روي ذلك عن عكرمة، وبه قال مقاتل (الثامن) انه موضع بالهند، قال ابن عباس: كان تنور آدم

بالهند وكانت حواء تخبز فيه وصار إلى نوح.

قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض قال ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً﴾ فهذه الأقوال تجتمع في ان ذلك كان علامة هكذا، قال: وفيه نظر فإن القول الرابع ينافي هذا الجمع ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء إلا إذا كان المراد مجرد العلامة كما ذكره آخراً.

وقد ذكر أهل اللغة أن الفور الغليان، يقال فار الماء يفور فوراً نبع وجرى وفارت القدر فوراً من باب قال وفوراناً غلت، وعلى هذا لا تجوز في الآية إلا من حيث نسبة الفوران إلى التنور، وهو اسم أعجمي عربته العرب، وعلى هذا فلا اشتقاق له.

وقيل فارسي لا تعرف له العرب اسماً غير هذا فلذلك جاء في القرآن بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون، وقيل جاء هكذا بكل لفظ عربي وعجمي، وانه مما اتفق عليه لغة العرب والعجم كالصابون ووزنه تفعول ويعزى هذا لثعلب، وقيل فعول ويعزى لأبي على الفارسي، وقيل معنى فار التنور التمثيل بحضور العذاب كقولهم حمي الوطيس إذا اشتد الحرب، وعلى هذا فهو كناية عن اشتداد الأمر.

وقيل كان من حجر لحواء فصار إلى نوح، وقد روى في تفسير التنور غير هذا. ذكر ابن جرير وغيره إن الطوفان كان في ثالث عشر من أبيب رجب في شدة القيظ وكان الفوران علامة لنوح على مجيئه وركوب السفينة.

﴿قلنا﴾ يا نوح ﴿احمل فيها﴾ أي في السفينة ﴿من كل زوجين﴾ مما في الأرض من الحيوانات ﴿اثنين﴾ ذكراً وأنثى، وقرىء من كل بالتنوين أي من كل شيء زوجين، والزوجان للاثنين اللذين لا يستغني أحدهما عن الآخر،

ويطلق على كل واحد منهما زوج كما تقول للرجل زوجٍ وللمرأة زوج؛ وهو المراد هنا أي من كل فردين متزاوجين اثنين بأن تحمل من الطير ذكراً وأنثى ومن الغنم ذكراً وأنثى، وهكذا وتترك الباقي، والمراد من الحيوانات التي تنفع والتي تلد أو تبيض ليخرج المضرات، والتي تتوالد من العفونة والتراب كالدود والقمل والبق والبعوض فلم يحمل منه شيئاً.

ويطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلاً للفرد، ويطلق الزوج على الضرب والصنف ومنه قوله تعالى ﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾.

قال الرازي: وأما ما يروى أن إبليس دخل السفينة فبعيد لأنه من الجن، وهو جسم ناري أو هوائي فكيف يفر من الغرق، وأيضاً فإن كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح، فالأولى ترك الخوض فيه اهـ.

﴿و﴾ احمل ﴿أهلك﴾ والمراد امرأته المؤمنة وبنوه ونساؤهم ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ أي من تقدم الحكم عليه بأنه من المغرقين في علمه أو في قوله ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون﴾ على الاختلاف الشائع فيهم، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة احمل فيها وأهلك ومن قال المراد بهم ولده كنعان وامرأته الكافرة واعلة أم كنعان جعل الاستثناء من أهلك ويكون متصلاً إن أريد بالأهل ما هو أعم من المسلم والكافر منهم، ومنقطعاً إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط.

﴿و﴾ احمل ﴿من آمن﴾ من قومك في السفينة، وأفرد الأهل منهم لمزيد العناية بهم أو للاستثناء منهم على القول الآخر.

ثم وصف الله سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة الى من كفر به فقال ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ واعتبار المعية في إيمانهم للإيماء إلى المعية في مقر الأمان والنجاة، قيل كانوا ثمانية: نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم، وبه قال

قتادة وابن جرير ومحمد بن كعب القرظي، وقيل كانوا ثمانين رجلاً أحدهم جرهم، قاله ابن عباس. قال الخفاجي: وهي الرواية الصحيحة. اهـ.

ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين وهي موجودة بناحية الموصل، وقيل سبعة نوح وبنوه وثلاث كنائن له، قاله الاعمش، قال الخفاجي: ويرده عطف من آمن إلا أن يكون الأهل بمعنى الزوجة فإنه ثبت بهذا المعنى، وهو خلاف الظاهر، وقيل كانوا تسعة وسبعين: زوجته المسلمة وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ونساؤهم واثنان وسبعون رجلاً وامـرأة من غيرهم.

وعن ابن اسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة، وقيل غير ذلك، قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال عز وجل ﴿وما آمن معه الا قليل﴾ ولم يحد عدداً بمقدار، فلا ينبغي أن يجاوز في ذلك حد الله سبحانه وتعالى اذ لم يرد ذلك في كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وقال اركبوا فيها﴾ القائل نوح، وقيـل الله سبحانـه، والأول أولى لقوله: ﴿ان ربي لغفور رحيم﴾ والركوب العلو على ظهر الشيء المتحرك حقيقة نحو ركب الدابة أو مجازاً نحو ركبه الدين؛ وفي الكلام حذف أي اركبوا الماء في السفينة فلا يرد ان ركب يتعدى بنفسه.

وقيل ان الفائدة في زيادة «في» أنه أمرهم بأن يكونوا في جوف السفينة لا على ظهرها، وقيل بل أنها زيدت لرعاية جانب المحلية والمكانية في السفينة كما في قوله ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ وقوله ﴿حتى إذا ركبا في السفينة﴾.

قيل ولعل نوحاً قال هذه المقالة بعد ادخال ما أمر بحمله في الفلك من الازواج كأنه قيل فحمل الازواج وأدخلها في الفلك وقال للمؤمنين اركبوا فيها، ويمكن أن يقال أنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الازواج والاهل

والمؤمنين، ولا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات، أو يكون هذا على طريقة التغليب، وقد روى صفة القصة وما حمله نوح في السفينة وكيف كان الغرق. وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة لا مدخل لها في تفسير كلام الله سبحانه ﴿بسم الله﴾ متعلق باركبوا أو حال من فاعله أي اركبوا مسمين الله أو قائلين بسم الله ﴿مجريٰها ومرساها﴾ بضم الميم فيهما من أجريت وأرسيت على إنهما اسماً زمان وهما في موضع نصب على الظرفية أي وقت إجرائها وإرسائها أو مصدران كالاجراء والارساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسما مكان انتصبا بما في بسم الله من معنى الفعل أو إرادة القول.

وقرىء الأول بفتح الميم والثاني بضمها وهاتان القراءتان سبعيتان، وقرىء بفتحها فيهما من جرى ورسى، وهذه شاذة، وقرىء مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل على انهما وصفان لله، ويجوز أن يكونا في موضع رفع بإضمار مبتدأ أي هو مجريها ومرسيها، والرسو الثبات والاستقرار. قال مجاهد في الآية: أي حين تركبون وتجرون وترسون.

وعن الضحاك قال: كان اذا أراد أن ترسى قال: بسم الله فرست، وإذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت.

﴿ان ربي لغفور﴾ للذنوب ﴿رحيم﴾ بعباده ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلاً منه لبقاء هذا الجنس الحيواني وعدم استئصاله بالغرق.

أخرج أبو يعلى والطبراني وابن السني وغيرهم عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمان لأمتي من الغرق اذا ركبوا الفلك أن يقولوا بسم الله الملك الرحمن بسم الله مجراها الآية ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ الآية[1].

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ١٣٤٦ ـ تخريج الكلم ١٧٥ ـ الأحاديث الضعيفة ٢٩٣٢.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وهي تجري بهم﴾ أي فركبوا مسمين والسفينة تجري، والجملة مستأنفة أو حالية ولذلك فسره الزمخشري بقوله أي تجرى وهم فيها ﴿في موج﴾ جمع موجة وهي ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح واضطرابه في خلاله ﴿كالجبال﴾ شبهها بالجبال المرتفعة على الأرض، أي كل موجة منه كالجبل في تراكمها وارتفاعها وعظمها.

قال أهل السير: ارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعاً، وقيل خمسة عشر ذراعاً حتى أغرق كل شيء وعم العباد وشمل كل البلاد، وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه كالحوت فغير ثابت.

﴿ونادى نوح ابنه﴾ هو كنعان وقيل يام وكان كافراً؛ واستبعد كون نوح ينادي من كان كافراً مع قوله ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ وأجيب بأنه كان منافقاً فظن نوح أنه مؤمن، وقيل حملته شفقة الأبوه على ذلك وكان من صلبه على المعتمد.

وقال ابن عباس: هو ابنه غير أنه خالفه في النية والعمل، وقيل أنه كان ابن امرأته ولم يكن ابنه. ويؤيده ما روي أن علياً قرأ ﴿ونادى نوح ابنها﴾ وقيل أنه كان لغير رشدة وولد على فراش نوح، ورد بأن قوله هذا وقوله ﴿ان ابني من أهلي﴾ يدفع ذلك مع ما فيه من عدم صيانة منصب النبوة فإن جناب الأنبياء أرفع من أن يشار اليه بأصبع الطعن.

﴿وكان في معزل﴾ أي في مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح ﴿اركبوا فيها﴾ وقيل في معزل من دين الله وقيل من السفينة. قيل وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، بل كان في أول فور التنور قبل سير السفينة.

﴿يا بني﴾ أصله بثلاث ياءات ياء التصغير ولام الكلمة وياء المتكلم ﴿اركب معنا﴾ في السفينة أي أسلم واركب، قال ملا عليّ الجيلاني: الظاهر أن معنى الآية أسلم لتستحق الركوب معنا.

﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ في البعد عنا فتهلك معهم، نهاه عن الكون معهم خارج السفينة، ويمكن أن يراد بالكون معهم الكون على دينهم في الكفر، والأول أولى لأنه عليه السلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهي عن الكفر.

ثم حكى الله سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه فقال ﴿قال سآوي﴾ أي سألتجيء وأصير ﴿إلى جبل يعصمني﴾ أي يمنعني بارتفاعه وعلوه ﴿من﴾ وصول ﴿الماء﴾ إليّ زعماً منه أن ذلك كسائر المياه في أزمنة السيول المعتادة التي ربما يتقي منها بالصعود الى الربى، وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى، وجهلاً بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرة، وان لا محيص من ذلك سوى الالتجاء إلى ملجأ المؤمنين، فلذلك أراد عليه السلام أن يبين له حقيقة الحال، وأن يصرفه عن ذلك الفكر المحال.

﴿قال﴾ أي فأجاب عنه نوح بقوله ﴿لا عاصم﴾ من الجبال أي لا مانع ﴿اليوم من أمر الله﴾ فإنه يوم قد حق فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن، فيه نفي جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجاً أولياً، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره ﴿إلا من رحم﴾ وقرىء على البناء للمفعول والاستثناء منقطع قاله الزجاج أي لكن من رحمه فهو يعصمه واستظهره السفاقسي أو متصل على ان يكون عاصم

بمعنى معصوم أي لا معصوم اليوم من أمر الله الا من رحمه الله مثل ماء دافق وعيشة راضية، واختار هذا الوجه ابن جرير والزمخشري وتبعه القاضي.

وقيل العاصم بمعنى ذي العصمة كلابن وتامر، والتقدير لا عاصم قط إلا مكان من رحم الله وهو السفينة وحينئذ فلا يرد ما يقال ان معنى من رحم من رحمه الله ومن رحمه الله فهو معصوم، فكيف يصح استثناؤه عن العاصم لأن في كل وجه من هذه الوجوه دفعاً للاشكال.

وذكر صاحب الانتصاف ان الاحتمالات الممكنة هنا أربعة لا عاصم إلا راحم، لا معصوم إلا مرحوم، لا عاصم إلا مرحوم، لا معصوم إلا راحم، فالأولان استثناء من الجنس، والآخران استثناء من غير الجنس فيكون منقطعاً أي لكن المرحوم يعصم على الأول؛ ولكن الراحم يعضم من أراد على الثاني قال عكرمة: لا ناج إلا أهل السفينة.

﴿وحال بينهما الموج﴾ أي حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق وقيل بين ابن نوح وبين الجبل والأول أولى لأن تفرع ﴿فكان من المغرقين﴾ عليه يدل على الأول لا على الثاني لأن الجبل ليس بعاصم والمعنى فصار أو فكان كنعان من المغرقين في علم الله بالفعل والمهلكين بالماء.

﴿وقيل﴾ أي بعد ما تناهى الطوفان وأغرق الله قوم نوح والقيل كما قيل في هذين الموضعين عبارة عن تعلق القدرة التنجيزي بزوال الماء وبهلاكهم كما قيل في قوله تعالى ﴿أن يقول له كن فيكون﴾ وعلى هذا فالآية على الاستعارة المكنية والتخييلية وقيل تمثيلية، كما فصل ذلك الخفاجي في العناية تفصيلاً بسيطاً مع ما يصحبه من لطائف البلاغة.

ولكن الحق الذي لا تردد فيه عند أولي البصيرة ان الآية على حقيقتها من النداء والأمر وهو المختار في قوله سبحانه ﴿كن فيكون﴾ وأمثاله أيضاً.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿يا أرض ابلعي﴾ يقال بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع وبلع يبلع مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائي والفراء: والبلع الشرب وتغوير الماء ومنه البالوعة وهي الموضع الذي يشرب الماء والازدراد يقال بلع ما في فمه من الطعام إذا ازدرده، واستعير البلع الذي هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على ان ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج.

قال الخفاجي: النشف من نشف الثوب العرق كسمع وبصر إذا شربه، قال المدقق: هذا أولى من جعل السكاكي البلع مستعاراً لغور الماء في الأرض لدلالته على جذب الأرض ما عليها كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ولان النشف فعل الأرض والغور فعل الماء. فالله دره ما أكثر اطلاعه على حقائق المعاني اهـ.

وقال عكرمة: ابلعي هو بالحبشية ازدرديه وعن ابن منبه نحوه وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: معناه اشربي بلغة الهند وعن ابن عباس مثله.

أقول وثبوت لفظ البلع وما يشتق منه في لغة العرب ظاهر مكشوف فمالنا وللحبشة والهند والمعنى انشفي وتشربي ﴿ماءك﴾ أي ما على وجهك من ماء الطوفان؛دون المياه المعهودة فيها من العيون والانهار.وعبر عنه بالماء بعد ما عبر عنه بأمر الله، لأن المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل.

﴿وياسماء أقلعي﴾ الاقلاع الامساك يقال اقلع المطر إذا انقطع وأقلع عن

الشيء إذا تركه وهو قريب من الأول، والمعنى أمر السماء بامساك الماء عن الارسال، ولفظ أحمد المهايمي في تفسيره: أي اجذبي الى جهة الفوق ما نزل منك اهـ. وقيل ميز الله بين الماءين فما كان من ماء الارض أمرها فبلعته وصار ماء السماء بحاراً، وخوطبت الأرض أولاً بالبلع لأن الماء نبع منها أولاً قبل ان تمطر السماء.

﴿وغيض الماء﴾ أي نقص ونضب ما بين السماء والأرض من الماء يقال غاض الماء وغضته أنا وهو لازم ومتعد، فمن اللازم قوله تعالى ﴿وما تغيض الأرحام﴾ أي تنقص، وقيل بل هو هنا متعد أيضاً وسيأتي، ومن المتعدي هذه الآية لأنه لا يبنى للمفعول من غير واسطة حرف الجر الا المتعدي بنفسه وهو اخبار عن حصور المأمورية من السماء والأرض معاً أي فامتثلا ما أمرا به ونقص الماء، ولا يخص غيض الماء بطوفان السماء كما توهم، وفيه كلام طويل في الكشف، قال الصاوي: أي ولم يذهب بالكلية لما علمت من بقاء ماء السماء.

﴿وقضي الأمر﴾ أي أحكم وفرغ منه يعني أهلك الله قوم نوح على تمام واحكام وأنجز ما كان وعده، قاله القرطبي ﴿واستوت على الجودي﴾ أي استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودي، روى انه عليه السلام ركب في الفلك في عاشر رجب ونزل عنها في عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكراً فصار سنة، والجودي جبل بقرب الموصل.

وقيل ان الجودي اسم لكل جبل وقيل هو بالشام، وقيل بآمل وفي الحديث لقد بقي منها شيء ادركه أوائل هذه الامة ويقال انه من جبال الجنة فلذا استوت عليه بعد ان طافت الارض كلها ستة أشهر.

﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ القائل هو الله سبحانه ليناسب صدر الآية، وقيل هو نوح وأصحابه والمعنى وقيل هلاكاً لهم وهو من الكلمات التي تختص

بدعاء السوء، ووصفهم بالظلم للاشعار بأنه علة الهلاك وللايماء إلى قوله ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾.

قال عبد الرحمن بن خلدون: اتفقوا على ان الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ذهب بعمران الارض أجمع وبما كان من خراب المعمور وهلك الذين ركبوا معه في السفينة ولم يعقبوا فصار أهل الارض كلهم من نسله وعاد أباً ثانيا للخليقة انتهى.

وقال ابن الاثير في الكامل: واما المجوس فلا يعرفون الطوفان وكان بعضهم يقر به ويزعم انه كان في اقليم بابل وما قرب منه، وان مساكن ولد خومرت كانت بالمشرق فلم يصل ذلك اليهم، وكذلك جميع الامم المشرقية من الهند والفرس والصين لا يعترفون بالطوفان، وبعض الفرس يعترف به ويقول لم يكن عاماً ولم يتعد عقبة حلون.

والصحيح ان جميع أهل الارض من ولد نوح عليه السلام لقوله تعالى ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ فجميع الناس من ولد سام وحام ويافث أولاد نوح انتهى.

وقال المقريزي في الخطط: ان جميع أهل الشرائع أتباع الانبياء من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على ان نوحاً هو الاب الثاني للبشر، وان العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ومنه ذرأ الله جميع أولاد آدم، فليس أحد من بني آدم إلا وهو من أولاد نوح، وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك فأنكروا الطوفان.

وزعم بعضهم ان الطوفان انما حدث في اقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط وان أولاد كيومرت الذي هو عندهم الانسان الاول كانوا بالبلاد الشرقية من بابل فلم يصل الطوفان اليهم ولا إلى الهند والصين.

والحق ما عليه أهل الشرائع وان نوحاً عليه السلام لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة نزل بهم وهم ثمانون رجلاً سوى أولاده فماتوا بعد ذلك ولم يعقبوا، وصار العقب من نوح في أولاده الثلاثة، ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح. ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ انتهى.

وقد أطبق علماء البلاغة على ان هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة الى محل يتقاصر عن الوصف وتضعف عن الاتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة الثابتين الاقدام في علم البيان، الراسخين في اللغة المطلعين على ما هو مدون من خطب مصاقع خطباء العرب وأشعار بواقع شعرائهم المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها.

قال الصاوي وسليمان الجمل: قال بعضهم: هذه الآية ابلغ آية في القرآن باحتوائها على احد وعشرين نوعاً من أنواع البديع، والحال أن كلماتها تسعة عشر انتهى.

قلت: وقد تعرض لبيان ما اشتملت عليه من ذلك جماعة فأطالوا وأطابوا رحمنا الله واياهم برحمته الواسعة منهم أبو حيان محمد بن يوسف الامام الاندلسي في تفسيره المسمى بالنهر الماد من المحيط ذكر فيه أحداً وعشرين نوعاً من البديع وكذا السيد محمد بن اسماعيل بن صلاح الامير في رسالته المسماة بالنهر المورود، في تفسير آية هود، وهو المناسبة والمطابقة، والمجاز، والاستعارة، والاشارة والتمثيل، والارداف، والتعليل، وصحة التقسيم، والاحتراس، والايضاح، والمساواة، وحسن النسق، والايجاز، والتسهيم والتهذيب، وحسن البيان، والتمكين، والتجنيس، والمقابلة، والذم، والوصف.

وبسط في بيان هذه الأنواع أتم بسط وقال هذا كله نظراً في الاية من

جانب البلاغة، وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهى كما ترى نظم للمعاني لطيف سديد وتأدية لها ملخصة مبينة، لاتعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ولا التواء يشيك الطريق على المرتاد، بل ألفاظها تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها.

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية أصلية مستعملة جارية على قانون اللغة سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسة على الاسلات، كل منها كالماء في السلاسة وكالعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة. انتهى.

قلت: النظر في هذه الآية من أربع جهات:

(الأول) من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز وغيره كما تقدمت الاشارة اليه (والثاني) من جهة علم المعاني، وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها (والثالث والرابع) من جهة الفصاحة المعنوية واللفظية كما تقدم.

وقد ذكر طرفاً من هذه الجهات الأربع النسفي في المدارك، ثم قال: ومن ثم أطبق المعاندون، على أن طوق البشر قاصر عن الاتيان بمثل هذه الآية، ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لاتسع الحصر.

ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور فلعل المتروك أكثر من المسطور. اهـ.

قال القاضي: والآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها

والدلالة على كنه الحال مع الايجاز الخالي عن الاخلال. قال الخفاجي: هذه الآية حوت من البلاغة أمراً عجيباً ترقص الرؤوس له طرباً وما اشتملت عليه من الفصاحة والنكات مفصل في شرح المفتاح.

وقال أبو السعود: ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الاعجاز قاصيتها، وملكت من غرر المزايا ناصيتها، وقد تصدى لتفصيلها المهرة المتقنون، ولعمري إن ذلك فوق ما يصفه الواصفون، فحري بنا أن نوجز الكلام في هذا الباب ونفوّض الأمر الى تأمل أولي الألباب والله عنده علم الكتاب.

﴿ونادى نوح ربه﴾ أي دعاه، والظاهر أن هذا النداء كان قبل سيرها لأنه سؤال في نجاه ابنه ولا معنى للسؤال إلا عند إمكان النجاة، والمراد انه أراد دعاءه بدليل الفاء في قوله ﴿فقال رب ان ابني من أهلي﴾ وعطف الشيء على نفسه غير سائغ فلا بد من التقدير المذكور قاله الزمخشري. وقيل عطف تفسير أو تفصيل إذ القول المذكور هو عين النداء فهو مرتبط في المعنى بقوله ﴿ونادى نوح ابنه﴾ والمعنى انه من الأهل الذين وعدتني بتنجيتهم بقولك وأهلك.

فإن قيل كيف طلب نوح عليه السلام انجاز ما وعده الله بقوله ﴿وأهلك﴾ وهو المستثنى منه وترك ما يفيده الاستثناء وهو إلا من سبق عليه القول فيجاب بأنه لم يعلم اذ ذاك انه ممن سبق عليه القول فإنه كان يظنه من المؤمنين.

﴿وان وعدك الحق﴾ الصدق الذي لا خلف فيه وهذا منه ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ أي أتقن المتقنين لما يكون به الحكم فلا يتطرق الى حكمك نقض، وقيل أراد به أعلمهم وأعدلهم أي أنت أكثر علماً وعدلاً من ذوي الحكم، وقيل أن الحاكم بمعنى ذي الحكمة كدراع.

قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل في عموم الأهل وانه خارج بقيد الاستثناء ﴿قال يا نوح انه﴾ يعني هذا الابن الذي سألتني نجاته ﴿ليس من أهلك﴾ الذين آمنوا بك وتابعوك ومن أهل دينك، وان كان من أهلك باعتبار القرابة، قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر المفسرين: انه ابن نوح من صلبه وهو الصحيح.

وعن ابن عباس قال: ما بغت امرأة نبي قط، وان الله نص عليه بقوله ﴿ونادى نوح ابنه﴾ ونوح أيضاً نص عليه بقوله ﴿يابني﴾ ولا يجوز صرف الكلام عن الحق إلى المجاز من غير ضرورة.

وقيل المعنى إنه ليس من الذين وعدتك أن أنجيهم معك، وإنما خالف هذا الظاهر من خالفه لأنه استبعد أن يكون ولد نبي كافراً، وهذا خطأ ممن قاله لأن الله يخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم، فإن الله سبحانه قد أخرج قابيل من صلب آدم وهو نبي وكان كافراً. وأخرج إبراهيم: وهو نبي من صلب آزر وكان كافراً، فكذلك أخرج كنعان من صلب نوح وهو كافر، فهو المتصرف في خلقه كيف شاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة قرابة الدين لا قرابة النسب وحده فقال ﴿إنه عمل عير صالح﴾ قرأ الجمهور ﴿عمل﴾ على لفظ المصدر وقرىء على لفظ الفعل، ومعنى الأولى المبالغة في ذمه كأنه جعل نفس العمل وأصله ذو عمل غير صالح، كذا قال أبو

إسحق الزجاجي وأبو علي الفارسي وابن الانباري والواحدي، وعبارة الصاوي إن الضمير عائد الى الولد، ويقال في الاخبار عنه بعمل ما قيل في زيد عدل وهو الراجح. اهـ.

ومعنى الثانية ظاهر، أي انه عمل عملاً غير صالح، وهو كفره وعدم متابعته لأبيه. قاله أبو علي.

قال الصاوي: أشار السيوطي الى أن الضمير في (انه) عائد الى نوح على حذف مضاف، والمعنى قال الله له: يانوح ان سؤالك عمل غير مقبول. انتهى. ويؤيده ما قال ابن عباس: يقول مسألتك اياي يا نوح عمل غير صالح لا ارضاه لك.

ثم نهاه عن مثل هذا السؤال فقال ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ أي ما لا تعلم أصواب هو فتسأل عنه أم ليس كذلك فتتركه، وهو وان كان نهياً عاماً بحيث يشمل كل سؤال لا يعلم صاحبه ان حصول مطلوبه منه صواب فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولاً أولياً. وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الانسان مطابقته للشرع وسمى دعاءه سؤالاً لتضمنه معنى السؤال باعتبار استنجازه في شأن ولده.

﴿اني أعظك﴾ من ﴿أن تكون من الجاهلين﴾ أي أحذرك وأنهاك أن تكون جاهلاً فتسأل مثل ما يسألون كقوله يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً، وسمى سؤاله جهلاً لأن حب الولد شغله عن تذكر استثناء من سبق عليه القول منهم بالاهلاك قاله الكرخي.

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

وقيل المعنى أرفعك أن تكون منهم، قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها الى مقام العلماء العاملين. ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع وان دعاءه ناشيء عن وهم كان يتوهم بادر الى الاعتراف بالخطأ وطلب المغفرة والرحمة و﴿قال رب اني أعوذ بك﴾ أي ألجأ اليك وأعتذر من ﴿أن أسألك ما ليس لي به علم﴾ أي أطلب منك بعد ذلك ما لا علم لي بصحته وجوازه ﴿والا تغفر لي﴾ ذنب ما دعوت به على غير علم مني وجهلي واقدامي عليه ﴿وترحمني﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء فتقبل توبتي ﴿أكن من الخاسرين﴾ في أعمالي فلا أربح فيها.

وليس في الآية ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح سوى تأويله واقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه. وهذا ليس بذنب ولا معصية.

وقال الخطيب: أخطأ في ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم في الاكل من الشجرة فلم يصدر منه الا هذه الزلة.

﴿قيل يانوح﴾ القائل هو الله أو الملائكة ﴿اهبط﴾ أي أنزل من السفينة الى الارض أو من الجبل الى المنخفض منها فقد بلعت الارض ماءها وجفت ﴿بسلام منا﴾ أي بسلامة وأمن.

وقيل بتحية وعظمة كما قال ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ وذلك ان الغرق لما كان عاماً في جميع الأرض فعندما خرج من السفينة علم انه ليس في

الارض شيء ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف في انه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب، فلما قال الله ذلك زال عنه الخوف لأن السلامة لا تكون الا مع الأمن وسعة الرزق.

ثم أردفه الله تعالى بالبركة بقوله ﴿وبركات﴾ أي خيرات نامية ونعم ثابتة باقية دائمة في نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق والبركة مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته ومنه البركة لثبوت الماء فيها ﴿عليك﴾ وفي هذا الخطاب دليل على قبول توبته ومغفرة زلته وخلاصه من الخسران وإعلام وبشارة من الله تعالى بفيضان أنواع الخيرات عليه في كل ما يأتي وما يذر.

﴿وعلى أمم﴾ ناشئة وهم الْمُتَشَعّبُونَ ﴿ممن معك﴾ أي من ذرية من كان معك في السفينة وهي الأمم الى آخر الدهر؛ قيل الذين كانوا معه في السفينة لم يعقب أحد منهم إلا أولاد نوح الثلاثة، فانحصر النوع الانساني بعد نوح في ذريته ولذلك يقال انه آدم الصغير وقد كان بينه وبين آدم ألف سنة وثمانية أجداد.

فالمراد من هذه الآية تقسيم ذرية أولاد نوح الى فريق مؤمن وفريق كافر لا تقسيم من كان معه في السفينة إذ كانوا كلهم مؤمنين، قال أبو السعود: ويجوز ان تكون من بيانية أي وعلى أمم هم الذين معك، وانما سموا أمماً لأنهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة أو لأن جميع الامم انما تشعبت منهم، فحينئذ يكون المراد بالامم المشار اليهم في قوله ﴿وأمم سنمتعهم﴾ بعض الامم المتشعبة منهم وهي الامم الكافرة المتناسلة منهم الى يوم القيامة، ويبقى أمر الامم المؤمنة الناشئة منهم مبهماً غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك ففي دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء، لأن من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية أو ابتدائية فتأمل اهـ.

قيل أراد الله سبحانه بهذا الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمناً من ذريتهم وأراد بقوله وأمم سنمتعهم من صار كافراً من ذريتهم الى يوم القيامة، والتقدير ومنهم أمم أو يكون أمم، والمعنى سنمتعهم في الدنيا بما فيها من المتاع ونعطيهم منها ما يعيشون به ﴿ثم يمسهم منا﴾ في الآخرة أو في الدنيا ﴿عذاب أليم﴾ وعن الضحاك قال: وعلى أمم ممن معك يعني ممن لم يولد أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة، وأمم سنمتعهم يعني متاع الحياة الدنيا لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة.

قال محمد بن كعب القرظي: دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامه وعن ابن زيد: هبطوا والله راض عنهم، ثم أخرج منهم نسلاً منهم من رحم الله ومنهم من عذب، وقيل المراد بالأمم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب وبالعذاب ما نزل بهم، والى هنا انتهت قصة نوح عليه السلام.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١)﴾

﴿تلك﴾ أي قصة نوح وهو مبتدأ ﴿من أنباء الغيب﴾ خبره أي من جنسها والأنباء جمع نبأ وهوالخبر أي اخبار الغيب التي مرت بك في هذه السورة ﴿نوحيها﴾ أي القصة ﴿اليك﴾ خبر ثانٍ والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة.

﴿ما كنت﴾ يامحمد ﴿تعلمها أنت﴾ تفصيلاً خبر ثالث والا كانت مشهورة عند كل القرون لكن اجمالاً ﴿ولا﴾ يعلمها ﴿قومك﴾ يعني العرب بل هي مجهولة عندكم وفي ذكرهم تنبيه على انه لم يتعلمه اذا لم يخالط غيرهم وانهم مع كثرتهم لما لم يسمعوه فكيف بواحد منهم ﴿من قبل هذا﴾ أي الوحي أو القرآن أو من قبل هذا الوقت.

﴿فاصبر﴾ على ما تلاقيه من كفار زمانك كما صبر نوح على أذى قومه والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ﴿ان العاقبة﴾ المحمودة في الدنيا والآخرة ﴿للمتقين﴾ لله المؤمنين بما جاءت به رسله؛ وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتبشير له بأن الظفر للمتقين في عاقبة الأمر ولا اعتبار بمباديه.

﴿و﴾ أرسلنا ﴿الى عاد أخاهم هوداً﴾ أي واحداً منهم في النسب لا في الدين، وهود عطف بيان وقوم عاد كانوا عبدة أوثان وقد تقدم مثل هذا في الأعراف، وقيل هم عادان الأولى والأخرى، فهؤلاء هم عاد الأولى من ذرية سام

ابن نوح، وعاد الاخرى هم شداد ولقمان وقومهما المذكورون في قوله ﴿إرم ذات العماد﴾ وأصل عاد اسم رجل ثم صار اسماً للقبيلة كتميم وبكر ونحوهما وبين هود ونوح ثمانمائة سنة وعاش أربعمائة سنة وأربعاً وستين سنة.

﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ وحدوه ولا تشركوا معه شيئاً في العبادة ﴿مالكم من إلّه غيره﴾ في معنى العلة لما قبله قرىء غيره بالجر على اللفظ، وبالرفع على محل من إلّه، وبالنصب على الاستثناء ﴿إن أنتم﴾ أي ما أنتم باتخاذ إلّه غير الله وجعله شفيعاً ﴿إلا مفترون﴾ أي كاذبون على الله عزّ وجلّ.

ثم خاطبهم فقال ﴿ياقوم لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي لا أطلب منكم أجراً على الذي أبلغكم وأنصحكم به من الارشاد الى عبادة الله وحده وانه لا إله لكم سواه، فالضمير راجع الى مضمون هذا الكلام وخاطب بهذا كل نبي قومه ازاحة لما عسى أن يتوهموه وإمحاضاً للنصحية،فإنها ما دامت مشوبة بالمطامع فهي بمعزل عن التأثير، وقد تقدم معنى هذا في قصة نوح وقال هنا أجراً وهناك ما لا تفنناً أو لذكر الخزائن بعده هناك ولفظ المال بها أليق.

﴿ان أجري إلا على الذي فطرني﴾ أي ما أجري الذي أطلب إلا ممن خلقني فهو الذي يثيبني على ذلك ﴿أفلا تعقلون﴾ ان أجر الناصحين انما هو من رب العالمين.

وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾

ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة فقال ﴿وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه﴾ أي اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم بفعل الطاعة ثم توسلوا اليه بالتوبة وقد تقدم زيادة بيان لمثل هذا في قصة نوح ثم رغبهم في الايمان بالخير العاجل فقال ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي كثير الدرور أي السيلان والنزول والتتابع، والسماء المطر يقال درت السماء تدر فهي مدرار، ولم يؤنثه لأن المراد بالسماء المؤنثة السحاب أو المطر كما تقدم فذكر على المعنى أو ان مفعالاً للمبالغة فيستوي فيه المذكر والمؤنث أو ان الهاء حذفت من مفعال على طريق النسب قاله مكي.

وكان قوم هود أهل بساتين وزروع وعمارة وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن، عن الضحاك قال: أمسك الله القطر عن عاد ثلاث سنين فأجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم فقال لهم هود ﴿استغفروا﴾ الآية فأبوا إلا تمادياً.

﴿ويزدكم قوة الى قوتكم﴾ أي شدة مضافه إلى شدتكم أو خصباً إلى خصبكم أو عزاً إلى عزكم، قال الزجاج: قوة في النعم، وقال عكرمة: القوة الى القوة ولد الولد، وقيل كانت قد عقمت نساؤهم ثلاثين سنة لم تلد؛ وقيل قوة في الدين الى قوة الابدان.

﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم اليه وتقيموا على الكفر مصرين عليه والاجرام الاثام كما تقدم ثم أجابه قومه بما يدل على فرط جهالتهم وعظيم غباوتهم.

﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة﴾ أي بحجة واضحة نعمل عليها ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه عناداً وبعداً عن الحق والباء للتعدية أو للمصاحبة ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا﴾ التي نعبدها من دون الله ﴿عن قولك﴾ أي لأجله أو تركاً صادراً عنه، فعن على الأول للتعليل كما أشار اليه ابن عطية ولكن المختار الثاني ولم يذكر الزمخشري غيره.

﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ أي بمصدقين في شيء مما جئت به ﴿إن نقول الا اعتراك﴾ يقال عراه الأمر واعتراه اذا ألم به أي ما نقول الا أنه أصابك ﴿بعض آلهتنا﴾ التي تعيبها وتسفه رأينا في عبادتها ﴿بسوء﴾ بجنون حتى نشأ عنه ما تقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها والاستثناء مفرغ كما قال الزمخشري.

فأجابهم بما يدل على عدم مبالاته بهم وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه وأنهم لا يقدرون على شيء مما يريده به الكفار، بل الله سبحانه هو الضار النافع ﴿قال اني أشهد الله﴾ على نفسي ﴿واشهدوا﴾ أنتم أيضاً عليها ﴿أني بريء مما تشركون﴾ به ﴿من دونه﴾ أي من اشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطاناً ﴿فكيدوني جميعاً﴾ انتم وآلهتكم ان كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الاضرار بي وانها اعترتني بسوء ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي لا تمهلوني بل عاجلوني واصنعوا مابدا لكم واحتالوا في هلاكي.

وفي هذا من اظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التي يعبدونها ما يصك مسامعهم ويوضح عجزهم وعدم قدرتهم على شيء وهذا من معجزاته الباهرة.

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾

﴿اني توكلت على الله ربي وربكم﴾ فهو يعصمني من كيدكم وإن بلغتم في تطلب وجوه الاضرار بي كل مبلغ فمن توكل على الله كفاه.

ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض اليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم وانه مالك للجميع فقال ﴿ما من دابة﴾ تدب على الأرض ﴿الا هو آخذ بناصيتها﴾ أي ان ناصية كل دابة.

قال الرازي وهو بعيد لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ، ومدلول الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية، بل هو باق فكان القول بالنسخ باطلاً.

﴿ومنهم من يستمعون اليك﴾ بين الله سبحانه في هذا أن في أولئك الكفار من بلغت حاله في النفرة والعداوة الى هذا الحد وهي أنهم يستمعون الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة لعدم حصول أثر السماع وهو حصول القبول والعمل بما يسمعونه، وجمع الضمير في يستمعون حملاً على معنى من وأفرده في ومنهم من ينظر حملاً على لفظه، قيل والنكتة كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناظرين لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل

وانفصال الشعاع والنور الموافق لنور البصر، والتقدير في قولـه ومنهم من يستمعون ومنهم من ينظر ومنهم ناس يستمعون ومنهم بعض ينظر.

﴿أفأنت تسمع الصم﴾ الهمزة للانكار يعني أن هؤلاء وان استمعوا في الظاهر فهم صم والصمم مانع من سماعهم فكيف يطمع منهم في ذلك مع حصول المانع وهو الصمم، فكيف إذا انضم إلى ذلك ﴿لو كانوا لا يعقلون﴾ فان من كان اصم غير عاقل لا يفهم شيئاً ولا يسمع ما يقال له، والفاء عاطفة.

وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه ولذلك لا توصف به البهائم وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل السليم في تدبره، وعقولهم لما كانت مريضة بمعارضة الوهم ومتابعة الإلف والتقليد، تعذر إفهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق.

والكلام في ﴿ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون﴾ كالكلام فيما تقدم لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه في النظر، وقد انضم الى فقد البصر فقد البصيرة لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر، وكذلك الأصم ﴿وعصوا﴾ أي رؤساؤهم وسفلتهم ﴿رسله﴾ أي هوداً وحده لانه لم يكن في عصره رسول سواه، وإنما جمع هنا للتعظيم أو لأن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل.

وقيل إنهم عصوا هوداً ومن كان قبله من الرسل أو كانوا بحيث لو بعث الله اليهم رسلاً متعددين لكذبوهم ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ الجبار المتكبر والعنيد الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له ويتجاوز في الظلم.

قال أبو عبيدة: العنيد والعنود والعاند والمعاند هو المعارض بالخلاف منه، ومنه قيل للعرق الذي يتفجر بالدم عاند، وعن قتادة قال: عنيد مشرك، وقال السدي: العنيد المشاق.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

﴿واتبعوا﴾ أي جميعهم أوالسفلة والرؤساء ﴿في هذه الدنيا لعنة﴾ أي ألحقوها على لسان الانبياء، واللعنة هي الابعاد من الرحمة والطرد من الخير، والمعنى انها لازمة لهم لا تفارقهم ماداموا في الدنيا ﴿و﴾ اتبعوها ﴿يوم القيامة﴾ فلعنوا هنالك كما لعنوا في الدنيا.

قال السدي: لم يبعث نبي بعد عاد الا لعنت على لسانه، وقال قتادة: تتابعت عليهم لعنتان من الله، لعنة في الدنيا ولعنة في الاخرة.

﴿ألا ان عاداً كفروا ربهم﴾ قال الفراء: أي بنعمة ربهم، يقال كفرته وكفرت به مثل شكرته وشكرت له ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ أي لا زالوا مبعدين من رحمة الله، والبعد الهلاك والتباعد عن الخير، يقال بعد يبعد بعداً اذا تأخر وتباعد، وبعد يبعد بعداً اذا هلك، والمبالغة في التنصيص والتكرير بعبارتين مختلفتين تدل على تقوية التأكيد ونهاية التحقيق، وقد تقدم ان العرب تستعمله في الدعاء بالهلاك.

﴿و﴾ أرسلنا ﴿الى ثمود أخاهم صالحاً﴾ وهم سكان الحجر، فقوم هود عاد الاولى وقوم صالح عاد الثانية كما قال المحلي في سورة النجم، وقرأ الحسن ثمود بالتنوين في جميع المواضع، واختلف سائر القراء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع، فالصرف باعتبار التأويل بالحي والمنع بالقبيلة، وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان، وبين صالح وهود مائة سنة، وعاش صالح مائتي سنة

وثمانين سنة ومكانهم بين الشام والمدينة، وتقدم في الأعراف بسط قصتهم وقصة الناقة بأكثر مما هنا.

والكلام فيه وفي قوله ﴿قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ كما تقدم في قصة هود ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي ابتدأ خلقكم لأن كل بني آدم من صلب آدم وهو مخلوق منها فمن لابتداء الغاية، وقيل هي بمعنى في ﴿واستعمركم فيها﴾ أي جعلكم عمارها وسكانها من قولهم أعمر فلان فلاناً داره فهي له عمرى فيكون استفعل بمعنى افعل مثل استجاب بمعنى أجاب والسين والتاء زائدتان.

وقال الضحاك: معناه أطال عمركم، وكانت أعمارهم ثلثمائة إلى ألف سنة، وقيل معناه أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار. وقال ابن زيد: استخلفكم فيها.

﴿فاستغفروه﴾ أي سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام ﴿ثم توبوا اليه﴾ أي ارجعوا إلى عبادته ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ أي قريب الاجابة لمن دعاه، وقد تقدم القول فيه في البقرة عند قوله تعالى ﴿فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾.

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيداً مطاعاً ننتفع برأيك ونسعد بسيادتك لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد لأنه كان من قبيلتهم، وكان يعين ضعيفهم ويغني فقيرهم ﴿قبل هذا﴾ الذي أظهرته من ادعائك النبوة ودعوتك الى التوحيد، وقيل كان صالح يعيب آلهتهم وكانوا يرجون رجوعه الى دينهم فلما دعاهم إلى الله قالوا انقطع رجاؤنا منك.

والاستفهام في قوله: : ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ للانكار، أنكروا عليه هذا النهي، والمعنى ما كان يعبد آباؤنا فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا اليه﴾ من عبادة الله ﴿مريب﴾ موقع في الريبة من أربته فأنا أريبه اذا فعلت به فعلاً يوجب له الريبة، وهي قلق النفس وانتفاء

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

الطمأنينة أو من أراب الرجل اذا كان ذا ريبة، فالاسناد مجازى للمبالغة كجد جده، والظاهر انه على الأول مجازى أيضاً، والمعنى اننا مرتابون في عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان، والتنوين فيه وفي شك للتفخيم.

﴿قال يا قوم أرأيتم﴾ قال ابن عطية: هي من رؤية القلب، والشرط الذي بعده وجوابه يسد مسد مفعولين لأرأيتم. قال الشيخ: والذي تقرر أن أرأيت ضمن معنى أخبرني، وعلى تقدير ان لا يضمن فجعله الشرط والجواب لا تسد مسد مفعولي علمت.

﴿ان كنت على بينة من ربي﴾ أي حجة ظاهرة وبرهان صحيح ﴿وآتاني منه﴾ أي من جهته ﴿رحمة﴾ أي نبوة، وهذه الأمور وان كانت متحققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتباراً بحال المخاطبين لانهم في شك من ذلك كما وصفوه عن أنفسهم، وعبارة الشهاب انه من باب ارخاء العنان.

﴿فمن ينصرني من الله﴾ استفهام معناه النفي أي لا ناصر لي يمنعني من عذاب الله والنصرة مستعملة في لازم معناها وهو المنع ولذا عدي بمن ﴿ان عصيته﴾ في تبليغ الرسالة وراقبتكم وفترت عما يجب علي من البلاغ ﴿فما تزيدونني﴾ بتثبيطكم اياي ﴿غير تخسير﴾ بأن تجعلوني خاسراً بإبطال عملي وما منحني الله والتعرض لعقوبة الله لي، قال الفراء: أي تضليل وابعاد من الخير. وقيل المعنى فما تزيدونني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم، وقال مجاهد وعطاء الخراساني: ما تزدادون أنتم الا خساراً.

وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾

﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ أي معجزة ظاهرة، وقد مر تفسير هذه الآية في الاعراف، وانما قال هذه ناقة الله لانه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم. وقيل من صخرة صماء، والاضافة للتشريف كبيت الله وعبد الله ﴿فذروها﴾ أي فدعوها ﴿تأكل في أرض الله﴾ مما فيها من المراعي التي تأكلها الحيوانات وليس عليكم كلفة في مؤنتها، وهذا من تتمة إلـزامهم.

قال الكرخي: أي ترع نباتها وتشرب ماءها فهو من قبيل الاكتفاء نحو ﴿تقيكم الحر﴾ وجعل تأكل من عموم المجاز يحتاج الى قرينة صارفة.

﴿ولا تمسوها بسوء﴾ قال الفراء: بعقر، والظاهر أن النهي عما هو أعم من ذلك ﴿فيأخذكم﴾ ان قتلتموها ﴿عذاب قريب﴾ في الدنيا، جواب النهي أي قريب من عقرها وذلك ثلاثة أيام.

﴿فعقروها﴾ أي فلم يمتثلوا الأمر من صالح ولا النهي بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها وعقرها قدار وهو من اشقى الأشقياء ﴿فقال﴾ لهم صالح ﴿تمتعوا في داركم﴾ أي بالعيش في منازلكم أو بلادكم ومساكنكم فان العقاب نازل عليكم وعبر عن الحياة بالتمتع لأن الحي يكون متمتعاً بالحواس ﴿ثلاثة أيام﴾ ثم تهلكون قيل عقروها يوم الأربعاء فأقاموا الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد.

﴿ذلك﴾ أي التمتع ثلاثة أيام ﴿وعد غير مكذوب﴾ فيه، فحذف الجار اتساعاً أو من باب المجاز كأن الوعد إذا وفي به صدق ولم يكذب، ويجوز أن يكون مصدراً أي وعد غير كذب.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿فلما جاء أمرنا﴾ أي عذابنا أو أمرنا بوقوع العذاب ﴿نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة﴾ عظيمة ﴿منا﴾ قد تقدم تفسير هذا في قصة هود، والباء للسببية أو للمصاحبة وهي بالنسبة الى صالح النبوة وبالنسبة الى المؤمنين الايمان ﴿و﴾ نجيناهم ﴿من خزي يومئذ﴾ وهو هلاكهم بالصيحة، وسمي خزياً لأن فيه خزياً للكفار والخزي الذل والمهانة، وقيل من عذاب يوم القيامة والأول أولى ويومئذ بكسر الميم اعراباً وفتحها بناء لإضافته الى مبنى، قال السيوطي: وهو الاكثر أي في الاستعمال وإلا فهما قراءتان سبعيتان على السواء ﴿ان ربك هو القوي العزيز﴾ القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء والخطاب لرسول الله (ﷺ) والقصة تمت عند قوله يومئذ.

﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ أي في اليوم الرابع من عقر الناقة صيح بهم فماتوا وذكر الفعل لان الصيحة والصياح واحد مع كون التأنيث غير حقيقي والصيحة فعلة تدل على المرة من الصباح وهو الصوت الشديد يقال صاح يصيح صياحاً أي صوّت بقوة قيل صيحة جبريل وقيل صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا وتقدم في الأعراف فأخذتهم الرجفة قيل ولعلها وقعت عقب الصيحة.

﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ ميتين صرعى هلكى ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت، والجثوم كالركوب من البعير والفاعل جاثم وجثام مبالغ يقال جثم الطائر والأرنب يجثم.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠)﴾

﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي كأنهم لم يقيموا في بلادهم أو ديارهم ولم يعيشوا فيها ولم يعمروا ولم ينعموا، والتقدير مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم في مقام قط، يقال غنيت بالمكان إذا أتيته وأقمت فيه.

﴿ألا ان ثمود كفروا ربهم﴾ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة البيان وصرح بكفرهم مع كونه معلوماً تعليلاً للدعاء عليهم بقوله ﴿ألا بعداً لثمود﴾ بالصرف وتركه قراءتان سبعيتان على معنى الحي والقبيلة وقد تقدم تفسير هذه القصة في الاعراف بما يحتاج الى مراجعته ليضم ما في احدى القصتين من الفوائد إلى الاخرى.

﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم﴾ بسكون السين وضمها حيثما وقع مضافاً الى الضمير بخلاف ما إذا أضيف الى مظهر فليس فيه إلا ضمها، وهذا شروع في قصة ابراهيم لكنها مذكورة هنا توطئة لقصة لوط لا استقلالاً ولذا لم يذكرها على أسلوب ما قبلها وما بعدها فلم يقل وأرسلنا ابراهيم الى كذا، وعاش ابراهيم من العمر مائة وخمساً وسبعين سنة وبينه وبين نوح ألفا سنة وستمائة سنة وأربعون سنة، وابنه اسحاق عاش مائة وثمانين سنة ويعقوب بن اسحاق عاش مائة وخمساً وأربعين سنة، ولوط عليه السلام هو ابن أخي ابراهيم عليه السلام.

وكانت قرى قوم لوط بنواحي الشام وابراهيم ببلاد فلسطين فلما انزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده وكان كل من نزل عنده

يحسن قِراه وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذا البشارة الآتية فظنهم أضيافاً وهم جبريل وميكائيل واسرافيل، قاله عطاء، وقيل كانوا تسعة قاله الضحاك، وقيل احد عشر قاله السدي، وقيل اثني عشر قاله مقاتل، وقيل كان جبريل ومعه سبعة املاك، قاله محمد بن كعب القرظي والأول أولى لأن أقل الجمع ثلاثة.

﴿بالبشرى﴾ التي بشروه بها هي بشارته بالولد وقيل بإهلاك قوم لوط، والأول أولى ﴿قالوا سلاماً﴾ أي سلمنا عليك سلاماً وهذه تحيتهم التي وقعت منهم وهي لفظ سلاماً ﴿قال﴾ لهم ابراهيم ﴿سلام﴾ أي أمركم سلام أو عليكم سلام وهذه التحية الواقعة منه جواباً وهي لفظ سلام وحياهم بالجملة الاسمية في جواب تحيتهم بالفعلية ومن المعلوم ان الأولى أبلغ من الثانية فكانت تحيته أحسن من تحيتهم كما قال تعالى ﴿فحيوا بأحسن منها﴾.

﴿فما لبث﴾ أي ابراهيم ﴿ان جاء بعجل حنيذ﴾ قال أكثر النحاة «ان» هنا بمعنى حتى، وقيل التقدير فما لبث عن ان جاء أي ما ابطأ إبراهيم عن مجيئه بعجل، وما نافية قاله سيبويه، وقال الفراء: فما لبث مجيئه أي ما ابطأ مجيئه، وقيل ان ما موصولة والتقدير فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه والحنيذ المشوي مطلقاً.

وقيل المشوي بحرِّ الحجارة من غير أن تمسه النار، وهذا من فعل أهل البادية يقال حنذ الشاة يحنذها جعلها فوق حجارة محماة لينضجها فهي حنيذ وقيل هو سمين وقيل هو السميط، وقيل النضيج وهو فعيل بمعنى مفعول وإنما جاءهم بعجل لان البقر كانت أكثر أمواله.

﴿فلما رأى﴾ الرؤية بصريه أي أبصر ﴿أيديهم لا تصل اليه﴾ أي لا يمدونها إلى العجل المشوي كما يمد يده من يريد الاكل ﴿نكرهم﴾ يقال نكرته وأنكرته واستنكرته إذا وجدته على غير ما تعهد، ويقال أنكرت لما تراه بعينك

ونكرت لما تراه بقلبك، قيل وانما استنكر منهم ذلك لأن عادتهم ان الضيف إذا نزل بهم ولم يأكل من طعامهم ظنوا انه قد جاء بشر، ولم يأت بخير قاله قتادة.

وفي الذاريات ﴿قوم منكرون﴾ أي غرباء لا أعرفهم قال ذلك في نفسه كما قاله ابن عباس، وقيل انما انكر أمرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وقال أبو العالية: انكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض.

﴿وأوجس منهم﴾ أي أحس في نفسه ﴿خيفة﴾ أي خوفاً وفزعاً، وقيل معنى أوجس أضمر في نفسه، والأول ألصق بالمعنى اللغوي، والوجس هو رعب القلب والايجاس الادراك وقيل الاضمار، وفي السمين الايجاس حديث النفس وأصله من الدخول كأن الخوف داخله والوجيس ما يعتري النفس أوان الفزع ووجس في نفسه كذا أي خطر بها يجس وجساً ووجيساً وكأنه ظن انهم قد نزلوا به لأمر ينكره أو لتعذيب قومه.

﴿قالوا لا تخف﴾ قالوا له ذلك مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف بل أوجس ذلك في نفسه فلعلهم استدلوا على خوفه بأمارات كظهور أثره على وجهه أو قالوه له بعد ما قال عقب ما أوجس في نفسه من الخيفة قولاً يدل على الخوف كما في قوله في سورة الحجر ﴿قال إنا منكم وجلون﴾ ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما هنالك.

ثم عللوا نهيه عن الخوف بقولهم ﴿إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ خاصة ولوط أول من آمن بإبراهيم وأبوه هاران أخو إبراهيم، ويمكن ان يكون إبراهيم عليه السلام قد قال قولاً يكون هذا جواباً عنه كما قال: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا الى قوم مجرمين﴾.

وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

﴿وامرأته﴾ أي سارَّة زوجة ابراهيم وهي ابنة هرون بن ناحورا وهي ابنة عمّ ابراهيم ﴿قائمة﴾ قيل كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت واقفة قائمة تخدم الملائكة وهو جالس؛ والجملة مستأنفة أو حالية ﴿فضحكت﴾ الضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور، وأصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الاسنان عنده سميت مقدمات الاسنان الضواحك ويستعمل في السرور المجرد وفي التعجب المجرد أيضا وعليه أكثر المفسرين.

وقال مجاهد وعكرمة انه الحيض، والعرب تقول ضحكت الأرنب اذا حاضت وقد انكر بعض- اللغويين ان يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت، قال الراغب: وقول من قال حاضت ليس تفسيراً لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين وانما ذكر ذلك تنصيصاً لحالها فان ذلك أمارة لما بشرت به فحيضها في الوقت ليعلم ان حملها ليس بمنكر لأن المرأة ما دامت تحيض فانها تحمل.

قال الفراء: ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة، وقال الزجاج: ليس بشيء ضحكت بمعنى حاضت، وقال ابن الانباري: قد أنكر الفراء وأبو عبيده ان يكون ضحكت بمعنى حاضت، وقال في المحكم: ضحكت المرأة حاضت والأول أولى ولا مصير الى المجاز الا عند تعذر الحقيقة، وظاهر النص أنها ضحكت.

قال قتادة: ضحكت تعجباً مما فيه قوم لوط من الغفلة ومما أتاهم من العذاب، وقال السدي: ضحكت تعجباً من عدم أكلهم، وقال مقاتل والكلبي: ضحكت من خوف ابراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه

وخواصه. وقيل ضحكت من زوال الخوف عنها وعن إبراهم، حين قالوا لا تخف. وقيل ضحكت سرروا من البشارة.

وقال وهب: ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها. وقيل غير ذلك مما ليس في ذكره كثير فائدة والله أعلم مما ضحكت. وقال ابن عباس: حاضت وهي بنت ثمان وتسعين سنة. وعن مجاهد قال: وكان ابراهيم ابن مائة سنة.

﴿فبشرناها بإسحاق﴾ ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك، وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير، والمعنى فبشرناها فضحكت سروراً بالولد وولد إسحق بعد البشارة بسنة وكانت ولادته بعد اسماعيل بأربعة عشر سنة ﴿ومن وراء﴾ أي وهبنا لها من وراء ﴿اسحاق يعقوب﴾ وقرىء بجر يعقوب ومنعه الفراء وقرىء بالرفع على الابتداء وخبره الظرف الذي قبله وبالنصب وهما سبعيتان.

وقد وقع التبشير هنا لها ووقع لابراهيم في قوله تعالى ﴿وبشرناه بغلام حليم﴾ وبشروه بغلام عليم لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما، قال ابن عباس: هو ولد الولد أي فبشرت بأنها تعيش حتى ترى ولد الولد وقد رأته.

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

﴿قالت ياويلتا﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا قالت وهي لم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تقع كثيراً على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه، وأصل الويل الخزي، ثم شاع في كل أمر فظيع، والألف مبدلة من ياء الاضافة والاستفهام في قولها.

﴿أألد وأنا عجوز﴾ للتعجب، أي كيف ألد وأنا شيخة قد طعنت في السن يقال عجزت تعجز مخففاً ومثقلاً عجزاً وتعجيزاً أي طعنت في السن، ويقال عجوز وعجوزة، وأما عجزت بكسر الجيم فمعناه عظمت عجيزتها ﴿وهذا بعلي﴾ أي زوجي ابراهيم ﴿شيخاً﴾ لا تحبل من مثله النساء ونصبه على الحال والعامل فيه معنى اسم الاشارة.

ومثل هذه الحال من غوامض العربية اذ لا تجوز الا حيث يعرف الخبر، وقرىء بالرفع على انه خبر محذوف أي هو شيخ أو خبر بعد خبر أو هو الخبر، وبعلي بدل؛ وجوّز كونه عطف بيان، وكون شيخ تابعاً لبعلي أيضاً والبعل هو المستعلي على غيره، والزوج مستعل على المرأة قائم بأمرها فسمي بعلاً لذلك. قيل كان ابراهيم ابن مائة وعشرين سنة وهي بنت تسع وتسعين وقيل بنت تسعين وهذه المبشرة هي سارة امرأة ابراهيم، وقد كان ولد لابراهيم من هاجر أمته اسماعيل فتمنت سارة أن يكون لها ابن وأيست منه لكبر سنها فبشرها الله به على لسان ملائكته، وكانت بين الولادة والبشارة سنة.

﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ أي ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد مع كونها في هذه السن العالية التي لا يولد لمن كان في مثلها شيء يقضى منه العجب ولم تنكر قدرة الله.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾

﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر والاستفهام فيها للانكار، أي كيف تعجبين من قضاء الله وقدره وهو لا يستحيل عليه شيء. وقيل المعنى لا تعجبي من ذلك، وإنما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوة، ولا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه، ولهذا قالوا.

﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي الرحمة التي وسعت كل شيء واستتبعت كل خير، وانما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها، والبركات الخيرات النامية المتكاثرة في كل باب، التي من جملتها هبة الاولاد، والبركة هي النمو والزيادة؛ وقيل الرحمة النبوة والبركات الأسباط من بني اسرائيل لما فيهم من الانبياء وكلهم من ولد ابراهيم.

وانتصاب أهل البيت على المدح أو الاختصاص وبين النصبين فرق ذكره السمين، وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى الجمع لقصد التعميم، وقيل خطاب لها وله، وهذا على معنى الدعاء من الملائكة بالخير والبركة، وفيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته عن ابن عباس أنه كان ينهي عن أن يزاد في جواب التحية على قولهم عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ويتلو هذه الآية. وعن ابن عمر نحوه ﴿إنه حميد﴾ أي يفعل موجبات الحمد من عباده على سبيل الكثرة ﴿مجيد﴾ كثير الاحسان إلى عباده بما يفيضه اليهم من الخيرات. وقيل المجيد المنيع الذي لا يرام.

وقال الخطابي: المجيد الواسع الكريم وأصل المجد في كلامهم السعة، وقيل هو ذو الشرف والكرم والجملة تعليل لقوله رحمة الله وبركاته الخ.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فلما ذهب عن ابراهيم الروع﴾ أي الخيفة التي أوجسها في نفسه، يقال ارتاع من كذا إذا خاف. قال مجاهد: الروع الفرق وهو الخوف وقيل الفزع ﴿وجاءته البشرى﴾ أي بالولد أو بقولهم لا تخف ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ قال الأخفش والكسائي: إن يجادلنا في موضع جادلنا فيكون هو جواب لما، لما تقرر من أن جوابها يكون بالماضي لا بالمستقبل.

قال النحاس: جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضي مكان المستقبل في الشرط وقيل ان الجواب محذوف ويجادلنا في محل نصب على الحال قاله الفراء وتقديره فلما ذهب عنه الروح وجاءته البشرى اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا، أي يجادل رسلنا.

وقيل ان المعنى أخذ أو جعل يجادلنا ومجادلته لهم، قيل انه لما سمع قولهم إنا مهلكو أهل هذه القرية، قال: أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم قالوا: لا، قال: فأربعون، قالوا: لا، قال فعشرون: قالوا: لا، قال: فعشرة فخمسة، قالوا: لا، قال: فواحد؛ قالوا: لا، قال: ان فيها لوطاً، قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله. الآية.

وعن ابن عباس قال: لما جاءت الملائكة الى ابراهيم قالوا لابراهيم ان كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب، فهذا معنى مجادلته في قوم لوط، أي في شأنهم وأمرهم، وقيل معناه يكلمنا ويسألنا، لأن العبد لا يقدر أن يخاصم ربه وإن كان نبياً؛ ولهذا قال جمهور المفسرين معناه يجادل رسلنا.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

ثم أثنوا على ابراهيم أو أثنى الله عليه فقال ﴿ان ابراهيم لحليم﴾ أي ليس بعجول في الأمور ولا بموقع لها على غير ما ينبغي ﴿أوّاه﴾ أي كثير التأوه أو الرحيم ﴿منيب﴾ أي راجع الى الله، وقد تقدم في براءة الكلام على الاوّاه والمنيب هو المقبل الى طاعة الله. وقال قتادة: المنيب المخلص. وفي الآية ما يشير الى أن المراد بالمجادلة فيما تقدم مجادلة الرسل لا مجادلة الرب كما قاله الجمهور، والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقة قلبه وفرط رحمته، فطلب تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون، ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي.

﴿يا ابراهيم أعرض عن هذا﴾ هذا قول الملائكة له أي أعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال في أمر قد فرغ منه وجف به القلم وحق به القضاء ﴿انه قد جاء أمر ربك﴾ الضمير للشأن والمعنى مجيء عذابه الذي قدره عليهم وسبق به قضاؤه في أزله ﴿وانهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ أي لا يرده دعاء ولا جدال بل هو واقع بهم لا محالة ونازل بهم على كل حال ليس بمصروف ولا مدفوع.

﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً﴾ أي لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم وكان بين ابراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ، جاءوا الى لوط فلما رآهم لوط وكانوا في صورة غلمان حسان مرد ﴿سيء بهم﴾ أي ساءه مجيئهم اليه، يقال ساءه يسوؤه لأنهم جاءوه في صورة غلمان حسان مرد، فظن أنهم أناس، فخاف عليهم أن

يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم.

﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ قال الأزهري: الذرع يوضع موضع الطاقة، وأصله أن البعير يذرع بيده في سيره على قدر سعة خطوة أي يبسطها فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الأمر.

وقيل هو من ذرعه القيء اذا غلبه وضاق عن حبسه، والمعنى انه ضاق صدره لما رأى الملائكة في تلك الصورة خوفاً عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط ولم يجد مخلصاً.

قال ابن عباس. ساء ظناً بقومه وضاق ذرعاً بأضيافه، وقيل ضاق بهم قلباً وصدراً ولا يعرف أصله، ويقال ضاق فلان ذرعاً بكذا إذا وقع في مكروه ولا يطيق الخروج منه ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ أي شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أي شد به مأخوذ من العصابة التي يشد بها الرأس، يقال عصيب وعصيصب وعصوصب على التكثير أي يوم مكروه يجتمع فيه الشر، ومنه عصبة وعصابة أي مجتمعو الكلمة، ورجل معصوب أي مجتمع الخلق.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وجاءه قومه يهرعون اليه﴾ أي جاءوا لوطاً يسرعون اليه قاله قتادة، وقال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهـراع إلا إسراعـاً مع رعدة يقال أهرع الرجل إهـراعاً أي أسرع في رعدة من برد أو غضب أو حمى وقيل يهرولون قاله مجاهد، وقيل هو مشيٌ بين الهرولة والعدو، قاله الحسن وقال شمر: هو بين الهرولة والخبب والجمز.

والمعنى أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة في تلك الصورة أسرعوا اليه كأنما يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه ﴿ومن قبل﴾ أي ومن قبل مجيء الرسل ﴿كانوا يعملون السيئآت﴾ أي يأتون الرجال في أدبارهم وكانت ذلك عادتهم، فلا حياء عندهم منها فلما جاؤوا إلى لوط وقصدوا أضيافه لذلك العمل قام إليهم لوط مدافعاً.

﴿قال يا قوم﴾ خاطبهم بهذا الخطاب وهم من وراء الباب خارجـه ﴿هولاء بناتي﴾ أي تزوجوهن ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافي، وقد كان له ثلاث بنات وقيل ابنتان وكانوا يطلبون منه أن يزوجهم بهن فيمتنع لخبثهم لا لعدم كفاءتهم، وكان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجها بنتيه والمراد بالجمع ما فوق الواحد.

وقيل أراد بقوله هؤلاء بناتي النساء جملة،لأن نبي القوم أب لهم قاله ابن عباس وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير، قال الكرخي: وهذا القول أولى لأن

إقدام الانسان على عرض بناته على الأوباش والفجار مستبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بالأنبياء. وأيضاً فبناته لا تكفي الجمع العظيم أما بنات أمته ففيهن كفاية للكل انتهى.

لكن فيه مخالفة لظاهر النظم، وقيل كان في ملته يجوز تزوج الكافر بالمسلمة قال قتادة: المراد بناته لصلبه، وفي أضيافه ببناته، وقال الحسين بن الفضل: عرض بناته عليهم بشرط الإسلام، وقالت طائفة: أما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ولم يرد الحقيقة، وعن حذيفة بن اليمان قال: عرض عليهم بناته تزويجاً وأراد أن يقي أضيافه بتزويج بناته.

﴿هن أطهر لكم﴾ أي أحل وأنزه والتطهر التنزه عما لا يحل، وليس في صيغة أطهر دلالة على التفضيل، بل هي مثل ﴿الله أكبر﴾ وقرأ الحسن وعيسى ابن عمر بنصب أطهر، وقرأ الباقون بالرفع، ووجه النصب أن يكون اسم إشارة مبتدأ وخبره بناتي. وهن ضمير فصل، وأطهر حال، وقد منع الخليل وسيبويه والأخفش مثل هذا، لأن ضمير الفصل الذي يسمى عماداً إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتم الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ أي اتقوا الله بترك ما تريدون من الفاحشة بهم، ولا تذلوني وتجلبوا عليَّ العار في ضيفي، والضيف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة، لأنه في الأصل مصدر، ومنه قول الشاعر:

لا تعدمي الدهر شفار الجازر للضيف والضيف أحق زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع، والأول أكثر، يقال خزي الرجل خزاية: أي استحيا أو ذلّ أو هان. وخزي خزياً: إذا افتضح، ومعنى في ضيفي: في حق ضيفي، فخزي الضيف خزي للمضيف، ثم وبخهم فقال ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح ويمنعكم منه، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به،

وأرشدهم إليه بقولهم ﴿ما لنا في بناتك من حق﴾ أي ما لنـا فيهم من شهوة ولا حـاجة لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نـوع حق، ومعنى ما نسبـوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور وشـدة الشهوة إليهم، فهم من هـذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء، ويمكن أن يريدوا: أنهم لا حق لنا في نكاحهنّ، لأنه لا ينكحهنّ ولا يتزوجهنّ إلّا مؤمن ونحن لا نؤمن أبداً، وقيل إنهم كانوا قد خطبوا بنـاته من قبل فردهم، وكان من سنتهم أن من خطب فردّ فلا تحل المخطوبة أبداً؛ ﴿وإنـك لتعلم ما نريد﴾ من إتيان الـذكور، ثم إنـه لما علم تصميمهم عـلى الفاحشـة وأنهم لا يتركون ما قد طلبوه ﴿قال لو أن لي بكم قوة﴾ وجواب لو محذوف، والتقدير لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم، وهذا منه عليه السلام على طريق التمني: أي لو وجـدت معيناً وناصراً، فسمي مايتقوى بـه قوة ﴿أوآوي إلى ركن شـديد﴾ عـطف على مـا بعد لـو لما فيـه من معنى الفعل، والتقدير: لو قـويت على دفعكم أوآويت إلى ركن شـديد. وَقـرىء ﴿أوآويَ﴾ بـالنصب عطفـاً على قـوة كأنـه قال: لـو أن لي بكم قـوة أو إيـواء إلى ركن شديد، ومراده بالركن الرشيد: العشيرة، وما يمنع به عنهم هو ومن معه لأنه كان أولاً بالعراق مع إبراهيم فلما هاجر إلى الشام أرسله الله إلى أهل سدوم وهي قرية عند حمص.

قـال أبو هـريرة: مـا بعث الله نبياً بعـده الا في منعة من عشيـرتـه، وقيـل أراد بالقوة الولد وبالركن من ينصره من غير ولده، وقيل أراد بالقوة قوته في نفسه قال السدي: الى جند شديد لقاتلتكم.

وقد ثبت في البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يغفر الله للوط ان كان يأوي الى ركن شديد، وهو مروي في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة، وقال النووي: المراد بالركن الشديد هو الله عز وجل فانه أشد الأركان وأقواها وأمنعها اهـ. وهو يخالف ظاهر الآية والحديث المتقدم.

قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾

ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم ﴿قالوا يا لوط انا رسل ربك﴾ أخبروه أولاً انهم رسل ربه ثم بشروه بقولهم ﴿لن يصلوا اليك﴾ وهذه الجملة موضحة لما قبلها لأنهم اذا كانوا مرسلين من عند الله اليه لم يصل عدوه اليه بسوء ولم يقدروا عليه ثم أمروه ان يخرج عنهم فقالوا له.

﴿فأسر بأهلك﴾ قرىء بالوصل وبالقطع من اسرى وسرى وهما لغتان سبعيتان فصيحتان، قال تعالى ﴿والليل اذا يسر﴾ وقال ﴿سبحان الذي أسرى﴾ وهل هما بمعنى واحد أو بينهما فرق.

خلاف مشهور فقيل هما بمعنى واحد وهو قول أبي عبيد. وقيل ان أسرى للمسير من أول الليل وسرى للمسير من آخره وهو قول الليث، وأما سار فمختص بالنهار، وليس مقلوباً من سرى والباء للتعدية أو للمصاحبة والأهل هم بنتاه فلم يخرج من القرية الا هو وبنتاه فقط، وفي القرطبي: خرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل الى ابراهيم.

﴿بقطع﴾ أي مصاحبين بقطع ﴿من الليل﴾ القطع الطائفة منه، قال ابن الاعرابي: بساعة منه؛ وقال الأخفش: بجنح من الليل، وقال الضحاك: ببقية الليل وقال قتادة: بعد مضي أوله وقيل انه السحر الأول، وقيل بنصف منه لأنه قطعة منه مساوية لباقيه، وقيل بظلمة منه، وقيل بعد هدو من الليل، وقال

ابن عباس: بجوف الليل وبسواده.

وقيل ان الباء بمعنى في؛ وقد تقدم الكلام على القطع في يونس بأشبع من هذا وقيل ان السرى لا يكون إلا في الليل فما وجه زيادة بقطع من الليل؟ قيل لو لم يقله لجاز أن يكون في أوله قبل اجتماع الظلمة وليس ذلك بمراد.

﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي بقلبه إلى ما خلف أو لا ينظر إلى ما وراءه أو لا يشتغل بما خلفه من مال أو غيره، قيل وجه النهي عن الالتفات أن لا يروا عذاب قومهم وهول ما نزل بهم فيرحموهم ويرقوا لهم، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات فانه لا بد للملتفت من فترة في سيره، وقع فيه ضمير منكم للاهل فهو التفات فقوله لا يلتفت من تسمية النوع.

وهذا من بديع النكات وهو عند المتأخرين من أهل البديع أن يؤتى بشيء من البديع ويذكر اسمه على سبيل التورية، وتبجحوا باختراعه وانه قد وقع في القرآن في هذه الآية.

قال الخفاجي: ثم أني وجدت منه قوله تعالى ﴿من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ في سورة يوسف فإن ﴿فهو جزاؤه﴾ جزاء من الشرطية وقد ذكر انه جزاء ومنه قوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ إلى قوله: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ اهـ.

﴿الا امرأتك﴾ بالنصب سبعية والاستثناء من قوله فأسر بأهلك أي أسر بأهلك جميعاً إلا امرأتك فلا تسر بها لكونها كافرة، وأنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيدة، قال النحاس: الرفع على البدل له معنى صحيح أي لا يلتفت منكم أحد الا امرأتك فانها تلتفت وتهلك، وقيل أن الرفع على البدل من أحد ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف، فكأنه قال ولا

يتخلف منكم أحد الا امرأتك فانها تتخلف، والملجىء إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين.

﴿انه مصيبها ما أصابهم﴾ من العذاب وهو رميهم بالحجارة، والجملة تعليل للاستثناء ﴿إن موعدهم الصبح﴾ هذه الجملة تعليل لما تقدم من الأمر بالاسراء والنهي عن الالتفات، والمعنى ان موعد عذابهم أي وقت هلاكهم الصبح المسفر عن تلك الليلة، روي انه قال لهم متى موعد هلاكهم فقالوا هذه المقالة فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا ﴿أليس الصبح بقريب﴾ الهمزة للانكار التقريري على حد ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ والجملة تأكيد للتعليل ولعل جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن، والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم.

﴿فلما جاء أمرنا﴾ أي الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه أو المراد بالأمر نفس العذاب والأول أولى ﴿جعلنا عاليها﴾ أي عالي قرى قوم لوط ﴿سافلها﴾ والمعنى انه قلبها على هذه الهيئة وهي كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها وذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم:

قال مجاهد: لما أصبحوا غدا جبريل على قريتهم وقطعها من أركانها ثم أدخل جناحه ثم حملها على خوافي جناحه بما فيها ثم صعد بها الى السماء، حتى سمع أهل السماء صياح ديكهم ونباح كلابهم ثم قلبها فكان أول ما سقط منها سرادقها فلم يصب قوماً ما أصابهم.

ثم ان الله طمس على أعينهم ثم قلبت قريتهم وهي خمس مدائن أكبرها سدوم وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة يقال كان فيها أربعة آلاف ألف.

﴿وأمطرنا عليها﴾ أي على المدن حين رفعها جبريل أو على شذاذها وعلى من كان خارجاً عنها من مسافريها أو من بعد قلبها، قيل انه يقال امطرنا في

العذاب ومطرنا في الرحمة وقيل هما لغتان يقال مطرت السماء وأمطرت حكى ذلك الهروي.

﴿حجارة من سجيل﴾ هو الطين المتحجر بطبخ أو غيره، وقيل هو الشديد الصلب من الحجارة، وقيل هو الكثير، وقيل ان السجيل لفظة غير عربية أصله سنج وجيل وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسماً واحداً.

قال سعيد: معناه سنك كل فارسي معرب لأن العرب اذا تكلمت بشيء من الفارسي صار لغة للعرب ولا يضاف الى الفارسي مثل قوله سندس واستبرق، فكل هذه ألفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها في ألفاظهم فصارت عربية.

قال قتادة وعكرمة: هو الحجر والطين، دليله قوله تعالى في موضع آخر ﴿حجارة من طين﴾ وقال مجاهد: أولها حجر وآخرها طين. وقال الحسن: أصل الحجارة طين فشدت، وقال الضحاك: يعني الآجر. وقيل هو من لغة العرب. وذكر الهروي إن السجيل اسم لسماء الدنيا.

قال ابن عطية: وهذا ضعيف يرده وصفه بمنضود، وقيل هو بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض، وقيل هي جبال في السماء الدنيا. وقال الزجاج: هو من التسجيل لهم أي ما كتب لهم من العذاب فهو في معنى سجين، ومنه قوله تعالى ﴿وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم﴾ وقيل هو من أسجلته إذا أعطيته فكأنه عذاب أعطوه والأول أولى.

﴿منضود﴾ أي نضد بعضه فوق بعض، ومنه ﴿وطلح منضود﴾ أي متراكب والمراد وصف الحجارة بالكثرة. وقيل بعضه في إثر بعض، يقال نضدت المتاع إذا جعلت بعضه على بعض فهو منضود ونضيد أي متتابع أو مجموع معه العذاب نعت لسجيل.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

﴿مسوَّمة﴾ معلمة أي التي لها علامة حال من حجارة، وسوغ مجيئها من النكرة تخصيص النكرة بالوصف، والتسويم العلامة، قيل كان عليها أمثال الخواتيم. قاله الحسن والسدي، وقيل مكتوب على كل حجر اسم من رمى به، وقال الفراء: زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض فذلك تسويمها. قال ابن جريج: عليها سيماء لا تشاكل حجارة الأرض، وقال قتادة وعكرمة: عليها خطوط حمر على هيئة الجزع.

﴿عند ربك﴾ أي في خزائنه أو في حكمه والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿وما هي﴾ أي الحجارة الموصوفة، وقيل العقوبة المفهومة من السياق والأول أولى لأنه أقرب مذكور ﴿من الظالمين﴾ وهم قوم لوط ﴿ببعيد﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطر عليهم، وفيه وعيد لكل ظالم من الظلمة، ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل الضمير للقرى، أي هي قريبة من ظالمي مكة ممن كفر بالنبي (ﷺ) فإنها بين الشام والمدينة يمرون بها في أسفارهم وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو إجراء له على موصوف مذكر أي شيء بعيد أو مكان بعيد أو لكونه مصدراً كالزفير والصهيل، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث.

وعن مجاهد قال: يرهب بها قريشاً أن يصيبهم ما أصابهم. وعن السدي قال: من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها، وعن قتادة قال: من ظالمي هذه الأمة. وقد ذكر المفسرون روايات وقصصاً في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة وليس في ذكرها فائدة ولا سيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح. وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب وحالهم في الرواية معروف، وقد أمرنا بأن لا نصدقهم

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾

ولا نكذبهم فاعرف هذا فهو الوجه لحذفنا كثيراً من هذه الروايات الكائنة في قصص الانبياء وقومهم ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ هو اسم ابن ابراهيم الخليل ثم صار اسماً للقبيلة من أولاده وهو المراد هنا.

وقيل هو في الأصل اسم مدينة بناها مدين المذكور والتقدير إلى أهل مدين قال المقريزي في الخطط: إن مدين أمة شعيب هم بنو مديان بن ابراهيم وأمهم قنطورا ابنة يقطان الكنعانية ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم أمم، ومدين على بحر القلزم تحاذي تبوك على نحو ست مراحل، وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى لسائمة شعيب وعمل عليها بيت.

قال الفراء: مدين اسم بلد وقطر والجمهور على أن مدين أعجمي، وقيل عربي، فإن كان عربياً فإنه يحتمل أن يكون فعيلاً من مدن بالمكان أقام به وهو بناء نادر، وقيل مهمل أو مفعلاً من دان فتصحيحه شاذ وهو ممنوع الصرف على كل حال، سواء كان اسم الارض أو اسم القبيلة عجمياً أو عربياً اهـ. وبه قال النحاس وقد تقدم الكلام على هذا في الأعراف بأبسط مما هنا وهم قوم شعيب.

﴿أخاهم﴾ في النسب لأن ﴿شعيباً﴾ بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم عليه السلام، وقد تقدم تفسير قوله ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ في أول السورة، وهذه الجملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قال لهم

شعيب عليه السلام لما أرسله الله تعالى اليهم.

وقد كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الانبياء لحسن مراجعته لقومه، وهذه عادة الأنبياء عليه السلام يبدؤون بالأهم فالأهم.

ولما كان الدعوة الى توحيد الله وعبادته أهم الأشياء دعاهم اليه ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال والميزان لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف، وكان المعتاد منهم البخس في الكيل والوزن، وكانوا اذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، وكذلك إذا وصل اليهم الموزون أخذوا بوزن زائد، وإذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص فقال:

﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ أي لا عند الأخذ ولا عند الدفع، والنقص فيهما على وجهين كما قدمنا الاشارة اليه، والمراد بالمكيال المكيل به وبالميزان الموزون به، وهذا أبلغ في الأمر بوفائهما ﴿إني أراكم بخير﴾ أي بثروة وسعة في الرزق تغنيكم عن البخس فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والاضرار بعباده، وهذه النعمة حقها أن تتفضلوا على الناس شكراً عليها لا أن تنقصوا حقوقهم، وهو في الجملة علة النهي.

ثم ذكر بعد هذه العلة علة أخرى فقال ﴿واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ فهذه العلة فيها الإذكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الإذكار لهم بنعيم الدنيا، ووصف اليوم بالاحاطة والمراد العذاب لان العذاب واقع في اليوم، فهو مجاز في الاسناد كقولهم نهاره صائم، ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم انه لا يشذ منهم أحد عنه ولا يجدون منه ملجأً ولا مهرباً، واليوم هو يوم القيامة، وقيل هو يوم الانتقام منهم في الدنيا بالصيحة. قال ابن عباس: الخير رخص السعر والعذاب غلاء السعر.

وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

ثم أكد النهي عن نقص الكيل والوزن بقوله: ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ الإيفاء هو التمام والقسط العدل وهو عدم الزيادة والنقص، وإن كانت الزيادة على الإيفاء فضل وخير ولكنها فوق ما يفيده اسم العدل والنهي عن النقص وان كان يستلزم الإيفاء ففي تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن وشدة اهتمام فلذا كرر ليقوي الزجر والمنع من ذلك الفعل، والمعنى أتموهما ولا تطففوا فيهما، وقيل القسط تقويم لسان الميزان وتعديل المكيال. ثم زاد ذلك تأكيداً ثالثاً فقال ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ قد مر تفسير هذا في الأعراف وفيه النهي عن البخس على العموم والأشياء أعم مما يكال ويوزن فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن في هذا دخولاً أولياً، فظهر بهذا البيان فائدة هذا التكرير، وقيل البخس الكسر خاصة.

ثم قال ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ بتطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم، وقد مر أيضاً تفسيره في البقرة. والعثي في الأرض يشمل كل ما يقع فيها من الاضرار بالناس فيدخل فيه كل ما في السياق من نقص المكيال والميزان، وعثى مصدر قياسي وعثو سماعي وقيده بالحال وهو قوله ﴿مفسدين﴾ ليخرج ما كان صورته من العثي في الأرض، والمراد به الإصلاح كما وقع من الخضر في السفينة.

﴿بقية الله﴾ أي ما يبقيه لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط

﴿خير لكم﴾ أي أكثر خيراً وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد في الأرض، ذكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين، وقال مجاهد: بقية الله طاعته.

وقال الربيع: وصيته، وقال الفراء: مراقبته، وقال قتادة: حظكم من ربكم. وقال ابن عباس: رزق الله، وقيل ثوابه في الآخرة.

وبقيت ترسم التاء المجرورة؛ واذا وقف عليه اضطراراً يصح الوقف بالمجرورة والمربوطة، وليس في القرآن غيرها.

وإنما قيد ذلك بقوله ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر، والمراد بالمؤمنين هنا المصدقون لشعيب عليه السلام، وفي البيضاوي: بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أحفظكم من الوقوع في المعاصي من التطفيف والبخس وغيرهما وأحفظ عليكم أعمالكم وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها، وإنما أنا ناصح مبلغ، وقد أعذرت حين أنذرت؛ أو لست بحافظ عليكم نعم الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم.

﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا قالوا لشعيب عليه السلام والاستفهام للانكار عليه والاستهزاء به لأن الصلاة عندهم ليست من الخير الذي يقال لفاعله عند ارادة تليين قلبه وتذليل صعوبته كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لا يناسب الصواب أصدقتك أمرتك بهذا، وقيل المراد بالصلاة هنا القراءة قاله الأعمش، وقيل المراد بها الدين، وقيل المراد بها اتباعه، ومنه المصلي الذي يتلو السابق، قال الاحنف: ان شعيباً كان أكثر الانبياء صلاة فلذلك قالوا هذه المقالة وانما ذكر الصلاة لانها من أعظم شعائر الدين.

﴿أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ أي عبادة الاوثان وفيه ان الترك فعلهم لا فعل شعيب وهو المأمور والانسان يؤمر بفعل نفسه فالمضاف محذوف وهو التكليف

وهـذا فعله أي هل هي تـأمرك بتكليفـك إيانـا ترك عبـادة الأصنام، وهـذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة الله وحده.

وقـولهم ﴿أو أن نفعل في أمـوالنا مـا نشاء﴾ جـواب له عن أمـرهـم بإيفـاء الكيـل والـوزن ونهيهم عن نقصهـما وعن بخس النـاس، وعن العثي في الأرض معطوف على ما يعبد، فالترك مسلط عليـه، وأو بمعنى الواو، والمعنى هـل تأمـرك بتكليفـك لنا تـرك ان نفعل في أمـوالنا مـا نشـاء من الاخـذ والاعـطاء والـزيـادة والنقص، وهذا لف ونشر مرتب.

وقرىء بالتاء في الفعلين عطفاً على مفعول تأمـرك أي أصلاتـك تأمـرك ان تفعل أنت في أموالنا ما تشاء، وقرىء نفعل بالنون وما تشـاء بالفـوقية أي نفعـل فيها ما تشاء انت وندع ما نشاء نحن وما يجري به التراضي بيننا.

وعن ابن زيد في الآية قال: نهاهم عن قطع هذه الدنانير والـدراهم فقالـوا انما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء ان شئنا قطعناها وان شئنا أحـرقناهـا وان شئنا طرحناها، وعن محمد بن كعب وزيد بن أسلم وابن المسيب نحوه.

ثم وصفـوه بوصفـين عظيمـين فقالـوا ﴿انك لأنت الحليم الـرشيد﴾ عنـد نفسك وفي اعتقادك ومعناه ان هذا الذي نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما نعتقده في نفسك من الحلم والرشد، وقيل انهم قالوا ذلك لا على طـريق الاستهزاء بـل هو عندهم كذلك، وأنكروا عليه الأمر والنهي منـه لهم بما يخـالف الحلم والرشـد في اعتقادهم والمعنى انك فينا حليم رشيد فلا يحمد بك شق عصا قـومك ومخـالفتهم في دينهم.

وقال ابن عباس: يقـولون انـك لست بحليم ولا رشيد أي ارادوا السفيـه الغاوي لأن العرب قد تصف الشيء بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكـة مفازة؛ وقيل هو على حقيقتـه وانما قـالوا ذلـك على سبيـل السخريـة قال قتـادة: استهزاء به.

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾

﴿قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها، والمعنى اخبروني ان كنت على بيان وحجة واضحة وبصيرة وهداية من عند ربي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿ورزقني منه﴾ أي من فضله وخزائن ملكه ومن عنده وباعانته بلا كد مني ولا تعب في تحصيله ﴿رزقاً حسناً﴾ أي كثيراً واسعاً حلالاً طيباً وقد كان عليه السلام كثير المال والنعمة، وقيل أراد بالرزق النبوة وقيل الحكمة وقيل العلم وقيل التوفيق وقيل المعرفة وقيل الهداية.

وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره أأترك أمركم ونهيكم أو تقولون في شأني ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء أو هل يسعني مع هذه النعمة ان اخون في وحيه، وهذا الجواب شديد المطابقة بقولهم انك لأنت الحليم الرشيد أي كيف يليق بالحليم الرشيد ان يخالف أمر ربه وله عليه نعم كثيرة

﴿وما أريد﴾ بنهي لكم عن التطفيف والبخس ﴿ان اخالفكم الى ما أنهاكم﴾ نهيتكم ﴿عنه﴾ فأفعله دونكم يقال خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مول عنه وخالفته عن كذا في عكس ذلك، قال الزجاج: معناه لست انهاكم عن شيء وادخل فيه انما اختار لكم ما اختار لنفسي، قال ابن الانباري: بين ان الذي يدعوهم اليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو ما يرتضيه لنفسه ولا

ينطوي إلا عليه، فكان هذا محض النصح لهم، وقال قتـادة: لم اكن لأنهاكم عن أمر وأرتكبه.

﴿ان أريد﴾ أى ما أريد بالأمر والنهي ﴿إلا الاصلاح﴾ لكم ودفع الفساد عن دينكم ومعاملاتكم ﴿ما استطعت﴾ ما بلغت اليه استطاعتي وتمكنت منه طاقتي ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ أى ما صرت موفقاً هادياً نبياً مرشداً إلا بتأييد الله سبحانه وإقداري عليه ومنحي اياه ﴿عليه توكلت﴾ في جميع أمـوري التي منها أمـركم ونهيكم ﴿واليه أنيب﴾ أي اليه ارجع في كل ما نابني من الأمور وأفوض جميع أموري الى ما يختاره لي من قضائه وقدره وقيل معناه اليه أرجع في الآخرة وقيل ان الإنابة الدعاء ومعناه وله أدعو.

وعن علي قال: قلت يا رسول الله أوصني قال: قل الله ربي ثم استقم قلت ربي الله وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب، قال؛ ليهنك العلم يا أبا الحسن لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً، أخرجه أبو نعيم في الحلية وفي إسناده محمد بن يوسف الكديمي.

﴿ويـا قوم لا يجـرمنكم شقاقي﴾ قـال الزجـاج: معنـاه لا يكسبنكم والشقـاق العداوة، وقال قتادة: لا يحملنكم فراقي، وعن السدي: لا يحملنكم عداوتي، وعن مجـاهـد نحـوه ﴿ان يصيبكم﴾ مفعـول ثـان ليجـرمنكم أي أن لا يكسبنكم معاداتكم لي ان لا يصيبكم ﴿مثل ما أصاب قوم نوح﴾ من الغرق ﴿أو قوم هود﴾ من الريح ﴿أو قوم صالح﴾ من الحجارة وغيرها.

﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ يحتمل ان يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم أو ليسوا منكم ببعيد في السبب الموجب لعقوبتهم وهو مطلق الكفر وأفرد لفظ بعيد لمثل ما سبق، وقيل بشيء بعيد كذا قدره الزمخشري وتبعه الشيخ، وقال الزمخشري يجوز أن يستوي في بعيد وقريب وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي كالصهيل والنهيق ونحوهما، وقال قتادة: انما كانوا حديثي عهد قريب بهلاكهم بعد نوح وثمود.

وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾

ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة فقال ﴿واستغفروا ربكم﴾ من عبادة الأوثان ﴿ثم توبوا اليه﴾ من البخس والنقصان في المكيال والميزان وقد تقدم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه في أول السورة ﴿إن ربي رحيم﴾ بالمؤمنين ﴿ودود﴾ للتـائبين، وتقدم تفسير الرحيم والمراد هنا انه عظيم الرحمة، والودود المحب صيغة مبالغة من ود الشيء يودّ وداً ووداد أو ودادة أي أحبه وآثره.

قال في الصحاح: وددت الرجل أوده وداً إذا أحببته والود المحبة والمشهور وددت بكسر العين وسمع بفتحها والودود بمعنى فاعل أى يود عباده ويرحمهم، وقيل بمعنى مفعول بمعنى ان عباده يحبونه ويوادون أولياءه فهم بمنزلة المواد مجازاً، والأول أولى، والمعنى هنا انه يفعل بعباده فعل من هو بليغ المودة بمن يوده من اللطف به وسوق الخير اليه ودفع الشر عنه وفي هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار والتوبة.

وجملة ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ مستأنفة كالجمل السابقة والمعنى أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية كالبعث والنشور ولا نفهم ذلك كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة فيكون نفي الفقه على هذا حقيقة لا مجازاً.

وقيل قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه،وإيذاناً بقلة المبالاة به واحتقاراً لكلامه مع كونه مفهوماً لديهم معلوماً عندهم، فلا يكون نفي الفقه حقيقة بل مجازاً، يقال فقه يفقه إذا فهم فقهاً وفقهاً وحكى الكسائي فقهاناً ويقال فقه فقهاً إذا صار فقيهاً.

﴿وإنـا لنراك فينا ضعيفاً﴾ أى لا قوة لك تقدر بها على ان تمنع نفسك منا وتتمكن بها من مخالفتنا أو مهيناً لا عز لك، وهذا قريب من الأول، وقيل المراد انه ضعيف في بدنه قاله علي بن عيسى وقيل انه كان مصاباً ببصره، قال النحاس وحكى أهل اللغة ان حمير تقول للأعمى ضعيف أى قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له ضرير أى ضر بذهاب بصره، وقال الزجاج: الأعمى يسمى ضعيفاً.

عن سعيد بن جبير قال: كان أعمى، وإنما عمي من بكائه من حب الله عز وجل وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمي، أخرجه ابن عساكر والواحدي، قال السدي: معناه إنما أنت واحد، وقال علي: كان مكفوفاً فنسبوه الى الضعف، وقيل الضعيف العاجز عن الكسب والتصرف؛ وقـال الحسن ومقاتل: يعني ذليلاً والأول أولى ويدل لصحته قوله.

﴿ولولا رهطك﴾ رهط الرجل جماعته وعشيرته الذين يستند اليهم ويتقوى بهم، ومنه الراهط لحجر اليربوع لأنه يتوثق به ويخبأ فيه ولده، والرهط والراهط يقع على الثلاثة إلى العشرة، وقيل الى السبعة، قاله الزمخشري ولا يقع الرهط والعصبة والنفر إلا على الرجال ويجمع على أرهط وأرهط على أراهط وانما جعلوا رهطه مانعاً من إيقاع الضرر به مع كونهم في قلة، والكفار ألوف مؤلفة لأنهم كانوا على دينهم فتركوه احتراماً لهم لا خوفاً منهم وقال علي: فوالله الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم. ما هابوا إلا العشيرة.

﴿لرجمناك﴾ أى لقتلناك بالحجارة، والرجم بالحجارة أسوأ القتلات وأشرها وقيل معناه لشتمناك وأغلظنا لك القول والأول أظهر.

ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ أي كريم مكرم معظم حتى نكف عنك لأجل عزتك ومنعتك عندنا بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا لموافقتهم لنا في الدين لا لقوة شوكتهم.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾ مستأنفة وانما قال من الله ولم يقل مني لأن نفي العزة عنه واثباتها لقومه كما يدل عليه ايلاء الضمير حرف النفي استهانة به والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل، فقد تضمن كلامهم ان رهطه أعز عليهم من الله، فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام وفي هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفى.

والضمير في ﴿واتخذتموه﴾ راجع إلى الله سبحانه والمعنى واتخذتم الله عز وجل بسبب عدم اعتدادكم بنبيه الذي أرسله اليكم ﴿وراءكم ظهرياً﴾ أي منبوذاً وراء الظهر لا تبالون به، وقيل المعنى واتخذتم أمر الله الذي أمرني بإبلاغه اليكم وهو ما جئتكم به وراء ظهوركم كالشيء الملقى الذي لا يلتفت اليه.

يقال جعلت أمره بظهر إذا قصرت فيه، وظهرياً منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب، والقياس فتح الظاء كما قالوا في أمس إمسي بكسر الهمزة وفي دهر دهري بضم الدال، قال مجاهد: نبذتم أمره، وقال قتادة: لا تخافونه، وقال الضحاك: تهاونتم به، وقيل إن الضمير يعود إلى العصيان أي واتخذتم العصيان عوناً على عداوتي فالظهري على هذا بمعنى المعين المقوي ﴿إن ربي بما تعلمون محيط﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم، ولا أفعالكم فيجازيكم بها يوم القيامة.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ لما رأى اصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم وعدم تأثير الموعظة فيهم توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم ونهاية استطاعتهم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ تمكن.

﴿اني عامل﴾ على حسب ما يمكنني ويقدره الله لي ثم بالغ في التهديد والوعيد بقوله ﴿سوف تعلمون﴾ أينا الجاني على نفسه المخطىء في فعله وتعلمون عاقبة ما أنتم عليه من عبادة غير الله والاضرار بعباده، وقد تقدم مثله في الأنعام.

قال الزمخشري: وصل سوف تارة بالفاء وتارة بالاستئناف كما هو عادة البلغاء من العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف لأنه أكمل في باب الفصاحة والتهويل اهـ. يعني حذف الفاء هنا لأنه جواب سائل هو المسمى في علم البيان بالاستئناف البياني كأن كان قائلاً قال: فماذا يكون بعد ذلك فهو أبلغ في التهويل.

﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي سوف تعلمون من هو الذي يأتيه العذاب المخزي الذي يتأثر عنه الذل والفضيحة والعار ﴿ومن هو كاذب﴾ في زعمكم ومن هو المعذب، وفيه تعريض بكذبهم في قولهم لولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز.

وقيل التقدير من هو كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال أمره ﴿وارتقبوا اني معكم رقيب﴾ أي انتظروا اني معكم منتظر لما يقضي به الله بيننا.

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

﴿ولما جاء أمرنا﴾ بعذابهم أو عذابنا ﴿نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ لهم بسبب ايمانهم أو بهدايتهم للايمان ﴿وأخذت الذين ظلموا﴾ غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه وظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر ﴿الصيحة﴾ التي صاح بها جبريل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم، وفي الأعراف ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ وكذا في العنكبوت وقد قدمنا ان الرجفة الزلزلة وانها تكون تابعة للصيحة لتموج الهواء المفضي اليها، وهذا في أهل قريته واما أصحاب الايكة فأهلكوا بعذاب الظلة وهو نار نزلت من السماء أحرقتهم.

﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ ميتين باركين على الركب وقد تقدم تفسيره وتفسير ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ قريباً وكذا تفسير ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾

قال المهدوي: من ضم العين من بعدت فهي لغة تستعمل في الخير والشر، وبعدت بالكسر على قراءة الجمهور تستعمل في الشر خاصة وهي هنا بمعنى اللعنة وقيل بكسر العين بمعنى الهلاك وبضمها ضد القرب والمصدر البعد بفتح العين، والمعنى هلاكاً لهم كما هلكت ثمود والتشبيه من حيث ان هلاك كل بالصيحة.

قال ابن الأنباري: من العرب من يسوي بين الهلاك والبعد الذي هو ضد القرب قيل لم يعذب أمتان قط بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح، فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾

﴿ولقد أرسلنا موسى﴾ هذه سابعة قصص ذكرت في هذه السورة فتقدم قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط ومدين على هذا الترتيب وهذه قصة موسى ﴿بآياتنا﴾ أي بالتوراة حال كونه متلبساً بها ﴿وسلطان مبين﴾ أي المعجزات الباهرات.

وقيل المراد بالآيات هي التسع المذكورة في غير هذا الموضع منها ثمانية في الأعراف، والتاسعة في يونس.

وليس من الآيات المرادة هنا التوراة لأنها أنزلت بعد اغراق فرعون وقومه والسلطان العصا وهي وان كانت من التسع لكنها لما كانت أعظم الآيات وأبهرها للعقول وأشدها خرقاً للعادة أفردت بالذكر.

وقيل المراد بالآيات ما يفيد الظن، والسلطان ما يفيد القطع مما جاء به موسى وقيل هما جميعاً عبارة عن شيء واحد أي أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية وكونه سلطاناً بيناً، وقيل ان السلطان المبين ما أورده موسى على فرعون في المحاورة بينهما.

﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي أرسلناه بذلك إلى هؤلاء، وقد تقدم أن الملأ أشراف القوم وإنما خصهم بالذكر دون سائر القوم لأنهم اتباع لهم في الإصدار والإيراد وخص هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أي أمره لهم بالكفر لأن حال فرعون في الكفر أمر واضح إذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم إنما هو مستند إلى كفره.

ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه وطريقه فيعم الكفر وغيره ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أي ليس فيه رشد قط، بل هو غي وضلال، والرشيد بمعنى المرشد والاسناد مجازي، أو بمعنى ذي رشد، وفيه تعريض بأن الرشد في أمر موسى.

﴿يقدم قومه﴾ تعليل للنفي قبله من قدمه بمعنى تقدمه أي يصير متقدماً لهم ﴿يوم القيامة﴾ وسابقاً لهم الى عذاب النار كما كان يتقدمهم في الدنيا ﴿فأوردهم النار﴾ أي أنه لا يزال متقدماً لهم وهم يتبعونه حتى يوردهم النار في الآخرة. والورود الدخول وأورد ماض لفظاً مستقبل معنى لانه عطف على ما هو نص في الاستقبال.

وعبر بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه والهمزة في أورد للتعدية لأنه قبلها يتعدى لواحد، قال تعالى ﴿ولما ورد ماء مدين﴾.

وقيل بل هو ماض على حقيقته وهذا قد وقع وانفصل، وذلك انه اوردهم في الدنيا النار، قال تعالى ﴿النار يعرضون عليها﴾

وقيل أوردهم موجباتها وأسبابها، وفيه بعد لأجل العطف بالفاء قال قتادة: يمضي فرعون بين أيدي قومه حتى يهجم بهم على النار. قال الخفاجي: وأنزل لهم النار منزلة الماء فسمى اتيانها وروداً فالنار استعارة مكنية تهكمية للضد وهو الماء وإثبات الورود لها تخييل.

ثم ذم الورد الذي أوردهم اليه فقال ﴿وبئس الورد المورود﴾ أي المدخل المدخول فيه الذي وردوه لأن الوارد إلى الماء الذي يقال له الورد إنما يرده ليطفىء حر العطش ويذهب ظمأه، والنار على ضد ذلك، والورد يكون مصدراً بمعنى الورود فلا بد من حذف مضاف تقديره وبئس مكان الورد المورود وهو النار، وإنما احتيج الى هذا التقدير، لأن تصادق فاعل نعم وبئس ومخصوصهما شرط، فلا يقال نعم الرجل الفرس.

وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

ثم ذمهم بعد ذم المكان الذي يردونه فقال ﴿وأتبعوا﴾ أي أتبع قوم فرعون مطلقاً أو الملأ خاصة أو هم وفرعون ﴿في هذه﴾ الدنيا ﴿لعنة﴾ عظيمة أي طرداً وابعاداً من الأمم بعدهم ﴿و﴾ أتبعوا لعنة ﴿يوم القيامة﴾ يلعنهم أهل المحشر جميعاً، ثم انه جعل اللعنة رفداً لهم على طريقة التهكم فقال ﴿بئس الرفد المرفود﴾ أي العون المعان أو العطاء المعطى.

قال الكسائي وأبو عبيدة: رفدته أرفده رفداً أعنته وأعطيته، واسم العطية الرفد أي بئس العطاء والاعانة ما أعطوهم إياه وأعانوهم به والمخصوص بالذم محذوف أي رفدهم وهو اللعنة التي اتبعوها في الدنيا والآخرة كأنها لعنة بعد لعنة تمد الاخرى وتؤيدها.

وسميت اللعنة عوناً لأنها اذا تبعتهم في الدنيا أبعدتهم عن رحمة الله وأعانتهم على ما هم فيه من الضلال، وسميت رفداً أي عوناً لهذا المعنى على التهكم، والا فاللعنة إذلال لهم وانزال بهم الى الحضيض الاسفل، وسميت معاناً لانها أرفدت في الآخرة بلعنة أخرى لتكونا هاديتين الى طريق الجحيم.

وذكر الماوردي حكاية عن الاصمعي ان الرفد بالفتح القدح وبالكسر ما فيه من الشراب فكأنه ذم ما يستقونه في النار وهذا أنسب بالمقام، وقيل ان الرفد الزيادة، أي بئسما يرفدونه به بعد الغرق وهو الزيادة، قاله الكلبي: وأصل الرفد العون والعطاء والصلة، والارفاد أيضاً الاعطاء والاعانة. قال أبو السعود: وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام، وأصله ما يضاف الى غيره ليعمده.

﴿ذلك﴾ أي ما قصه الله سبحانه في هذه السورة من القصص السبعة ﴿من أنباء القرى﴾ أي من أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية وما فعلوه بأنبيائهم ﴿نقصه عليك﴾ أي هو مقصوص عليك لتخبر به قومك لعلهم يعتبروا، وقد تقدم تحقيق معنى القصص ﴿منها﴾ أي من القرى التي أهلكنا أهلها ﴿قائم وحصيد﴾ القائم ما كان قائماً على عروشه والحصيد ما لا أثر له.

وقيل القائم العامر والحصيد الخراب، وقيل القائم القرى الخاوية على عروشها والحصيد المستأصل بمعنى محصود، شبه ما بقي من آثار القرى بالزرع القائم على ساقه وشبه المقطوع والمعفو منها بالحصيد.

قال ابن عباس: يعني قرى عامرة وقرى خامدة، وقال قتادة: قائم يرى مكانه وحصيد لا يرى له أثر، وقال ابن جريج: قائم خاو على عروشه وحصيد ملصق بالأرض، والمعنى بعضها باق وبعضها عاف، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنه لما ذكر أنباء القرى اتجه لسائل أن يقول ما حال هذه القرى أباقية آثارها أم لا؟ ﴿وما ظلمناهم﴾ بما فعلنا بهم من العذاب والإهلاك ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف ما يوجبه من الكفر والمعاصي.

﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾ أي فما دفعت عنهم أصنامهم أو ما نفعت، قاله أبو عاصم ﴿التي يدعون﴾ يعبدونها ﴿من دون الله﴾ أي غيره ﴿من شيء﴾ أي شيئاً من العذاب،وبأس الله،ومن زائدة ﴿لما جاء﴾ أي حين جاء ﴿أمر ربك﴾ أي عذابه ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ أي هلاك وخسران. قال ابن عمر: أي هلكة وقال ابن زيد: أي تخسير، وقيل تدمير، والتتبيب اسم من تببه بالتشديد، وتبت يده تتب بالكسر خسرت كناية عن الهلاك وتباً له أي هلاكاً واستتب الأمر تهيأ ويستعمل لازماً ومتعدياً، يقال تببه غيره وتب هو بنفسه، والمعنى ما زادتهم أصنامهم التي يعبدونها إلا هلاكاً وخسراناً، وقد كانوا يعتقدون انها تعينهم على تحصيل المنافع ودفع المضار.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الأخذ ﴿أخذ ربك﴾ قرىء على انه فعل وعلى انه مصدر ﴿اذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ أي أهلها وهم ظالمون بالذنوب فلا يغني عنهم من أخذه شيء ﴿ان أخذه﴾ عقوبته للكافرين ﴿أليم شديد﴾ أي موجع غليظ على المأخوذ وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك﴾ الآية[1] ولا تظنن ان الآية حكمها مختص بظالمي الأمم الماضية بل هو عام في كل ظالم ويعضده الحديث.

﴿إن في ذلك﴾ أي أخذ الله سبحانه لأهل القرى أو في القصص السبعة التي قصها الله على رسوله ﴿لآية﴾ لعبرة وموعظة لأن القصص المذكورة فيها عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقد حصل الأول فيعلم العاقل أن القادر على إنزال الاول قادر على إنزال الثاني ﴿لمن خاف عذاب الآخرة﴾ لأنهم الذين يعتبرون بالعبر ويتعظون بالمواعظ. قال ابن زيد: يقول انا سوف نفي لهم بما وعدناهم في الآخرة كما وفينا للأنبياء إنا لننصرهم.

﴿ذلك﴾ أي يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة ﴿يوم مجموع له﴾ صفة ليوم جرت على غير من هي له فلذلك رفعت الظاهر وهو ﴿الناس﴾ من الأولين والآخرين للمحاسبة والمجازاة ﴿وذلك﴾ أي يوم القيامة ﴿يوم مشهود﴾ يشهده أهل المحشر، أو مشهود فيها الخلائق،أو يشهده أهل السماء والأرض فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول.

(١) مسلم ٢٥٨٣ ـ البخاري ٢٠١٣.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾

﴿وما نؤخره﴾ أي ذلك اليوم ﴿الا لأجل﴾ اللام للتعليل أي لانتهاء أجل أي وقت ﴿معدود﴾ معلوم بالعدد لا يعلمه الا الله وهو مدة الدنيا وقد عين سبحانه وقوع الجزاء بعده، وعبارة أبي السعود: الا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة.

﴿يوم﴾ حين ﴿يأت﴾ يوم القيامة وقيل الضمير لله تعالى كقوله الا أن يأتيهم الله أو يأتي ربك ﴿لا تكلم﴾ أي لا تتكلم فيه ﴿نفس﴾ بما ينفع وينجي من جواب ﴿الا بإذنه﴾ أي بما أذن لها من الكلام، وقيل لا تكلم بحجة ولا شفاعة الا بإذنه سبحانه لها في التكلم بذلك كقوله لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن، وقوله تعالى ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾.

وقد جمع بين هذا وبين قوله ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ وقوله إخباراً عن محاجة الكفار ﴿ربنا ما كنا مشركين﴾ وقوله ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة وقد تكرر مثل هذا الجمع في مواضع.

وقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة أنواع من البديع. الجمع في قوله لا تكلم نفس والتفريق في قوله فمنهم شقي وسعيد والتقسيم في قوله فأما الذين شقوا.

﴿فمنهم﴾ أي من الأنفس أو من أهل الموقف وان لم يذكروا قال الزمخشري: لأن ذلك معلوم ولأن قوله لا تكلم نفس يدل عليه وكذا قال ابن عطية ﴿شقي﴾ هو من كتبت عليه الشقاوة ﴿وسعيد﴾ أي من كتبت له السعادة وتقديم الشقي على السعيد لأن المقام مقام تحذير.

أخرج الترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت فمنهم شقي وسعيد قلت يا رسول الله فعلام نعمل على شيء قد فرغ منه أو على شيء لم يفرغ منه قال: بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الاقلام يا عمر ولكن كل ميسر لما خلق له[1]

وقد استدل بهذه الآية على ان أهل الموقف قسمان لا ثالث لهما وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقي قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته وسيآته أو لا حسنات لهم ولا سيآت كالمجانين والأطفال فهم تحت مشيئته يحكم فيهم بما شاء وتخصيص القسمين لا ينفي القسم الثالث.

﴿فأما الذين شقوا﴾ أي الذين سبقت لهم الشقاوة في علمه تعالى وهم الذين يموتون على الكفر وان تقدم منهم إيمان ﴿ففي النار﴾ أي فمستقرون فيها ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ قال الزجاج: الزفير من شدة الأنين وهو المرتفع جداً.

قال: وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين ان الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير والشهيق بمنزلة آخره، وقيل الزفير للحمار والشهيق للبغل، وقيل الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف، وقيل الزفير إخراج النفس والشهيق ردها، وقيل الزفير من الصدر والشهيق من الحلق.

وقيل الزفير ترديد النفس في الصدر من شدة الخوف حتى تنتفخ منه الاضلاع والشهيق النفس الطويل الممتد أو رد النفس الى الصدر والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه

وقال الليث: الزفير ان يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه والشهيق ان يخرج ذلك النفس وهو قريب من قولهم تنفس الصعداء، والجملة إما مستأنفة أو حالية.

---

(١) الترمذي كتاب القدر الباب الثالث.

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

﴿خالدين﴾ لابثين ﴿فيها﴾ أي في النار ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ ما مصدرية أي مدة دوامها في الدنيا وهذه المدة غير ما يزيده الله مما لا نهاية له ودامت هنا تامة لأنها بمعنى بقيت.

وقد اختلف العلماء في بيان معنى هذا التوقيت لأنه قد علم بالادلة القطعية تأبيد عذاب الكفار في النار وعدم انقطاعه عنهم.

وثبت أيضاً ان السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا فقالت طائفة: ان هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة في دوام الشيء قالوا هو دائم ما دامت السموات الأرض ومنه قولهم لا آتيك ما جن الليل وما اختلف الليل والنهار وما ناح الحمام ونحو ذلك فيكون المعنى انهم خالدون فيها أبداً لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له.

وقيل ان المراد سموات الآخرة وأرضها فقد ورد ما يدل على ان للآخرة سموات وأرضاً غير هذه الموجودة في الدنيا وهي دائمة بدوام دار الآخرة، وأيضاً لا بد لهم من موضع يقلهم وآخر يظلهم وهما أرض وسماء؛ قال ابن عباس: لكل جنة أرض وسماء؛ وروى نحوه عن السدي والحسن

﴿إلا ما شاء ربك﴾ قد اختلف أهل العلم في معنى هذا الاستثناء على أقوال.

الأول: انه من قوله ففي النار كأنه قال: الا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك روى هذا عن أبي سعيد الخدري.

الثاني: ان الاستثناء انما هو للعصاة من الموحدين وانهم يخرجون بعد مدة من النار وعلى هذا يكون قوله سبحانه ﴿فاما الذين شقوا﴾ عاماً في الكفرة

والعصاة ويكون الاستثناء من خالدين ويكون ما بمعنى من، وبهذا قال قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم.

قال البيضاوي: هو استثناء من الخلود في النار لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها وذلك كاف في صحة الاستثناء، لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض؛ وهم المرادون بالاستثناء الثاني فإنهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم، فإن التأبيد من مبدأ معين ينتقص باعتبار الابتداء كما ينتقص باعتبار الانتهاء، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم اهـ.

وقد ثبت بالأحاديث المتواترة-تواتراً يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد فكان ذلك مخصصاً لكل عموم.

الثالث: ان الاستثناء من الزفير والشهيق أي لهم فيها ذلك إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق، قاله ابن الانباري.

الرابع: أن معنى الاستثناء أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض لا يموتون فيها إلا ما شاء ربك، فإنه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا ثم يجدد الله خلقهم، روي ذلك عن ابن مسعود.

الخامس: ان إلا بمعنى سوى ولكن والاستثناء منقطع والمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود كأنه ذكر في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له حكاه الزجاج.

السادس: ما روي عن الفراء وابن الأنباري وابن قتيبة من ان هذا لا ينافي عدم المشيئة كقولك والله لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك، ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا المدة التي شاء الله فالمشيئة قد حصلت جزماً، وقد حكى هذا القول الزجاج أيضاً.

السابع: ان المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم في قبورهم وللحساب حكاه الزجاج أيضاً.

الثامن: ان المعنى خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لاهل الجحيم حكاه الزجاج أيضاً واختاره الحكيم الترمذي.

التاسع: ان إلا بمعنى الواو قاله الفراء والمعنى وما شاء ربك من الزيادة، قال مكي: وهذا القول بعيد عند البصريين ان يكون إلا بمعنى الواو.

العاشر: إن إلا بمعنى الكاف، والتقدير كما شاء ربك ومنه قوله تعالى ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ أي كما قد سلف.

الحادي عشر: ان هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذي ندب اليه الشارع في كل كلام فهو على حد قوله ﴿لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين﴾ قاله ابن عطية، وروى نحو هذا عن أبي عبيد، ولا يحتاج إلى أن يوصف بمتصل ولا منقطع.

وهذه الأقوال هي جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم، وقد نوقش بعضها بمناقشات ودفعت بدفوعات، وقد اوضح الشوكاني ذلك في رسالة مستقلة جمعها في جواب سؤال ورد من بعض الأعلام، قال السيوطي: وما تقدم من التأويل هو الذي ظهر وهو خال من التكلف، والله أعلم بمراده انتهى.

قال في الجمل: أي التفسير للاستثناء وحاصله ان إلا في المعنى بمعنى حرف العطف والاستثناء منقطع، فكأنه قيل ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ وزيادة على هذه المدة لا منتهى لها؛ وقوله هو الذي ظهر أي ظهر له اختياره من ثلاثة عشر وجهاً للمفسرين في هذا المقام وهو وجه حسن لأن فيه التأبيد بما يعلمه المخاطبون بالمشاهدة ويعترفون به وهو دوام الدنيا.

وأما التأبيد بدوام سموات الآخرة وأرضها كما قيل ففيه انه غير معلوم

للمخاطبين خصوصاً من ينكر البعث، وقد استوفى السمين الوجوه المذكورة، ولنقتصر على نقل بعضها لكونه أقرب من غيره انتهى.

ثم ذكر الوجه الثاني والخامس والحادي عشر كما مر.

وقال ابن حجر الهيتمي المكي في الزواجر عن اقتراف الكبائر: دلت الآيات والاحاديث على ان عذاب الكفار في جهنم دائم مؤبد، وما ورد مما يخالف ذلك يجب تأويله، فمن ذلك قوله تعالى ﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك ان ربك فعال لما يريد﴾ فظاهره ان مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والأرض إلا ماشاء الله من هذه المدة فلا يكونون فيه خالدين فيها.

وقد أوله العلماء بنحو عشرين وجهاً يرجع بعضها الى حكمة التقييد بمدة دوام السموات والارض، وبعضها إلى حكمة الاستثناء ومعناه، فمن الأول ان المراد سموات الجنة وأرضها إذ السماء كل ما علاك، والارض كل ما استقررت عليه، وكون الجنة والنار لهما سماء وأرض بهذا الاعتبار أمر قطعي لا يخفى على أحد، فاندفع التنظير في هذا القول بأنه لا يجوز حمل مافي الآية عليه لانه غير معروف للمخاطبين او سموات الدنيا وأرضها وأجرى ذلك على عادة العرب في الاخبار عن دوام الشيء وتأييده بذلك ونحوه كقولهم لا آتيك ما سال سيل وما جن ليل وما طما البحر، وما قام جبل، لأنه تعالى يخاطب العرب على عرفهم في كلامهم وهذه الالفاظ في عرفهم تفيد الابد والدوام.

وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش وان السموات والارض في الآخرة تردان إلى النور الذي خلقنا منه وهما دائمتان أبداً من نور العرش.

ثم هذا الجواب إنما يحتاج اليه بناء على ان مفهوم التقييد بدوام السموات والارض انهم لا يبقون في النار إلا بقدر مدة دوامها من حين

ايجادها إلى اعدامها، ومنع بعضهم ذلك بأن المفهوم من الآيـة انهما متى كانتا دائمتين كان كونهم في النار باقياً، وقضية ذلك انه كلما حصل الشرط وهو دوامهما حصل المشروط وهو بقاؤهم في النار، ولا يقتضي انه إذا عدم الشرط يعدم المشروط.

فاذا قلنا ما دامتا بقي عقابهم، ثم قلنا لكنهما دائمتان لزم دوام عقابهم أو لكنهما ما بقيتا لم يلزم عدم دوام عقابهم، لا يقال اذا دام عقابهم بقيتا أو عدمتا فلا فائدة للتقييد بدوامهما لأنا نقول بل فيه أعظم الفوائد وهو دلالته على بقاء ذلك العذاب دهراً دائماً طويلاً لا يحيط العقل بقدر طوله وامتداده.

فأما انه هل لذلك العذاب آخِر أم لا فذلك يحصل من أدلة أخرى، وهي الآيات المصرحة بتأييد خلودهم المستلزم انه لا آخر له، ومن الثاني انه استثناء من فيها لانهم يخرجون من النار الى الزمهرير والى شرب الحميم ثم يعودون فيها فهم خالدون فيها أبداً الا في تلك الاوقات فإنها وان كانت أوقات عذاب أيضاً الا انهم ليسوا حينئذ فيها حقيقة أو أن ما لمن يعقل كانكحوا ما طاب لكم من النساء وحينئذ فيكون استثناء لعصاة المؤمنين من ضمير خالدين متصلاً بناء على شمول شقوا لهم أو منقطعاً بناء على عدم شموله لهم وهو الأظهر، أو انه منقطع والا بمعنى سوى أي ما دامتا سوى ما شاء ربك زيادة على ذلك .

وبقيت اجوبة كثيرة اعرضت عنها لبعدها، ولا ينافي ذلك ما رواه أحمد عن عبد الله بن عمر وليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، لأن في سنده من قالوا فيه انه غير ثقة وصاحب أكاذيب كثيرة عظيمة.

نعم نقل غير واحد هذه المقالة عن ابن مسعود وأبي هريرة، قال شيخ الاسلام ابن تيمية وهو قول عمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود وأبي

هريرة وأنس واليه ذهب الحسن البصري وحماد بن سلمة، وبه قال علي بن طلحة الوالي وجماعة من المفسرين انتهى.

ويرد ما نقله عن الحسن قول غيره، قال العلماء: قال ثابت: سألت الحسن عن هذا فأنكره، والظاهر أن هؤلاء الذين ذكرهم لم يصح عنهم من ذلك شيء، وعلى التنزل فمعنى كلامهم كما قاله العلماء ليس فيها أحد من عصاة المؤمنين، أما مواضع الكفار فهي ممتلئة بهم لا يخرجون عنها أبداً كما ذكره الله في آيات كثيرة.

وفي تفسير الرازي قال قوم: ان عذاب الكفار منقطع وله نهاية، واستدلوا بهذه الآية وبـ «لابثين فيها أحقاباً»، وبأن معصية الظالم متناهية فالعقاب عليها بما لا يتناهى ظلم انتهى.

والجواب عن الآية وقوله تعالى أحقاباً لا يقتضي ان له نهاية لما مر أن العرب يعبرون به وبنحوه عن الدوام، ولا ظلم في ذلك لأن الكافر كان عازماً على الكفر ما دام حياً فعوقب دائماً فهو لم يعاقب بالدائم إلا على دائم، فلم يكن عذابه الا جزاء وفاقاً.

واعلم ان التقييد والاستثناء في أهل الجنة ليس المراد بهما ظاهرهما باتفاق الكل لقوله تعالى ﴿غير مجذوذ﴾ فيؤول بنظير ما مر،ويكون المراد بما اذا جعلناها بمعنى ﴿من﴾ أهل الاعراف عصاة المؤمنين الذين لم يدخلوها بعد.

قال ابن زيد: أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنة فقال: عطاء غير مجذوذ أي غير مقطوع ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار. انتهى كلام ابن حجر.

وفي الذي تحامل به على ابن تيمية نظر فقد اوضح البحث الحافظ ابن القيم رحمه الله في حادي الأرواح الى بلاد الأفراح مستوفياً بما له وعليه فمن شاء فليرجع اليه.

أخرج أبو الشيخ عن قتادة أنه تلا هذه الآية فقال حدثنا أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يخرج قوم من النار» ولا نقول كما قال أهل حروراء إن من دخلها بقي فيها.

وعن جابر قال: قرأ رسول الله صلى الله عايه وسلم هذه الآية فقال: إن شاء الله ان يخرج أناساً من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل، أخرجه ابن مردويه. وعن خالد بن معدان في الآية قال: إنها في ذوي التوحيد من أهل القبلة وعن جابر بن عبد الله أو أبي سعيد الخدري قال: هذه الآية قاضية على القرآن كله يقول حيث كان في القرآن خالدين فيها تأتي عليه، وعن ابن عباس في قوله ﴿إلا ماشاء ربك﴾ قال: فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء في النار، وأن يخلد هؤلاء في الجنة.

وعنه قال: استثنى الله من النار أن تأكلهم، وعن السدي في الآية قال: فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها، فأنزل بالمدينة «إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً» الى آخر الآية، فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها وأوجب لهم خلود الأبد.

وقوله: وأما الذين سعدوا؛ الآية، فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها، فأنزل بالمدينة «والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات ـ إلى قوله ـ ظلاً ظليلاً»، فأوجب لهم خلود الأبد.

وعن أبي نضرة قال: ينتهي القرآن كله الى هذه الآية، يعني ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ وفي المناوي الكبير على الجامع الصغير ما نصه:

تنبيه: ما ذكرته آنفا من أن عذاب الكفار في جهنم دائم أبداً هو ما دلت عليه الآيات والأخبار وأطبق عليه جمهور الأمة سلفاً وخلفاً، ووراء ذلك أقوال يجب تأويلها، فمنها ما ذهب اليه الشيخ محيي الدين بن عربي انهم

يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم، فإن الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل بالتجاوز، وقال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله، ولم يقل وعيده، بل قال ويتجاوز عن سيئآتهم مع انه توعد على ذلك وأثنى على اسماعيل بأنه كان صادق الوعد.

وقال في موضع آخر: ان أهـل النار اذا أدخلوها لا يزالون خائفين مترقبين أن يخرجوا منها فإذا أغلقت عليهم أبوابها اطمأنوا لأنها خلقت على وفق طباعهم قال الحافظ ابن القيم: وهذا في طرف أي جهة، والمعتزلة القائلون بأنه يجب على الله تعذيب من توعده بالعذاب في طرف آخر، فأولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها أبداً، والقولان مخالفان لما علم بالاضطرار أن الرسول جاء به وأخبر به عن الله.

ومنها قولُ جمعٍ: النارُ تفنى فإنه تعالى جعل لها أمداً تنتهي اليه ثم يزول عذابها لهذه الآية، وقوله تعالى ﴿لابثيـن فيها أحقاباً﴾ قال هؤلاء: وليس في القرآن دلالة على بقاء النار وعدم فنائها، انما الذي فيه ان الكفار خالدون فيها وانهم غير خارجين منها وانه لا يفتر عنهم عذابها وانهم لا يموتون، وان عذابهم فيها مقيم وانه غرام لازم، وهذا لا نزاع فيه من الصحابة والتابعين، انما النزاع في أمر آخر وهو أن النار أبدية أو مـما كتب عليه الفناء، وأما كون الكفار لا يخرجون منها ولا يدخلون الجنة فلم يختلف فيه أحد من أهل السنة.

وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله القول بفنائها عن جمع من الصحابة والتابعين، وقد نصر هذا القول ابن القيم كشيخه ابن تيمية وهو مذهب متروك وقول مهجور لا يصار اليه ولا يعول عليه، وقد أول ذلك كله الجمهور، وأجابوا عن الآيات المذكورة بنحو عشرين وجهاً وعما نقل أولئك الصحب بأن معناه ليس فيها أحد من عصاة المؤمنين، أما مواضع الكفار فهي ممتلئة منهم لا يخرجون عنها أبداً كما ذكر الله في آيات كثيرة، انتهى كلامه.

قلت وبالله التوفيق: أخرج ابن المنذر عن عمر قال: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه، وروى عبد بن حميد بإسناد رجالة ثقات عن عمر نحوه. وأخرج بن راهويه عن أبي هريرة قال: سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، وقرأ ﴿فأما الذين شقوا﴾.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابراهيم قال: ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية ﴿خالدين فيها﴾ الخ. قال: وقال ابن مسعود: ليأتين عليها زمان تخفق أبوابها، وروى أحمد عن ابن عمرو بن العاص: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، وحكاه البغوى وغيره عن أبي هريرة وغيره وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال: جهنم أسرع الدارين عمراناً وأسرعهما خراباً، وعن قتادة قال: الله أعلم بتثنيته على ما وقعت. وقد روى عن جماعة من السلف مثل ماذكره ابن مسعود وعمر وأبو هريرة كابن عباس وابن عمر وجابر وأبي سعيد من الصحابة. وعن أبي مجلز وعبد الرحمن بن زيد آبن أسلم وغيرهما من التابعين، وورد في ذلك حديث في معجم الطبراني الكبير عن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي وإسناده ضعيف.

وقد ثبت بذلك صحة ما نقله شيخ الاسلام ابن تيمية عن هؤلاء وانتصره الحافظ آبن القيم، ووضح وهن ما قاله ابن حجر والمناوي عليهما وإن كان لا شك في أن الراجح هو الأول . ولقد تكلم صاحب الكشاف في هذا الموضع بما كان له في تركه سعة وفي السكوت عنه غنى فقال:

ولا يخدعنك قول المجبرة ان المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوابت عن ابن عمرو: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد.

ثم قال: وأقول ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما علي بن ابي

طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث. ا هـ.

قال الشوكاني: وأقول أما الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار فالقائل بذلك يامسكين رسول الله (ﷺ) كما صح عنه في دواوين الإسلام التي هي دفاتر السنة المطهرة وكما صح عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر، فما لك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته وعملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة، وأي مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاءت به الأدلة الصحيحة الكثيرة كما ذهب الى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف.

وأما ما ظننته من أن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم فلا مناداة ولا مخالفة، وأي مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الأمة فالاستثناء الأول يحمل على معنى الا ما شاء ربك من خروج العصاة من هذه الامة من النار والاستثناء الثاني يحمل على معنى الا ما شاء ربك من عدم خلودهم في الجنة كما يخلد غيرهم، وذلك لتأخر دخولهم اليها مقدار المدة التي لبثوا فيها في النار وقد قال بهذا من أهل العلم من قدمنا ذكره، وبه قال ابن عباس حبر الأمة.

وأما الطعن على صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحافظ سنته وعابد الصحابة عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه فالى أين يا محمود أتدري ما صنعت، وفي أي واد وقعت، وعلى أي جنب سقطت، ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان وتتناول نجوم السماء بيدك القصيرة ورجلك العرجاء، أما كان لك في مِكسَرَي طِلبَتك من أهل النحو واللغة ما يردك عن الدخول فيما لا تعرف والتكلم بما لا تدري، فيالله العجب ما يفعل القصور في علم الرواية والبعد عن معرفتها الى أبعدّ مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وأما الذين سعدوا﴾ أي في علمه تعالى وهم الذين يموتون على الايمان وان تقدم منهم كفر أو غيره من المعاصي قرأ الكسائي وغيره سعدوا بضم السين وقرأ الباقون بفتحها، قال سيبويه: لا يقال سعد فلان كما لا يقال شقي فلان لكونه مما لا يتعدى، قال النحاس: ورأيت علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي بضم السين مع علمه بالعربية وهذا لحن لا يجوز.

قال السمين: قرأ الأخوان وحفص بضم السين والباقون بفتحها فالأولى من قولهم سعده الله أي أسعده حكى الفراء عن هذيل انها تقول كذلك، قال الأزهري: سعد فهو سعيد كسلم فهو سليم وسعد فهو مسعود، وقال أبو عمرو بن العلاء: يقال سعد الرجل كما يقال حسن، وقيل سعده لغة مهجورة وقد ضعف جماعة قراءة الأخوين، وفي المصباح: سعد فلان يسعد من باب تعب في دين أو دنيا سعداً وبالمصدر سمي ومنه سعد بن عبادة والفاعل سعيد والجمع سعداء ويعدى بالحركة في لغة فيقال سعده الله يسعده بفتحتين فهو مسعود، وقرىء في السبعة بهذه اللغة في هذه الآية بالبناء للمفعول والأكثر ان يتعدى بالهمزة فيقال أسعده الله وسعد بالضم خلاف شقي.

﴿ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ معنى الآية كما مر في قوله،وأما الذين شقوا ﴿الا ما شاء ربك﴾ من الزيادة التي لا منتهى لها فالمعنى خالدين فيها أبداً وقد عرف من الأقوال المتقدمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه ولا يستقيم الا على التأويل المذكور في الوجه الخامس والسابع وما بعده ﴿عطاء﴾ اسم مصدر والمصدر في الحقيقة الإعطاء أو يكون مصدراً

على حذف الزوائد كقوله أنبتكم من الأرض نباتاً أو منصوب بمقدر يقال عطوت بمعنى ناولت ﴿غير مجذوذ﴾ من جذه يجذه إذا قطعه وكسره والجذاذ بكسر الجيم ما تكسر منه والضم أفصح والجذاذات القراضات، والمعنى يعطيهم الله عطاء غير مقطوع يعني انه ممتد إلى غير نهاية.

قال القاضي: وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع وتنبيه على ان المراد من الاستثناء في الثواب ليس الانقطاع ولأجله فرق بين الثواب والعقاب في التأبيد انتهى، قال الخفاجي: وقع لبعضهم هنا ان النار ينقطع عذابها بخلاف نعيم أهل الجنة وأورد فيه حديثاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد تقدم، قال ابن الجوزي: انه موضوع وأشار لنحو منه الزمخشري إلا أنه تكلم في ابن عمرو كلاماً لا ينبغي ذكره انتهى.

وقد ثبت بالنصوص القاطعة ان لا وجود لذلك فيقدر الخلود، ولا يتوهم جواز التعارض بين هذه وبين النصوص الدالة على عدم الخلود لأن المحتمل لا يعارض القطعي.

ولما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة وبيان حال السعداء والأشقياء سلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرح أحوال الكفرة من قومه في ضمن النهي عن الامتراء فقال ﴿فلا تك﴾ حذف النون لكثرة الاستعمال ولأن النون إذا وقعت طرف الكلام لم يبق عند التلفظ بها إلا مجرد الغنة فلا جرم أسقطوها قاله الكرخي ﴿في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ أي ما يعبدونه غير نافع لهم ولا ضار ولا تأثير له في شيء والمرية الشك والاشارة بهؤلاء إلى كفار عصره صلى الله عليه وآله وسلم من قريش.

وقيل المعنى لا تك في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء من الاصنام، وقيل لا تك في شك من سوء عاقبتهم ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني

وهذا النهي له صلى الله عليه وسلم هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك فانه صلى الله عليه وسلم لا يشك في ذلك أبداً.

ثم بين له سبحانه بقوله ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم﴾ ان معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم وان عبادتهم كعبادة آبائهم ﴿من قبل﴾ وفي هذا الاستئناف تعليل للنهي عن الشك والمعنى انهم سواء في الشرك بالله وعبادة غيره فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك فهم كمن قبلهم من طوائف البشر وفي الخازن يعني انه ليس لهم في عبادة هذه الأصنام مستند إلا تقليد آبائهم انتهى. وجاء بالمضارع في كما يعبد لاستحضار الصورة.

ثم بين له انه مجازيهم بأعمالهم فقال ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم﴾ من العذاب ﴿غير منقوص﴾ لا ينقص ذلك شيء وانتصاب غير على الحال والتوفية لا تستلزم عدم النقص فقد يجوز ان يوفى وهو ناقص كما يجوز ان يوفى وهو كامل، قال القاضي كالزمخشري: فانك تقول وفيته حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازاً انتهى.

وأنت خبير بأنه إذا لم تكن قرينة المجاز قائمة كما في هذا المقام لا تكون الحال إلا للتأكيد لأن التوفية تقتضي الإكمال فقد استفيد معناها من عاملها وهو شأن المؤكدة وفائدته دفع توهم التجوز، قال بعضهم: وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصاً في حد نفسه مبني على الذهول عن كون العامل هو التوفية تأمل قاله الكرخي، وقيل المراد نصيبهم من الرزق وقيل ما هو أعم من الخير والشر.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة ﴿فاختلف فيه﴾ أي في شأنه وتفاصيل أحكامه فآمن به قوم وكفر به آخرون وعمل بأحكامه قوم وترك العمل ببعضها آخرون فلا يضيق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء في القرآن، وقيل في سببية أي هو سبب اختلافهم وقيل بمعنى على.

﴿ولولا كلمة﴾ الإنظار الى يوم القيامة أي الحكم الأزلي بتأخير عذابهم ﴿سبقت من ربك﴾ لما علم في ذلك من الصلاح ﴿لقضي بينهم﴾ أي بين قومك أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين فأثيب المحق وعذب المبطل وعذبوا في الحال وفرغ من عذابهم واهلاكهم والكلمة هي ان رحمته سبحانه سبقت غضبه فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك وقيل ان الكلمة هي انهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال وهذا من جملة التسلية له صلى الله عليه وسلم.

ثم وصفهم بأنهم في شك من الكتاب فقال ﴿وانهم لفي شك منه﴾ أي من القرآن ان حمل على قوم محمد صلى الله عليه وسلم أو من التوراة ان حمل على قوم موسى ﴿مريب﴾ موقع في الريبة من أراب إذا حصل الريب لغيره أو صار هو في نفسه ذا ريب ثم جمع الأولين والآخرين في حكم توفية العذاب لهم أو هو والثواب فقال:

﴿وان كُلاًّ﴾ أي كل الخلائق ﴿لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ أي جزاءها وفي ان وكُلاًّ ولما أقوال متخالفة هل ان مخففة أم مثقلة والتنوين في كُلاًّ مع النصب عوض عن المضاف اليه ونصبه بأن ولما خفيفة أم ثقيلة وهي بمعنى إلا أم لا.

وأحسن هذه الأقوال انها بمعنى الاستثنائية، وقد روي ذلك عن الخليل وسيبويه ورجحه الزجاج، وقرأ أبيّ ان كُلاًّ الا ليوفينهم وقرىء بالتنوين بمعنى جميعاً وبسط الكلام في ذلك في جمل، قال السمين: هذه الآية الكريمة مما تكلم الناس فيها قديماً وحديثاً وعسر على أكثرهم تلخيصها قراءة وتخريجاً وقد سهل الله تعالى ذلك فذكرت أقاويلهم وما هو الراجح منها فأقول:

قرأ بعضهم ان ولما مخففتين وبعضهم خفف ان وثقل لما وبعضهم شددهما وبعضهم شدد ان وخفف لما فهذه أربع قراآت في هذين الحرفين وكلها متواترة سبعية قال: والرابعة وهي تشديد إن وتخفيف لما فواضحة جداً وقرىء شاذاً وان كل بتخفيف ان ورفع كل ولما بالتشديد، وهي قراءة الحسن البصري وعليها فلما بمعنى إلا انتهى ملخصاً وقرىء أيضاً شاذاً قراآت أخر فلتراجع في السمين وغيره.

﴿انه بما تعملون﴾ أيها المختلفون ﴿خبير﴾ لا يخفي عليه منه شيء والجملة تعليل لما قبلها وفيه وعد للمحسنين المصدقين ووعيد للمكذبين الكافرين.

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال ﴿فاستقم كما أمرت﴾ أي كما أمرك الله فيدخل في ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه كما أمره بفعل ما تعبده بفعله. وأمته اسوته في ذلك.

قال قتادة: أمره ان يستقيم على أمره ولا يطغى في نعمته، وقال سفيان: استقم على القرآن، وعن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية قال: شمروا شمروا فما رئي ضاحكاً قال أبو السعود: وبالجملة فهذا الأمر منتظم لجميع محاسن الأحكام الأصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج عن عهدته في غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: شيبتني سورة هود[1].

﴿و﴾ ليستقم ﴿من تاب معك﴾ اي آمن ورجع عن الكفر الى الاسلام

وشاركك في الايمان وما أعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها فان الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الانفس المطهرة والذوات المقدسة ولهذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم شيبتني هود كما تقدم.

وعن سفيان الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: قل آمنت بالله ثم استقم[٢] أخرجه مسلم أقول هي تشمل العقائد والاعمال والاخلاق فانها في العقائد اجتناب التشبيه والتأويل والتعطيل والصرف عن الظاهر وفي الاعمال الاحتراز عن الزيادة والنقصان والبدع والمحدثات والتغيير للكتاب والتبديل للسنن والتقليد للرجال وللآراء وفي الاخلاق التباعد عن طرفي الافراط والتفريط وهذا في غاية العسر وبالله التوفيق وهو المستعان.

﴿ولا تطغوا﴾ الطغيان مجاوزة الحد لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين ان الغلو في العبادة والافراط في الطاعة على وجه يخرج به عن الحد الذي حده والمقدار الذي قدره ممنوع منه منهى عنه وذلك كمن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل ولا ينام ويترك الحلال الذي أذن الله به ورغب فيه ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه: اما انا فأصوم وافطر واقوم وانام وانكح النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني[٣]، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأمته تغليباً لحالهم على حاله أو النهي عن الطغيان خاص بالأمة.

قال ابن عباس: لا تطغوا لا تظلموا، وقال العلاء بن عبد الله: لم يرد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إنما عنى الذين يجيئون من بعدهم، وعن ابن زيد الطغيان خلاف أمره وارتكاب معصيته ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ يجازيكم على حسب ما تستحقون، والجملة تعليل لما قبلها، قيل ما نزلت آية على رسول الله صلّى الله عليه وسلم هي أشد عليه من هذه الآية.

---

(١) الترمذي، تفسير سورة، ٦/٥٦.
(٢) مسلم، ٣٨.
(٣) النسائي، كتاب النكاح، باب ٤.

وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا﴾ قريء بفتح الكاف وضمها وهي لغة تميم وقيس والاول لغة أهل الحجاز، قال أبو عمرو: ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف، وهم يكسرون حرف المضارعة في كل ما كان من باب علم يعلم، قال الأزهري: وليست بالفصيحة وركن يركن بفتحتين وليست بالأصل، بل من تداخل اللغتين.

وقال الراغب: والصحيح إنه يقال بالفتح فيهما وبالكسر في الماضي والفتح في المضارع؛ وبالفتح في الماضي والضم في المضارع، وقريء على البناء للمفعول من أركنه، وقال في الصحاح: ركن اليه يركن بالضم، وحكى أبو زيد: ركن اليه بالكسر يركن ركوناً فيهما، أي مال اليه وسكن، قال الله تعالى ﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا﴾ وأما بالفتح فيهما فإنما هو على الجمع بين اللغتين. اهـ.

وقال في شمس العلوم: الركون السكون، وقال في القاموس: ركن اليه كنصر وعلم ومنع ركوناً مال وسكن. اهـ، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث قال: فإن الركون هو الميل اليسير.

وهكذا فسره المفسرون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد الا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف، ومن المفسرين من ذكر في تفسير الركون قيوداً لم يذكرها أئمة اللغة.

قال القرطبي في تفسيره: الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون الى الشيء والرضا به، ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه

اللغوي، فروي عن قتادة وعكرمة أن معناها لا تودوهم ولا تطيعوهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الركون هنا الادهان، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم، وقال أبو العالية: معناه لا ترضوا أعمالهم، وقال ابن عباس: الركون إلى الشرك ولا تركنوا لا تميلوا ولا تدهنوا. وعن عكرمة: لا تصطنعوهم.

وقد اختلف أيضا الأئمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة، فقيل خاصة وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين وإنهم المرادون بالذين ظلموا. وقد روي ذلك عن ابن عباس، وقيل إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو الظاهر من الآية، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فإن قلت وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبوتاً لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد في بعض ألفاظ الصحيح أطيعوا السلطان وإن كان عبداً حبشياً رأسه كالزبيبة، وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة وما لم يظهر منهم الكفر البواح وما لم يأمروا بمعصية الله.

وظاهر ذلك إنهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به الى الكفر البواح فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله، ومن جملة ما يأمرون به تولي الأعمال لهم والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله، ومن جملة ما يأمرون به الجهاد وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا، واقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم واقامة الحدود على من وجبت عليه.

وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية الله، ولا بد في مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ونحو ذلك مما لا بد منه ولا محيص عن هذا الذي ذكرنا من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة لتواتر الأدلة الواردة به، بل قد ورد به الكتاب العزيز أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم.

بل ورد انهم يعطون الذي لهم من الطاعة وان منعوا ما هو عليهم للرعايا، كما في بعض الاحاديث الصحيحة: «أعطوهم الذي لهم واسألوا الله الذي لكم» بل ورد الامر بطاعة السلطان وبالغ في ذلك النبي (ﷺ) حتى قال: «وان أخذ مالك وضرب ظهرك»[١].

فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون، وان اعتبرنا الميل والسكون ظاهراً وباطناً فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال اليهم في الظاهر لأمر يقتضي ذلك شرعاً كالطاعة أو للتقية ومخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة اذا لم يكن له ميل اليهم في الباطن ولا محبة ولا رضى بأفعالهم.

قلت: أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله فهي على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهي عنه بأدلتها التي قدمنا الاشارة اليها ولا شك في هذا ولا ريب، فكل من أمروه ابتداء أن يدخل في شيء من الاعمال التي أمرها اليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها اذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل اليه فذلك واجب عليه، فضلاً عن أن يقال جائز له.

وأما ما ورد من النهي عن الدخول في الامارة فذلك مقيد بعدم وقوع الامر ممن تجب طاعته من الائمة والسلاطين والامراء جمعاً بين الادلة او مع

---

(١) مسلم ١٨٤٧ بلفظ: «تسمع وتطيع للأمير. وان ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع واطع».

ضعف المأمور عن القيام بما أمر به، كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الامارة بذلك في بعض الاحاديث الصحيحة.

وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ما هم عليه من الظلم وعدم ميل النفس اليهم ومحبتها لهم وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة، فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا فهو مخصص بالادلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد، والاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى، ولا تخفى على الله خافية.

وبالجملة فمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتي وما يذر بميزان الشرع، فإن زاغ عن ذلك فعلى نفسها براقش تجني، ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الاولى له والأليق به. يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم وقونا على ذلك ويسره لنا وأعنا عليه.

قال القرطبي في تفسيره: وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار انتهى. وقال النيسابوري في تفسيره: قال المحققون: الركون المنهي،عنه هو الرضا بما عليه الظلمة أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب، فأما مداخلتهم لدفع شيء من الضرر واجتلاب منفعة عاجلة فغير داخلة في الركون.

قال: وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية، أليس الله بكاف عبده. اهـ.

﴿فتمسكم النار﴾ بحرها بسبب الركون اليهم، وفيه إشارة إلى أن

الظلمة أهل النار أو كالنار، ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار، قيل هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم. والجملة حالية أو مستأنفة. قال أبو السعود: وإذا كان حال الميل في الجملة الى من وجد منه ظلم ما في الافضاء إلى مساس النار هكذا، فما ظنك بمن يميل إلى الراسخين في الظلم والعدوان ميلاً عظيماً ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقي شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيي بزيهم؛ ويمد عينيه الى زهرتهم الفانية، ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية، وهو في الحقيقة من الحبـة طفيف، ومن جناح البعوض خفيف، بمعزل عن أن تميل اليه القلوب، ضعف الطالب والمطلوب.

والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه، وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين تثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الميل الى أحد طرفي الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو غيره. انتهى.

﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ ان ركنتم اليهم، والمعنى انها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها، ونفى الأولياء ليس بطريق نفي أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولي بل لمكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفي استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفي أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام.

﴿ثم لا تنصرون﴾ من جهة الله سبحانه اذ قد سبق في علمه انـه يعذبكم بسبب ركونكم الذي نهيتم عنه فلم تنتهوا عناداً وتمـرداً والجملة حالية أو مستأنفة معترضة وأتى بثم هنا تنبيهاً على تراخي رتبة كونهم غيرمنصـورين من جهة الله بعد ما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم، ويجوز أن يكون منزلاً منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لا ينقذهم أنتج انهم لا ينصرون أصـلاً.

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خص من أنواعها اقامة الصلاة لكونها رأس الايمان، والمراد صلاة الغداة والعشي وهما الفجر والعصر، قاله الحسن، وقيل الظهر موضع العصر، وقيل الطرفان الصبح والمغرب، قاله ابن عباس. وقيل هما الظهر والعصر، وقال مجاهد: صلاة الفجر وصلاتي العشي يعني الظهر والعصر، ورجح ابن جرير انهما الصبح والمغرب.

قال: والدليل عليه اجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدل على أن الطرف الآخر المغرب.

قال الرازي: كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والاشهر انهما الفجر والعصر لأن أحد طرفي النهار هو طلوع الشمس والثاني هو غروبها، فالطرف الاول هو صلاة الفجر، والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخلة تحت قوله وزلفاً من الليل فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر. ﴿وزلفاً﴾ أي في زلف ﴿من الليل﴾ والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة، وقرىء زلفاً بضم اللام جمع زليف، ويجوز أن يكون واحده زلفة، وقرىء بإسكان اللام، وقرأ مجاهد: زلفى على وزن فعلى، وقرأ الباقون: زلفا بفتح اللام كغرفة وغرف، قال ابن الاعرابي: الزلف الساعات واحدتها زلفة.

وقال قوم: الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس، وفي القاموس الزلفة الطائفة من الليل والجمع زلف وزلفات والزلف ساعات الليل الآخذة من النهار وساعات النهار الآخذة من الليل. قال الأخفش: معنى زلفاً من الليل صلاة الليل، قال ابن عباس: صلاة العتمة، وقال الحسن: هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء، وعن مجاهد والحسن نحوه، وقال أيضاً: ساعة بعد ساعة يعني صلاة العشاء الآخرة.

﴿ إن الحسنات﴾ أي الواجبة والمندوبة وغيرها على العموم ومن جملتها بل عمادها الصلوات. عن ابن مسعود قال: هي الصلوات الخمس. وزاد ابن عباس والباقيات الصالحات ﴿يذهبن السيئات﴾ على العموم، وقيل المراد بها الصغائر ومعنى يذهبن يكفرنها حتى كأنها لم تكن.

أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها، فأنزلت عليه ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ الآية، فقال الرجل يارسول الله ألي هذه؟ قال: هي لمن عمل بها من أمتي.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم عن أبي أمامة أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله أقم فيَّ حد الله، مرة أو مرتين، فأعرض عنه؛ ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ قال أين الرجل؟ قال أنا ذا، قال أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا؟ قال نعم، قال فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد وأنزل الله حينئذ على رسوله ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ وفي الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة.

ووردت أحاديث صحيحة أيضاً أن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن. وقال مجاهد: الحسنات قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والاول أولى، وبه قال ابن المسيب والقرطبي والضحاك وجمهور المفسرين: أي الصلوات الخمس وله تدل الأحاديث.

﴿ذلك﴾ إشارة الى قوله فاستقم وما بعده، وقيل الى القرآن ﴿ذكرى للذاكرين﴾ أي موعظة للمتعظين. عن الحسن قال: هم الذين يذكرون الله في السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء. وعن ابن جريج قال: لما نزع الذي قبَّل المرأة تذكر فذلك قوله ذلك ذكرى للذاكرين.

﴿واصبر﴾ على ما أمرت به من الاستقامة وعدم الطغيان والركون إلى الذين ظلموا، وقيل ان المراد الصبر على ما أمر به دون ما نهى عنه لأنه لا مشقة في اجتنابه وفيه نظر فان المشقة في اجتناب المنهى عنه كائنة وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة ﴿فان الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي يوفيهم أجورهم ولا يضيع منها شيئاً فلا يهمله ولا يبخسه بنقص قيل المحسنون المصلون.

﴿فلولا كان﴾ هذا عود الى أحوال الأمم الخالية لبيان ان سبب حلول عذاب الاستئصال بهم انه ما كان فيهم من ينهي عن الفساد ويأمر بالرشاد فقال ﴿فلولا﴾ أي فهلا كان ﴿من القرون﴾ الماضية المهلكة بالعذاب الكائنة ﴿من قبلكم أولوا بقية﴾ من الرأي والعقل والدين، والبقية في الاصل اسم لما يستبقيه الرجل مما يخرجه وهو لا يستبقي إلا أجوده وأفضله فصار لفظ البقية مثلاً في الجودة يقال فلان ذو بقية إذا كان فيه خير، والمراد بها حينئذ جيد الشيء وخياره، من قولهم فلان بقية الناس وبقية الكرام وإنها صفة على فعيلة للمبالغة بمعنى فاعلة ولذلك دخلت التاء فيها.

وقيل معناه أولو بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا؛ وقيل انها مصدر بمعنى البقوى، كالتقية بمعنى التقوى أي فهلا كان منهم ذووا بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرىء بتخفيف الياء وهي اسم فاعل من بقي، والتقدير أولو طائفة بقية أي باقية.

وقرىء بضم الباء وسكون القاف، أخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال: أقرأني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أولو بقية وأحلام.

﴿ينهون﴾ قومهم ﴿عن الفساد في الأرض﴾ ويمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل وقوة الدين، وفي هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى والاستثناء في قوله ﴿إلا قليلاً﴾ منقطع أي لكن قليلاً ﴿ممن أنجينا منهم﴾ أي من الأمم الماضية وهم أتباع الانبياء نهوا عن الفساد في الأرض وسائرهم تركوا النهي، وقيل هو متصل لأن في حرف التحضيض معنى النفي فكأنه قال ما كان في القرون أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم الا انه يؤدي إلى النصب في غير الموجب وان كان غير النصب أولى.

قال الزمخشري: ان جعلته متصلاً كان المعنى فاسداً لأن الكلام يؤول إلى أن الناجين لا يحضون على النهي ومن في ممن بيانية لأنه لم ينج الا الناهون قيل هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر إلا قوم يونس، وقيل هم أتباع الأنبياء أهل الحق من الأمم على العموم.

﴿واتبع الذين ظلموا﴾ أنفسهم بسبب مباشرتهم للفساد وتركهم للنهي عنه ﴿ما أترفوا فيه﴾ أي أنعموا من الشهوات فاهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك والمترف الذي أبطرته النعمة يقال صبي مترف منعم البدن.

وفي القاموس الترفة بالضم النعمة والطعام والشيء الظريف تخص به صاحبك وترف كفرح تنعم وأترفته النعمة أطغته وأترف فلان أصر على المكر والمترف كمكرم المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع والمتنعم لا يمنع من تنعمه أي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش ورفاهية الحال

وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغرقوا بأعمارهم في الشهوات النفسانية.

وقبل المراد بالذين ظلموا، تاركوا النهي وردبأنه يستلزم خروج مباشري الفساد عن الذين ظلموا وهم أشد ظلماً ممن لم يباشر وكان ذنبه ترك النهي وقرىء واتبع على البناء للمفعول ومعناه اتبعوا جزاء ما أترفوا فيه، قال مجاهد: واتبع الذين ظلموا أي في ملكهم وتجبرهم وتركهم للحق، وقال ابن عباس: أترفوا وأبطروا.

وجملة ﴿وكانوا مجرمين﴾ متضمنة لبيان سبب اهلاكهم أي وكان هؤلاء الذين اتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين كافرين والاجرام الآثام والمعنى انهم أهل اجرام بسبب اتباعهم للشهوات واشتغالهم بها عن الأمور التي يحق الاشتغال بها ويجوز أن تكون معطوفة على واتبع الذين أي اتبعوا شهواتهم وكانوا بسبب ذلك الاتباع مجرمين.

﴿وما كان ربك ليهلك القرى﴾ أي ما صح ولا استقام بل استحال في الحكمة ان يهلك القرى التي اهلكها حسب ما بلغك انباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفي ﴿بظلم﴾ أي متلبساً به قيل هو حال من الفاعل اي ظالماً لها والتنكير للتفخيم والايذان بأن اهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائناً ما كان لما تقرر من قاعدة أهل السنة.

قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى وما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه وان كان على نهاية الصلاح لأن تصرفه في ملكه دليله قوله تعالى ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ وقوله: وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿وأهلها

مصلحون﴾ حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقييده بما وقع حالاً من فاعله أعني بظلم لدلالته على تقييد نفي الاهلاك ظلماً بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب في فساده بل مطلقاً عن ذلك.

وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية أي لا يهلك القرى بسبب اشراك أهلها أي بمجرد الشرك وحده حتى ينضم اليه الفساد في الأرض ومتابعة الهوى كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم لا يظلمون الناس شيئاً وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى.

ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله الغني الحميد وقيل الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وأنت تدري ان مقام النهي عن المنكرات التي أقبحها الاشراك بالله لا يلائمه فإن الشرك داخل في الفساد في الأرض دخولاً أولياً ولذلك ينهى كل من الرسل الذين قصت أنباؤهم أمته أولاً عن الاشراك ثم عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصي وحمل الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه يكون بعضهم متصدين للنهي عنه وبصنعهم متوجهين الى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد.

وقيل المعنى وما كان يهلكهم بذنوبهم وهم مخلصون في الايمان فالظلم المعاصي على هذا، أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن تفسير هذه الآية فقال: وأهلها ينصف بعضهم بعضاً، وروي موقوفاً على جرير، قيل والمراد بالهلاك عذاب الاستئصال في الدنيا وأما عذاب الآخرة فهو لازم لهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ أي أهل دين واحد اما أهل ضلالة أو أهل هدى، وقيل معناه جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه أو مجتمعَين على دين الاسلام دون سائر الأديان ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن ولهذا قال:

﴿ولا يزالون مختلفين﴾ في ذات بينهم على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل هؤلاء قد اختلفوا في أديانهم اختلافاً كثيراً لا ينضبط، وقيل مختلفين في الحق أو دين الإسلام وقيل مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير، وعن ابن عباس في الآية قال: أهل الحق وأهل الباطل. عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين والنصارى كذلك وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة[1].

أخرجه أبو داود والترمذي بنحوه عن معاوية قال: قام فينا رسول الله (ﷺ) فقال: ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة[2]، أخرجه أبو داود.

قال الخطابي: فيه دلالة على ان هذه الفرق غير خارجة عن الملة والدين إذ جعلهم من أمته، وقال غيره: المراد بها أهل البدع والأهواء الذين تفرقوا واختلفوا وظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم والمراد بالواحدة هي فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول في قوله وفعله ولم يقلدوا أحداً في خلافه.

(١) و(٢) أبو داوود كتاب السنة باب ١.

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

﴿الا من رحم ربك﴾ أي إلا أهل رحمته فانهم لا يختلفون وعن عطاء ابن أبي رباح قال: لا يزالون مختلفين أي اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية وهم الذين رحم ربك. وقال الحسن: الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك فمن رحم ربك غير مختلف.

وعن مجاهد قال: من اختلف أهل الباطل ومن رحم أهل الحق فمن الله عليهم بالتوفيق والهداية الى الدين الحق، فإنهم لم يختلفوا أو إلا من رحم ربك من المختلفين في الحق أو دين الاسلام بهدايته إلى الصواب الذي هو حكم الله وهو الحق الذي لا حق غيره أو الا من رحم ربك بالقناعة والاولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء في الا من رحم واضحاً غير محتاج الى تكلف.

﴿ولذلك﴾ أي ولما ذكر من الاختلاف أو ولرحمته وصح تذكير الاشارة الى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقي، والضمير في ﴿خلقهم﴾ ان كان راجعاً الى الناس فالاشارة الى الاختلاف واللام للعاقبة أو اليه والى الرحمة، وان كان الى من فإلى الرحمة، وقيل الاشارة بذلك الى مجموع الاختلاف والرحمة ولا مانع من الاشارة بها الى شيئين كما في قوله ﴿عوان بين ذلك﴾ وقوله ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ وقوله ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ قال مجاهد: خلقهم للرحمة وعن عكرمة نحوه وقال ابن عباس: خلقهم فريقين، فريقاً يرحم فلا يختلف، وفريقاً لا يرحم فيختلف فذلك قوله فمنهم شقي وسعيد.

وقال الحسن وعطاء: خلقهم للاختلاف، وقال أشهب: سألت مالك بن أنس عن هذه الآية فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير. وقال الفراء: خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب الرد على المنطقيين: ان القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسل والكتب المنزلة كان أعظم في تفرقهم واختلافهم فإنهم يكونوا أضل، وقد أمر الله بالجماعة والائتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ وقال تعالى ﴿ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ وقال ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾.

وقد أخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون فقال تعالى ﴿ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك﴾ ولذلك يوجد أتبع الناس للرسول أقلهم اختلافاً كأهل الحديث والسنة فإنهم أقل اختلافاً من جميع الطوائف، ثم من كان اليهم أقرب كان من الاختلاف أبعد، فأما من بعد عن السنة كالمعتزلة والرافضة فتجدهم أكثر الطوائف اختلافاً، وأما اختلاف الفلاسفة فلا يحصره أحد.

وقد ذكر أبو الحسن الأشعري في كتاب المقالات مقالات غير الاسلاميين عنهم من المقالات مالم يذكره الفارابي وابن سينا وأمثالهما، وكذلك القاضي أبو بكر بن الطيب في كتاب الدقائق الذي رد فيه على الفلاسفة والمنجمين، ورجح فيه منطق المتكلمين من العرب على منطق اليونان.

وكذلك متكلمة المعتزلة والشيعة وغيرهم في ردهم على الفلاسفة ذكروا أنواعاً من المقالات وردوها ولكن مذهب الفلاسفة الذي نصره الفارابي وابن سينا وأمثالهما كالسهروردي المقتول على الزندقة وكأبي بكر بن الصائغ وابن رشد الحفيد هو مذهب المشائين أتباع ارسطو صاحب المنطق وهو الذي يذكره الغزالي في كتاب مقاصد الفلاسفة، وعليه رد في التهافت، وهو الذي يذكره الرازي في الملخص والمباحث المشرقية ويذكره الآمدي في دقائق الحقائق ورموز الكنوز وغير ذلك.

وعلى طريقتهم مشى أبو البركات صاحب المعتبر لكن لم يقلدهم تقليد غيره بل اعتبر ما ذكروه بحسب نظره وعقله، وكذلك الرازي والآمدي

يعترضان عليهم في كثير مما يذكرونه بحسب ما يسنح لهم، وابن سينا أيضاً قد يخالف الأولين في بعض ما ذكروه.

والفلاسفة طوائف كثيرون وبينهم اختلاف كثير في الطبيعيات والإلهيات وفي الهيئة أيضاً وأول من خلط منطقهم بأصول المسلمين أبو حامد الغزالي وتكلم فيه علماء المسلمين بما يطول ذكره، وهذا الرد عليهم مذكور في كثير من كتب أهل الكلام.

والفلاسفة ليسو أمة واحدة لها مقالة في العلم الآلهي والطبيعي وغيرهما بل هم أصناف متفرقون وبينهم من التفرق والاختلاف مالا يحصيه الا الله أعظم مما بين الملة الواحدة كاليهود والنصارى أضعافا مضاعفة.

والمقصود أن نظار المسلمين ما زالوا يصنفون في الرد عليهم في المنطق وغير المنطق ويثبتون خطأهم فيما ذكروه جميعاً إذ لا يحكم بين الناس فيما تنازعوا فيه إلا كتاب منزل ونبي مرسل كما قال تعالى ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ ولهذا قال تعالى ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ انتهى المقصود بتصرف في العبارة.

وحاصل الآية ان الله خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين، وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين وحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم إلى النار وحكم على بعضهم بالرحمة ومصيرهم الى الجنة وهم أهل الاتفاق.

ويدل لصحة هذا قوله ﴿وتمت كلمة ربك﴾ أي ثبتت كما قدره في أزله وإذا تمت وحقت ووجبت وامتنعت من التغيير والتبديل وقيل الكلمة هي قوله للملائكة ﴿لأملأن جهنم من الجنة﴾ أي الجن والتاء للمبالغة ﴿والناس أجمعين﴾ أي ممن يستحقها من الطائفتين.

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿وكُلًّا﴾ أي وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه ﴿نقص عليك﴾ أي نخبرك به مما يحتاج اليه وقوله ﴿من أنباء الرسل﴾ بيان لكُلًّا، وقوله ﴿مانثبت به فؤادك﴾ بدل منه والأظهر ان يكون المضاف اليه المحذوف في ﴿كُلًّا﴾ المفعول المطلق لنقص أي كل اقتصاص أي كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من أنباء الرسل، وقوله ﴿ما نثبت﴾ مفعول نقص وفائدته التنبيه على ان المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة في تماديهم في الضلال وما لقي الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق لان تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم.

﴿وجاءك في هذه﴾ أي السورة قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعري وسعيد بن جبير والحسن وعليه الاكثر: أو في هذه الدنيا قاله قتادة وفيه بعد لأنه لم يجر للدنيا ذكر، وقيل في هذه الآية أو في هذه الأنباء ﴿الحق﴾ أي البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد.

وقيل النبوة وعلى الأول يكون تخصيص هذه السورة بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور لقصد بيان اشتمالها على ذلك لا بيان كونه موجوداً فيها دون غيرها.

وقيل لأنها جمعت من اهلاك الأمم وشرح حالهم مالم يجمع غيرها، وقيل خصها بالذكر تشريفاً لها والتعريف في الحق اما للجنس أو للعهد وانما عرفه

ونكر تاليه تفخيماً له لكونه يطلق على الله بخلاف تاليه.

﴿وموعظة﴾ يتعظ بها الواقف عليها إذا تذكر أحوال الأمم الماضية ﴿وذكرى للمؤمنين﴾ أي يتذكر بها من تفكر فيها منهم، وخص المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر.

﴿وقُل للذين لا يؤمنون﴾ بهذا الحق ولا يتعظون ولا يتذكرون ﴿اعملوا﴾ حال كونكم قارين وثابتين ﴿على مكانتكم﴾ على تمكنكم وحالكم وجهتكم من الكفر وقد تقدم تحقيقه.

وقال قتادة: على منازلكم ﴿انا عاملون﴾ على مكانتنا وحالنا وجهتنا من الايمان بالحق والاتعاظ والتذكر وفي هذا تشديد للوعيد وتهديد لهم.

﴿وانتظروا﴾ عاقبة أمرنا، وقال ابن جريج: انتظروا مواعيد الشيطان اياكم على مايزين لكم ﴿انا منتظرون﴾ عاقبة أمركم وما يحل بكم من عذاب الله وعقوبته وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى.

﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ أي علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما وخص الغيب مع كونه يعلم، بما هو مشهود كما يعلم بما هو مغيب لكونه من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره.

وقيل ان غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض، والأول أولى؛ وبه قال أبو علي الفارسي وغيره وأضاف الغيب إلى المفعول توسعاً.

﴿واليه يرجع﴾ بالبناء للفاعل يعود وللمفعول يرد ﴿الأمر كله﴾ أي أمر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة فيجازي كُلًّا بعمله فينتقم ممن عصى ويثيب من أطاع.

وقال ابن جريج: فيقضي بينهم بحكم العدل ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فانه كافيك كل ما تكره ومعطيك كل ما تحب والفاء لترتيب الامر بالعبادة

والتوكل على كون مرجع الامور كلها إلى الله سبحانه قيل هذا الخطاب له ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وفي تأخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بأنه لا ينفع دونها.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بل عالم بجميع ذلك ومجاز عليه ان خيراً فخيراً وان شراً فشراً، وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالفوقية على الخطاب وهي سبعية والباقون بالتحتية وهم الجمهور:

وأخرج عبد الله بن أحمد وابن الدريس وابن جرير وأبو الشيخ عن كعب الأحبار قال: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿ولله غيب السموات والارض﴾ إلى آخر الآية.

استدراك

فاتنا أن نعلق على الآيات التي مرت في سورة هود الواردة في بيان وظيفة الرسل بأوسع مما كتبه المؤلف فرأينا أن نستدركه هنا:

وظيفة الرسل الأساسية هي ما بعثهم الله لأجله من تبليغ رسالته بإنذار من تولى عن الإيمان وعصى، وتبشير من أجاب الدعوة فآمن واهتدى، والشواهد عليها من هذه السورة قوله تعالى في دعوة رسوله خاتم النبيين ﴿إنني لكم منه نذير مبين﴾ وقوله حكاية عن رسوله هود صلى الله عليه وسلم فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم.

وموضوع التبليغ هو الدعوة إلى أركان الدين، وعليها مدار سعادة المكلفين في الدنيا والآخرة، وكلها مبطلة لما كان عليه أقوامهم المشركون من أن بينهم وبين الله تعالى وسائط منهم أو من غيرهم من خلقه يقربونهم اليه بجاههم الشخصي ويقضون حوائجهم من جلب نفع أو دفع ضر بشفاعتهم لهم عنده، أو بتصرفهم في خلقه بما خصهم به من خوارق العادات، إلا ما جعله من آياته دليلاً على صدقهم في دعوى الرسالة.

والرسل بشر بمعنى انهم لا يملكون من أمور العالم شيئاً مما هو فوق كسب البشر، غير ما خصهم الله به من الرسالة دون شؤون ربوبيته، حتى انهم لا يملكون هداية أحد إلى الدين بالفعل لأن هدايتهم خاصة بالتبليغ والتعليم، وحكاية نوح مع ابنه الكافر حجة في هذا الموضوع واضحة.

والشواهد على هذا في القرآن كثيرة، ومنها في هذه السورة ما علمت من آيات توحيد الربوبية، والرد على مشركي مكه في اقتراحهم مجيء الملك بقوله تعالى ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾

وقوله حكاية عن نوح ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلمَ الغيب ولا أقول إني ملك﴾ وفي معناه آيات كثيرة في السور الأخرى.

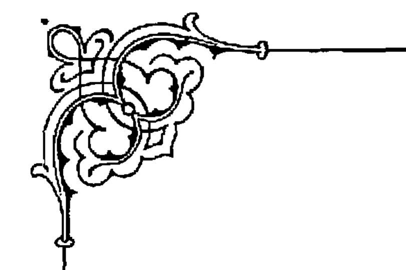
ومنها في احتجاج المشركين على رسلهم بأنهم بشر في قصة نوح ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه: ما نراك الا بشراً مثلنا﴾ وقد قال مثل هذا سائر أقوام الرسل بعده الى خاتمهم محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

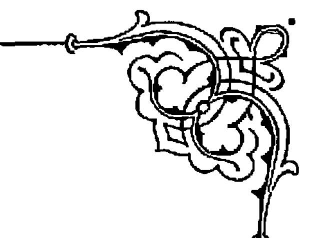
ولو كان أولئك الرسل في عصرهم على غير ما يعهد أقوامهم من البشر بأن كانوا يتصرفون في الكون بالضر والنفع وعلم الغيب لما احتجوا عليهم بأنهم بشر مثلهم كما يدعي الذين ضلوا من أقوامهم من بعدهم عما جاءوا به مع دعوى اتباعهم فزعموا أنهم وبعض من وصفوا بالصلاح والولاية من أتباعهم يضرون وينفعون: أحياؤهم وأمواتهم في هذا سواء.

بل يزعمون أنهم أحياء في قبورهم حياة مادية بدنية، يأكلون فيها ويشربون ويسمعون كلام من يدعوهم ويستغيث بهم، ويستجيبون دعاءهم فيها: يخالفون بهذه الدعاوي مئات من آيات القرآن المحكمات في صفات الأنبياء، وكونهم بشراً لا يقدرون على شيء مما لا يقدر عليه البشر.

وقد يحتجون بما ورد فيه من بعض أنباء الغيب في حياة الشهداء البرزخية فيقيسون عليها بأهوائهم حياة أوليائهم رجماً بالغيب وافتراء على الله.



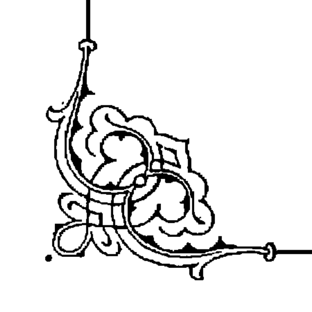




بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف عليه السلام

قيل هي مائة واحدى عشرة آية وهي مكية كلها، وقيل نزلت ما بين مكة والمدينة وقت الهجرة، وقال ابن عباس وقتادة: الا أربع آيات قال القرطبي: قال العلماء: ذكر الله أقاصيص الانبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة ما لم يتكرر.



بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

﴿آلر﴾ قد تقدم الكلام فيه في فاتحة سورة يونس ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم، والمبين من أبان بمعنى بان أي الظاهر أمره في كونه من عند الله، وفي إعجازه بنوعيه لا سيما الإخبار عن الغيب، أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يلتبس على قارئه وسامعه لنزوله على لغتهم، أو بمعنى بين أي المبين لما فيه من الأحكام والشرائع وخفاء الملك والملكوت وأسرار النشأتين في الدارين، أو المبين فيه قصص الأولين وشرح أحوال المتقدمين، أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف.

قال قتادة: مبين بينه الله ببركته ورشده فهذا من بان أي ظهر، وقال الزجاج: مبين للحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر، قال مجاهد: بين الله حلاله وحرامه، وعن معاذ قال: بين الله الحروف التي سقطت عن ألسن الأعاجم وهي ستة أحرف.

﴿إنا أنزلناه﴾ أي الكتاب المبين حال كونه ﴿قرآنا﴾ فعلى تقدير أن الكتاب السورة يكون تسميتها قرآنا باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل وعلى البعض وعلى تقدير أن المراد به كل القرآن فتكون تسميته قرآنا واضحة و﴿عربياً﴾ صفة لقرآن أي لغة العرب وفيه من غير لسان العرب مثل سجيل ومشكاة وأليم واستبرق ونحو ذلك، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وهذا هو الصحيح وأنكرها أبو عبيدة محتجاً بهذه الآية والجمع أنها لما تكلمت بها العرب نسبت إليهم وصارت لهم لغة ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه لأنه نازل بلغتكم.

أخرج الحاكم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا ﴿قرآناً عربياً﴾ ثم قال: ألهم اسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً[1]، وعن مجاهد قال: نزل القرآن بلسان قريش وهو كلامهم.

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ هو تتبع الشيء ومنه قوله تعالى ﴿وقالت لأخته قصيه﴾ أي تتبعي أثره وهو مصدر وسميت الحكاية قصة لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً، والتقدير نقص عليك قصصاً أحسن القصص فيكون بمعنى الاقتصاص، أو هو بمعنى المفعول أي المقصوص، والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه، قال ابن عباس: قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه الآية.

وعن ابن مسعود مثله وقال قتادة: نقص عليك من الكتب الماضية والقرون الخالية وأمور الله السابقة في الأمم أحسن البيان، واختلف في وجه كون هذه السورة أو القرآن هو أحسن القصص فقيل لأن ما في هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها وقيل لما فيها من حسن المحاورة وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على أذاهم وعفوه عنهم، وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والانس والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار العلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن.

وقيل لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وما دار بينهما وقيل أن أحسن هنا بمعنى أعجب، وقيل أن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة، قال خالد بن معد: أن سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة، وقال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها.

﴿بما أوحينا﴾ بإيحائنا ﴿إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله﴾ أي من قبل إيحائنا إليك ﴿لمن الغافلين﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك،

---

(١) المستدرك، كتاب التفسير، ٢/٤٤١.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

﴿إذ﴾ أي اذكر وقت أن ﴿قال يوسف لأبيه﴾ قرأ الجمهور يوسف بضم السين وقرىء بكسرها مع الهمز مكان الواو وحكي الهمز وفتح السين وهو اسم عبراني غير منصرف للعلمية والعجمة وقيل هو عربي والأول أولى بدليل عدم صرفه وأبوه يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم وعاش يوسف من العمر مائة وعشرين سنة ذكره السيوطي في التحبير.

﴿يا أبت﴾ بكسر تاء التأنيث اللفظي التي هي عوض عن ياء المتكلم المحذوفة وأصله يا أبي وهذا التعويض مختص بلفظين يا أبت ويا أمت ولا يجوز في غيرهما من الأسماء وممن نص على كونها للتأنيث سيبويه والخليل ويدل عليه كتبهم إياها هاء وقياس من وقف بالتاء أن يكتبها تاء كبنت وأخت وجاز إلحاقها المذكر كما جاز حمامة ذكر وشاة ذكر ورجل ربعة وغلام يفعة

﴿إني رأيت﴾ من الرؤيا النومية لا من الرؤية البصرية كما يدل عليه لا تقصص رؤياك على إخوتك قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء حق وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر فرأى أن أحد عشر كوكباً نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وكان يوسف إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة وقيل سبع عشرة وقيل سبع سنين.

﴿أحد عشر كوكباً﴾ وهي جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفلق والمصبح والصروخ والفرع ووثاب وذو الكتفين قاله البيضاوي وهذه نجوم غير مرصودة خصت بالرؤيا لغيبتهم عنه قاله الشهاب وورد في حديث أسماؤها هكذا ساقه السيوطي في الدر المنثور وفيه الضعفاء والمتروكون وقال ابن

الجوزي: هو موضوع، قال ابن عباس: أحد عشر كوكباً إخوته والشمس أمه والقمر أبوه وعن قتادة والسدي وابن زيد نحوه.

﴿والشمس والقمر﴾ أخرهما عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة وقيل أن الواو بمعنى مع ﴿ رأيتهم لي ساجدين﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي رآهم عليها كأن سائلاً سأل فقال كيف رأيتهم فأجاب بذلك.

وإنما أجريت مجرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصف العقلاء وهو كونها ساجدة كذا قال الخليل وسيبويه والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا نزلوا منزلته وقيل كررت للتأكيد لما طال الفصل بالمفاعيل والأول أولى وإليه نحا الزمخشري لأنه متى دار الكلام بين الحمل على التأكيد والتأسيس فحمله على الثاني أولى، والمراد حقيقة السجود لأنه كان التحية فيما بينهم السجود، وقيل المراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره والأول أولى.

ولم تظهر رؤية يوسف إلا بعد أربعين سنة وهو قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصري: كان بينهما ثمانون سنة حين اجتمع عليه أبواه وإخوته وخروا له ساجدين.

﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ الرؤيا مصدر رأي في المنام رؤيا على وزن فعلى كالسقيا والبشرى وألفه للتأنيث ولذلك لم يصرف نهى يعقوب ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على أخوته لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها عليهم فيفهمون تأويلها ويحصل منهم الحسد له ولهذا قال.

﴿فيكيدوا لك كيداً﴾ وهذا جواب النهي أي فيفعلوا لاجلك كيداً مثبتاً

راسخاً لا تقدر على الخلوص منه أو كيداً خفياً عن فهمك وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام آكد من أن يقال فيكيدوا كيداً وقيل إنما جيء باللام لتضمنه معنى الاحتيال المتعدي باللام فيفيد هذا التضمن معنى الفعلين جميعاً الكيد والاحتيال كما هو القاعدة في التضمين أن يقدر أحدهما أصلاً والآخر حالاً.

﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ مستأنفة كأن يوسف قال: كيف يقع ذلك منهم فنبه بأن الشيطان يحملهم على ذلك لأنه عدو للانسان مظهر للعداوة مجاهر بها وقد وردت أحاديث صحيحة في بيان الرؤيا الصالحة وأنها من الله والسوء وأنها من الشيطان وفي أن رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوة وليس لها تعلق بهذه الآية بل هي تعم.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿وكذلك﴾ أي ومثل ذلك الاجتباء البديع الذي رأيته في المنام وشاهدت آثاره في عالم المثال من سجود تلك الأجرام العلوية النيرة لك الدال على شرف وعز وكمال نفس وبحسبه وعلى وفقه ﴿يجتبيك ربك﴾ ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا فيجعلك نبياً ويصطفيك على سائر العباد ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التي رأيتها في منامك فصارت ساجدة لك.

قال النحاس: الاجتباء أصله من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك ومنه جبيت الماء في الحوض جمعته ومعنى الاجتباء الاصطفاء واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي تحصل منه أنواع المكرمات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالأنبياء وببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين وهذا يتضمن الثناء على يوسف وتعديد نعم الله عليه ومنها.

﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ أي تأويل الرؤيا قال مجاهد: عبارة الرؤيا، وقال ابن زيد: تأويل العلم والحلم وكان يوسف من أعبر الناس وسمى الرؤيا أحاديث لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقة وأحاديث الشيطان إن كانت كاذبة، قال القرطبي: وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا وقد كان يوسف أعلم الناس بتأويلها.

وقيل المراد تأويل أحاديث الأمم السالفة والكتب المنزلة قاله الزجاج وقيل المراد به إحواج أخوته إليه وقيل إنجاؤه من كل مكروه وقيل إنجاؤه من القتل خاصة والأحاديث جمع تكسير فقيل لواحد ملفوظ به وهو حديث ولكنه شذ جمعه

على أحاديث وله نظائر في الشذوذ كأباطيل وأفاظيع وأعاريض في باطل وفظيع وعريض وزعم أبو زيد أن لها واحداً مقدراً وهو أحدوثة ونحوه وليس باسم جمع لأن هذه الصيغة مختصة بالتكسير وإذا كانوا قد التزموا ذلك فيما لو يصرح له بمفرد من لفظه نحو عباديد وشماطيط وأبابيل، ففي أحاديث أولى قاله السمين.

﴿ويتم نعمته عليك﴾ فيجمع لك بين النبوة والملك كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك الله أو يجمع لك بين خيري الدنيا والآخرة ﴿وعلى آل يعقوب﴾ وهم قرابته من إخوته وأولاده ومن بعدهم وذلك أن الله سبحانه أعطاهم النبوة كما قاله جماعة من المفسرين ولا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر من النعم التي من جملتها كون الملك فيهم مع كونهم أنبياء وبه قال أكثر المفسرين.

﴿كما أتمها على أبويك﴾ أي إتماما مثل اتمامها عليهما وهي نعمة النبوة عليهما مع كون إبراهيم اتخذه الله خليلاً ومع كون اسحق نجاه الله سبحانه من الذبح قاله عكرمة وصار لهما الذرية الطيبة وهم يعقوب ويوسف وسائر الأسباط ﴿من قبل﴾ أي من قبل هذا الوقت الذي أنت فيه أو من قبلك ﴿إبراهيم واسحاق﴾ عطف بيان لأبويك أو بدل منه أو على إضمار أعني وعبر عنهما بالأبوين مع كونهما أبا جده وأبا أبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام ﴿إن ربك عليم﴾ بمصالح خلقه ﴿حكيم﴾ في أفعاله والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلاً له أي فعل ذلك لأنه عليم حكيم إشارة إلى قوله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته وأنه لا يضع النبوة إلا في نفس قدسية.

وكان هذا الكلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيراً لرؤياه على طريق الإجمال أو علم ذلك من طريق الوحي، أو عرفه بطريق الفراسة وما تقتضيه المخايل اليوسفية.

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ أي لقد كان في قصتهم

علامات دالة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه للسائلين من الناس عنها وغيرهم ففيه اكتفاء، وقرأ أهل مكة أية على التوحيد، قال النحاس: وآية ههنا قراءة حسنة، وقيل المعنى لقد كان في يوسف وأخوته آيات دالة على نبوة محمدﷺ للسائلين له من اليهود فإنه روي أنه قال جماعة منهم وهو بمكة أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمي، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة.

وقيل معنى آيات للسائلين عجب لهم، وقيل بصيرة وقيل عبرة للمعتبرين، فإن هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها، ومنها حسد أخوته له وما آل إليه أمرهم، ومنها صبر يوسف على ما فعلوا به وما آل إليه أمره من الملك، ومنها حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات.

قال القرطبي: وأسماؤهم يعني أخوة يوسف وهم أحد عشر: روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوي ويهوذا وزبولون ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي بنت خال يعقوب وولد له من سريتين زلفة وبلهة أربعة وهم دان وتفتونا وجاد وأوشير، ثم ماتت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، فهؤلاء بنو يعقوب وهم الأسباط وعددهم اثنا عشر نفراً...

وقال السهيلي: أن أم يوسف اسمها وفقا وراحيل ماتت من نفاس بنيامين وهو أكبر من يوسف وعن قتادة في الآية يقول: من سأل عن ذلك فهو هكذا ما قص الله عليكم وأنبأكم به وعن الضحاك نحوه وعن ابن اسحاق قال: إنما قص الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم خبر يوسف وبغي أخوته عليه وحسدهم إياه حين ذكر رؤياه لما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بغي قومه عليه وحسدهم إياه حين أكرمه الله بنبوته ليأتسي به.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

﴿إذ﴾ أي وقت أن ﴿قالوا ليوسف وأخوه﴾ هو بنيامين بكسر الباء وصحح بعضهم فتحها ففيه الوجهان وهو أصغر من يوسف وخصوه بكونه أخاه مع أنهم جميعاً أخوته لأنه أخوه لأبويه كما تقدم واللام لام القسم أي والله ليوسف ووحد الخبر فقال ﴿أحب إلى أبينا منا﴾ مع تعدد المبتدأ لأن أفعل التفضيل يستوي فيه الواحد وما فوقه إذا لم يعرف وهو مبني من حب المبني للمفعول وهو شاذ قياساً فصيح استعمالاً لوروده في أفصح الفصيح وإذا بنيت أفعل التفضيل من مادة الحب والبغض تعدى إلى الفاعل المعنوي بإلى وإلى المفعول المعنوي باللام أو بفي وعلى هذا جاءت الآية الكريمة.

وإنما قالوا هذا لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيده.

﴿ونحن عصبة﴾ الواو للحال والعصبة الجماعة قيل وهي ما بين الواحد إلى العشرة وقيل ما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل هي العشرة فما زاد وقيل من العشرة إلى خمسة عشر وقيل ستة وقيل تسعة وقيل من العشرة إلى الأربعين قاله قتادة. والمادة تدل على الإحاطة من العصابة لإحاطتها بالرأس وقيل الأصل فيه إن كل جماعة يتعصب بعضهم لبعض يسمون عصبة والعصبة لا واحد لها من لفظها بل هي كالنفر والرهط وقد كانوا عشرة.

﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي لفي ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا وإيثارهما دوننا مع استوائنا في الإنتساب إليه ولا يصح أن يكون مرادهم أنه في دينه في ضلال إذ لو أرادوا ذلك لكفروا به قال ابن زيد: أي لفي خطأ من رأيه.

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ أي في أرض وإليه ذهب الحوفي وابن عطية وقال الزمخشري: أي أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الناس ولأنها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة وقيل أنها مفعول ثان والمعنى أنزلوه أرضاً والطرح الرمي ويعبر به عن الاقتحام في المخاوف يعني قالوا: افعلوا به أحد الأمرين إما القتل أو الطرح في أرض أو المشير بالقتل بعضهم، والمشير بالطرح البعض الآخر أو كان المتكلم بذلك واحداً منهم فوافقه الباقون، فكانوا كالقاتل في نسبة هذا المقول إليهم وجواب الأمر.

﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ أي يصف ويخلص فيقبل عليكم ويحبكم حباً كاملاً لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه ﴿وتكونوا من بعده﴾ أي بعد يوسف والمراد بعد الفراغ من قتله أو طرحه وقيل من بعد الذنب الذي اقترفتموه في يوسف ﴿قوماً صالحين﴾ في أمور دينكم وطاعة أبيكم أو صالحين في أمور دنياكم بذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك وهو الحسد ليوسف وتكدر خواطركم بتأثيره عليكم هو وأخوه، أو صالحين مع أبيكم بعذر تمهدونه أو المراد بالصالحين التائبون من الذنب في المستقبل.

﴿قال قائل منهم﴾ أي من الإخوة قيل هو يهوذا وقيل روبيل وقيل شمعون والأول أولى قيل وجه الإظهار في ﴿لا تقتلوا يوسف﴾ استجلاب شفقتهم عليه فلم ير هذا القائل القتل ولا طرحه في أرض خالية قفراء بل قال ﴿وألقوه في

غيابة الجب﴾ أي في بئر يشرب منها الماء فإنه أقرب لخلاصه، فمحصل ذلك أنه أختار خصلة ثالثة هي أرفق بيوسف من تينك الخصلتين.

قرأ جماعة غيابة بالإفراد وغيرهم بالجمع، وأنكر أبو عبيد الجمع لأن الموضع الذي ألقوه فيه واحد، قال النحاس: وهذا تضييق في اللغة والجمع يجوز والغيابة كل شيء غيب عنك شيئاً وقيل للقبر غيابة والمراد بها هنا غور البئر الذي لا يقع عليه البصر أو طاقة فيه.

قال الهروي: الغيابة سد أو طاق في البئر قريب الماء يغيب ما فيه من العيون وقال الكلبي: الغيابة تكون في قعر الجب لأن أسفله واسع ورأسه ضيق فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه وقال الزمخشري: هي غورة وما غاب منه من عين الناظر وأظلم من أسفله والمعاني متقاربة والجب البئر التي لم تطو ويقال لها قبل الطي ركية فإذا طويت قيل لها بئر وسميت جباً لأنها قطعت في الأرض قطعاً أو لكونه محفوراً في جبوب الأرض أي ما غلظ منها.

وجمع الجب جبب وجباب وأجباب وجمع بين الغيابة والجب مبالغة في أن يلقوه في مكان أسفل من الجب شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين قيل وهذه البئر ببيت المقدس قاله قتادة وقيل ببعض نواحي ايلياء، وقيل بالأردن، قاله وهب وقيل بالشام، وعن ابن زيد قال: بحذاء طبرية بينه وبينها أميال وقال مقاتل: هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وجواب الأمر.

﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ قرىء بالتحيتة والفوقية ووجهه أن بعض السيارة سيارة وهي الجمع الذي يسير في الطريق جمع سيار أي المبالغ في السير والالتقاط هو أخذ شيء مشرف على الضياع من الطريق أو من حيث لا يحتسب ومنه اللقطة كأنهم أرادوا أن بعض السيارة إذا التقطه حمله إلى مكان بعيد بحيث يخفى عن أبيه ومن يعرفه ولا يحتاجون إلى الحركة بأنفسهم إلى المكان البعيد فربما أن

والدهم لا يأذن لهم بذلك وكان هذا الجب معروفاً يرد عليه كثير من المسافرين.

﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي عاملين بما أشرت به عليكم في أمره كأنه لم يجزم بالأمر بل وكله إلى ما يجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره، وفي هذا دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم ظلماً وبغياً، وقيل كانوا أنبياء وكان ذلك منهم زلة قدم أوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم.

ورد بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكبيرة المتبالغة في الكبر مع ما في ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد وافتراء الكذب، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالأمانة وترك العهد، وقيل عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم، ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعاً، وقيل أنهم لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء بل صاروا أنبياء من بعد وكان كل ذلك قبل أن ينهاهم الله.

ولما أجمع رأيهم على أن يلقوه في غيابات الجب جاءوا إلى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوة استعطافاً له وتحريكاً للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه واستفهموه استفهام المنكر لأمر ينبغي أن يكون الواقع على خلافه.

﴿قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف﴾ أي أي شيء لك لا تجعلنا أمناء عليه وكأنهم قد كانوا سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف، فأبى قرىء تأمناً بالإظهار وبالإدغام من غير إشمام واتفق الجمهور على الإخفاء أو الإشمام ﴿وإنا له لناصحون﴾ في حفظه وحيطته عاطفون عليه قائمون بمصلحته حتى نرده إليك.

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿أرسله معنا غداً﴾ أي في غد إلى الصحراء التي أرادوا الخروج إليها وغداً ظرف والأصل عند سيبويه غدوة وقال النضر بن شميل ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له غدوة وكذا يقال له بكرة والغد اليوم الذي بعد يومك الذي أنت فيه ﴿يرتع﴾ هذا جواب الأمر، قرىء بالنون وإسكان العين وبها وكسر العين إسناداً للكل والأولى مأخوذ من قول العرب رتع الانسان أو البعير إذا أكل كيف شاء.

والمعنى يتسع في الخصب، وكل مخصب راتع والرتع التمتع في أكل الفواكه ونحوها والثانية مأخوذة من رعي الغنم وقرىء بالتحتية فيهما ورفع يلعب على الاستئناف والضمير ليوسف وقال القتيبي: معنى نرتع نتحارس ونتحافظ ويرعى بعضنا بعضاً من قولهم رعاك الله أي حفظك.

﴿ويلعب﴾ من اللعب قيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا نلعب وهم أنبياء فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء وقيل المراد به اللعب المباح وهو مجرد الانبساط لانشراح الصدر وقيل هو اللعب الذي يتعلمون به الحرب ويتقوون به عليه، وكان اللعب بالاستباق والانتضال تمرينا لقتال الأعداء كما في قولهم إنا ذهبنا نستبق لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق، وسماه لعباً لشبهه به، ولذلك لم ينكر عليهم يعقوب لما قالوا ونلعب، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لجابر: «فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك». [١] وقال ابن عباس: نرتع ونلعب نسعى وننشط ونلهو ﴿و﴾ الحال ﴿إنا له لحافظون﴾ من أن يناله مكروه.

---

(١) مسلم ٧١٥ ـ البخاري ٢٩٢.

﴿قال﴾ أي فأجابهم يعقوب بقوله ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ أي ذهابكم به واللام لام الابتداء للتأكيد ولتخصيص المضارع بالحال أخبرهم بأنه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له وحنوه عليه والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أخاف أن يأكله الذئب﴾ قال هذا يعقوب تخوفاً عليه منهم فكنى عن ذلك بالذئب وقيل إنه خاف أن يأكله الذئب حقيقة لأن ذلك المكان كان كثير الذئاب. ولو خاف منهم أن يقتلوه لأرسل معهم من يحفظه.

قال ثعلب: الذئب مأخوذ من تذأبت الريح إذا هاجت من كل وجه، قال: والذئب مهموز لأنه يجيء من كل وجه ﴿وأنتم عنه غافلون﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لكونكم غير مهتمين بحفظه.

أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسلفي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تلقنوا الناس فيكذبون فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس، فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب».

﴿قالوا﴾ جواباً عن عذره الثاني وهو قوله أخاف أن يأكله الذئب، وأما عذره الأول وهو قوله إني ليحزنني فلم يجيبوا عنه إما لكون الحزن زمنه قصيراً لانقضائه برجوعهم، وإما لأنه ليس غرضهم إزالة الحزن عنه بل إيقاعه فيه والثاني هو المتعين ﴿لئن أكله الذئب﴾ اللام هي الموطئة للقسم والمعنى والله لئن أكله الذئب ﴿و﴾ الحال إنا ﴿نحن عصبة﴾ جماعة كثيرة عشرة رجال.

﴿إنا إذاً﴾ أي في ذلك الوقت وهو أكل الذئب له ﴿لخاسرون﴾ لهالكون ضعفاً وعجزاً أو مستحقون للهلاك لعدم الاعتداد بنا وانتفاء القدرة عن أيسر شيء وأقله أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار، وقيل معناه لجاهلون حقه وهذه الجملة جواب القسم المقدر في الجملة التي قبلها.

فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

﴿فلما ذهبوا به﴾ من عند يعقوب ﴿وأجمعوا﴾ أمرهم أي عزموا لأن أصل معنى الإجماع العزم المصمم ﴿أن يجعلوه في غيابة الجب﴾ قد تقدم تفسيرهما قريباً وجواب لما محذوف لظهوره ودلالة المقام عليه أي فعلوا به ما فعلوا من الأذى وقيل جوابه ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ وقيل الجواب المقدر جعلوه فيها وقيل الجواب أوحينا والواو مقحمة ومثله قوله تعالى ﴿فلما أسلما وتله للجبين ونـاديناه﴾ أي ناديناه ،قال ابن عباس: كان يوسف في الجب ثلاثة أيام.

﴿وأوحينا إليه﴾ أي إلى يوسف تبشيراً له وتأنيساً لوحشته مع كونه صغيراً اجتمع على انزال الضرر به عشرة رجال من اخوته بقلوب غليظة قد نزعت عنها الرحمة، وسلبت منها الرأفة فإن الطبع البشري دع عنك الدين يتجاوزعن ذنب الصغير ويغتفره لضعفه عن الدفع وعجزه عن أيسر شيء يراد منه، فكيف بصغير لا ذنب له بل كيف بصغير هو أخ وله وهم أب مثل يعقوب.

فلقد أبعد من قال إنهم كانوا أنبياء في ذلك الوقت، فما هكذا عمل الأنبياء ولا فعل الصالحين، وفي هذا دليل على أنه يجوز أن يوحي الله إلى من كان صغيراً ويعطيه النبوة حينئذ كما وقع في عيسى ويحيى بن زكريا وقيل معنى الوحي هنا الإلهام كقوله تعالى ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ والأول أولى، وقد قيل أنه كان في ذلك الوقت قد بلغ مبلغ الرجال وهو بعيد جداً، فإن من كان قد بلغ مبلغهم لا يخاف عليه أن يأكله الذئب.

﴿لتنبئنهم﴾ أي لتخبرن أخوتك ﴿بأمرهم هذا﴾ الذي فعلوه معك بعد

خلوصك مما أرادوه بك من الكيد وأنزلوه عليك من الضرر ﴿و﴾ الحال أن ﴿هم لا يشعرون﴾ بأنك أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بإلقائهم لك في غيابة الجب ولبعد عهدهم بك ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه منك وسيأتي ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن صار إليه ملك مصر.

وقال مجاهد: وهم لا يشعرون بذلك الوحي، وقال قتادة فهون ذلك الوحي عليه ما صنع به وعن ابن عباس قال: وهم لم يعملوا بوحي الله إليه.

﴿وجاءوا أباهم عشاء يبكون﴾ وهو آخر النهار وقيل في الليل ليكونوا في الظلمة أجرأ على الاعتذار بالكذب أي جاءوا باكين أو متباكين لأنهم لم يبكوا حقيقة، بل فعلوا فعل من يبكي ترويجاً لكذبهم وتنفيقاً لمكرهم وغدرهم فلما وصلوا الى أبيهم ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ أي نتسابق في العدو أو في الرمي، وقيل ننتضل بالسهام، ويؤيده قراءة ابن مسعود ننتضل، قال الزجاج: وهو نوع من المسابقة، وقال الأزهري : النضال في السهام والرهان في الخيل والمسابقة تجمعها.

قال القشيري: نستبق أي في الرمي أو على الفرس أو على الأقدام والغرض من المسابقة التدرب بذلك في القتال، وقال السدي: يعني نشتد ونعدو وقال مقاتل: نتصيد أي نستبق إلى الصيد ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ أي ثيابنا ليحرسها ﴿فأكله الذئب﴾ الفاء للتعقيب أي أكله عقب ذلك وقد اعتذروا إليه بما خافه سابقاً عليه ورب كلمة تقول لصاحبها دعني.

﴿وما أنت بمؤمن﴾ أي بمصدق ﴿لنا﴾ في هذا العذر الذي أبدينا والكلمة التي قلناها، وفي هذا الكلام منهم فتح باب اتهامهم كما لا يخفى على صاحب الذوق ﴿ولو كنا﴾ عندك أو في الواقع ﴿صادقين﴾ لما قد علق بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع شدة محبتك له، قال الزجاج: والمعنى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا في هذه القصة لشدة محبتك ليوسف وكذا ذكره ابن جرير وغيره.

وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾

﴿وجاءوا على﴾ فوق ﴿قميصه بدم كذب﴾ وصف الدم بأنه كذب مبالغة كما هو المعروف في وصف اسم العين باسم المعنى فكأنه نفسه صار كذباً أو قيل المعنى بدم ذي كذب أو بدم مكذوب فيه، قال ابن عباس ومجاهد: كان دم سخلة، وقرأ الحسن وعائشة: بدم كدب بالدال المهملة أي بدم طرى يقال للدم الطري كدب، وقال الشعبي: أنه المتغير والكدب أيضاً البياض الذي يخرج في اظفار الأحداث فيجوز أن يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اللونين.

وقد استدل يعقوب على كذبهم بصحة القميص وقال لهم متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص.

ثم ذكر الله سبحانه ما أجاب به يعقوب عليه السلام فقال ﴿قال بل سولت﴾ أي زينت وسهلت وأمرت ﴿لكم أنفسكم أمراً﴾ قال النيسابوري: التسويل تقرير معنى في النفس مع الطمع في اتمامه وهو تفعيل من السول وهو الأمنية قال الأزهري: وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمزة وفي الشهاب من السول بفتحتين وهو استرخاء العصب ونحوه فكأن المسول بذله فيما حرص عليه.

﴿فصبر جميل﴾ قال الزجاج: أي فشأني أو الذي اعتقده صبر جميل وقال قطرب: أي فصبري صبر جميل وقيل فصبر جميل أولى بي قيل الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه لأحد غير الله وعنه ﷺ قال: «لا شكوى فيه من بث لم يصبر» أخرجه ابن جرير وهو مرسل وقال مجاهد: ليس فيه جزع وقرىء فصبراً جميلاً وكذا في

مصحف أنس. قال المبرد: بالرفع أولى من النصب لأن المعنى رب عندي صبر جميل وإنما النصب على المصدر أي فلأصبرن صبراً جميلاً.

﴿والله المستعان﴾ أي المطلوب منه العون والجملة انشائية دعائية لا اخبار منه ﴿على﴾ أي على إظهار حال أو احتمال ﴿ما تصفون﴾ أي تـذكرون من أمر يوسف عليه السلام، وقال قتادة على ما تكذبون.

﴿وجاءت سيارة فأرسلوا﴾ ذكر على المعنى مكان أرسلت ﴿واردهم﴾ هـذا شروع في حكاية خلاص يوسف وما كان بعد ذلـك من خبره، وقـد تقدم تفسير السيارة أي جماعة مسافرون سموا سيارة لسيرهم في الأرض، والمراد بها هنـا رفقة مارة تسير من الشـام او من مدين إلى مصر فـأخطأوا الـطريق وهامـوا حتى نزلـوا قريباً من الجب، وكان في قفرة بعيدة من العمران تـرده المارة والـرعاة وكـان ماؤه ملحاً والوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم وكان اسمه فيـها ذكر المفسـرون مالـك ابن ذعر الخزاعي من العرب العاربة.

﴿فـأدلى دلوه﴾ يقـال أدلى دلوه إذا أرسلهـا ليملأهـا ودلاها إذا أخـرجها قـال الأصمعي والدلو مؤنث وقد يذكر والدلو الذي يستقى بهـا فتعلق يوسف بـالحبل فلما خرج الدلو من البئر أبصره الوارد ﴿قـال يا بشـرى﴾ ومعنى مناداتـه للبشرى أنه أراد حضورها في ذلك الوقت فكأنه قال هذا وقت مجيئك وأوان حضورك.

وقيل أنه نادى رجلاً اسمه بشرى وهذا على ما فيه من البعد لا يتم إلا على قراءة من قرأ يا بشرى وقد قرىء يا بشراي وعليه أهل المدينة وأهل البصرة وأهل الشام قرأوا بإضافة البشرى الى الضمـير فالأول أولى، قـال النحاس: والمعنى من نداء البشرى التبشير لمن حضر وهو أوكد من قولك بشرته كما تقول يا عجباً أي يا عجب هذا من أيامك فاحضر قال: وهذا مذهب سيبويه.

﴿هذا غلام﴾ وكان يوسف أحسن ما يكون من الغلمان، وقد أعطى شطر الحسن وقيل ورثه من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن، فكان حسن الـوجه جعـد الشعر ضخم العينـين مستوي الخلق أبيض اللون غليظ السـاعدين والعضدين والساقـين خميص البطن صغـير السرة وكـان إذا تبسم ظهر النـور من

ضواحكه وإذا تكلم ظهر من ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه.

قال الضحاك: فاستبشروا بأنهم أصابوا غلاماً لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه وقال قتادة: تباشروا به حين استخرجوه من البئر وهي ببيت المقدس معلوم مكانها.

﴿وأسروه﴾ أي أسر الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف عن بقية الرفقة فلم يظهروه لهم وقيل انهم لم يخفوه ولكن اخفوا وجدانهم له في الجب وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء ليبيعوه لهم بمصر. وقال مجاهد: أسره التجار بعضهم من بعض وقيل ضمير الفاعل في أسروه لاخوة يوسف وضمير المفعول ليوسف وذلك أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام فأتاه يوم خروجه من البئر فلم يجده فأخبر اخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلام أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة ان يأخذوه فيقتلوه.

وعن ابن عباس: يعني إخوة يوسف أسروا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع فباعه إخوته بثمن بخس والأول أولى.

﴿بضاعة﴾ أي أخفوه حال كونه بضاعة أي متاعاً للتجارة والبضاعة ما يبضع من المال أي يقطع منه لأنها قطعة من المال الذي يتجر به قيل قاله لهم الوارد وأصحابه أنه بضاعة استبضعناها من الشام مخافة أن يشاركوهم فيه.

﴿والله عليم بما يعملون﴾ أي بما يترتب على عملهم القبيح بحسب الظاهر من الأسرار والفوائد المنطوية تحت باطنه، فإن هذا البلاء الذي فعلوه به كان سبباً لوصوله الى مصر، وتنقله في أطوار حتى صار ملكها، فرحم الله به العباد والبلاد خصوصاً في سني القحط الذي وقع بها كما سيأتي، قيل وفيه وعيد شديد لمن كان فعله سبباً لما وقع فيه يوسف من المحن وما صار فيه من الابتذال يجري البيع والشراء فيه وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كما قال نبينا صلّى الله عليه وسلم في وصفه بذلك.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وشروه﴾ يقال شراه بمعنى اشتراه وشراه بمعنى باعه والمراد هنا الثاني أي باعه الوارد وأصحابه أو اشتراه السيارة من إخوته ﴿بثمن بخس﴾ ناقص أو زيف وقيل ظلم وقيل حرام لأن ثمن الحر حرام والحرام يسمى بخساً لأنه مبخوس البركة أي منقوصها فلم يحل لهم بيعه ولا أكل ثمنه قاله ابن عباس وقيل قليل ﴿دراهم﴾ بدل من ثمن أي لا دنانير ﴿معدودة﴾ قيل باعوه بعشرين درهماً، وقيل بأربعين درهماً وفيه إشارة الى انها قليلة تعد ولا توزن لأنهم كانوا لا يزنون ما دون أوقية وهي أربعون درهماً.

أخرج الطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إنما اشتري يوسف بعشرين درهماً وكان أهله حين أرسل إليهم بمصر ثلثمائة وتسعين إنساناً رجالهم أنبياء ونساؤهم صديقات والله ما خرجوا مع موسى حتى كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً[١]. وقد روي في مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة الى التطويل بذكره.

﴿وكانوا﴾ الضمير يرجع إلى ما قبله على حسب اختلاف الأقوال ﴿فيه﴾ أي في يوسف ﴿من الزاهدين﴾ أصل الزهد قلة الرغبة يقال زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرها، قال سيبويه والكسائي: قال أهل اللغة: زهد فيه أي رغب عنه وزهد عنه أي رغب فيه، والمعنى أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لا يبالون به فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس لأن غرضهم إبعاده عنهم لا تحصيل ثمنه، وقيل ذلك لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به، ولما دخلوا مصر وعرضوه للبيع ترافع الناس في ثمنه.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب الإسراء وفرض الصلوات رقم ١٦٢ من حديث طويل فيه: «فإذا أنا بيوسف (ص). إذا هو قد اعطى شطر الحسن. وأخرجه الإمام احمد ١٤٨/٣، ٢٨٦».

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

﴿وقال الذي اشتراه من مصر﴾ هو العزيز الذي كان على خزائن مصر وكان وزيراً لملك مصر وهو الريان بن الوليد من العمالقة وقيل أن الملك هو فرعون موسى، وقال ابن عباس: كان اسم المشتري قطفير وعن محمد بن اسحاق أطفير بن روحب وكان اسم امرأته راعيل بنت رعابيل، واسم الذي باعه من العزيز مالك بن ذعر قيل اشتراه بعشرين ديناراً، وقيل تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلىء وجواهر. وكان وزنه أربعمائة رطل.

روي انه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة.

فلما اشتراه العزيز قال ﴿لامرأته﴾ عن شعيب الجبائي أن اسم امرأة العزيز زليخا بفتح الزاي وكسر اللام والمد كما في القاموس أو بضم الزاء وفتح اللام على هيئة المصغر كما قال الشهاب وقيل اسمها راعيل بوزن هابيل وقيل أحدهما لقبها والآخر اسمها ﴿أكرمي مثواه﴾ أي منزله الذي يثوي فيه بالطعام الطيب واللباس الحسن يعني أحسني تعهده حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا وساكنة في كنفنا، ويقال للرجل كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة يراد هل تطيب نفسه بثوائك عنده وهل يراعي حق نزولك.

وقال ابن عباس وقتادة: أكرمي منزلته والمثوى محل الثوى وهو الاقامة

وإكرام مثواه كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه لأن من أكرم المحل باحسان الأسرة واتخاذ الفراش ونحوه فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به أو المقام مقحم كما يقال المجلس العالي والمقام السامي ومنه قول آزاد:

قلبي الذي يهواك طال نواه آت إليك فأكرمي مثواه

وعن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته ﴿أكرمي مثواه﴾ الآية والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها ﴿يا أبت استأجره﴾ وأبو بكر رضي الله تعالى عنه حين استخلف عمر.

﴿عسى أن ينفعنا﴾ أي يكفينا بعض المهمات مما نحتاج فيه الى مثله أو إن أردنا بيعه بعناه بربح ﴿أو نتخذه ولداً﴾ أي نتبناه فنجعله ولداً لنا قيل كان العزيز حصوراً لا يأتي النساء أو كان عقيماً لا يولد له كما جرى عليه القاضي والاصفهاني تبعاً للكشاف وقد كان تفرس فيه أنه ينوب عنه فيما إليه من أمر المملكة.

﴿وكذلك﴾ إشارة الى ما تقدم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الجب وعطف قلب العزيز عليه أي مثل ذلك التمكين البديع ﴿مكنا ليوسف﴾ يقال مكنه فيه أي أثبته فيه ومكن له فيه أي جعل له فيه مكاناً ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر يعني أعطيناه مكانة ورتبة عالية ﴿في الأرض﴾ أي في أرض مصر حتى صار متمكناً من الأمر والنهي وبلغ ما بلغ من السلطنة.

﴿ولنعلمه﴾ هو علة معلل محذوف كأنه قيل فعلنا ذلك التمكين لنعلمه،أو كان ذلك الإنجاء لهذه العلة أو معطوف على مقدر وهو أن يقال مكنا ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه ﴿من تأويل

الأحاديث﴾ أي عبارة الرؤيا وتفسيرها قاله مجاهد والتأويل قيل فهم أسرار الكتب الإلهية وسنن من قبله من الأنبياء ولا مانع من حمل ذلك على الجميع.

﴿والله غالب على أمره﴾ أي على أمر نفسه لا يمتنع منه شيء ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد لا دافع لأمره ولا راد لقضائه ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس إلى الضمير ما يتعلق بيوسف من الأمور التي أرادها الله سبحانه في شأنه وقيل المعنى إنه كان من أمر يعقوب أن لا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع وهذا بعيد جداً.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يطلعون على غيب الله وما في طيه من الأسرار العظيمة والحكم النافعة وقيل المراد بالأكثر الجميع لأنه لا يعلم الغيب إلا الله وقيل أن الله سبحانه قد يطلع بعض عبيده على بعض غيبه كما في قوله ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾ وقيل المعنى لا يعلمون أن الله غالب على أمره وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر وقيل ما هو صانع بيوسف وما يريد منه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ولما بلغ أشده﴾ قال سيبويه: الأشد جمع واحده شدة نحو نعمة وأنعم وقال الكسائي: واحده شد بزنة قفل وقال أبو عبيد: أنه جمع لا واحد له من لفظه عند العرب وخالفه الناس في ذلك وهو من الشد وهو الربط على الشيء والعقد عليه والأشد هو وقت استكمال القوة ثم يكون بعده النقصان قيل هو ثلاث وثلاثون سنة قاله ابن عباس وقيل ثماني عشرة سنة قاله سعيد بن جبير وقيل خمس وعشرون سنة قاله عكرمة وقيل أربعون سنة قاله الحسن وقيل ثلاثون سنة قاله السدي وقيل بلوغ الحلم وبه قال ربيعة والشعبي وقيل عشرون سنة قاله الضحاك وقيل غير ذلك مما قد قدمنا في النساء والأنعام.

قال الراغب: وفيه تنبيه على أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى خلقه الذي هو عليه فلا يكاد يزايله ولم يقل هنا واستوى كما قال في شأن موسى في سورة القصص لأن موسى كان قد بلغ أربعين سنة وهي مدة النبوة فقد استوى وتهيأ لحمل أعباء الرسالة وأسرار النبوة وأما يوسف فلم يكن إذ ذاك بلغ هذا السن.

﴿آتيناه حكماً﴾ هو ما كان يقع منه من الأحكام في سلطان ملك مصر ﴿وعلماً﴾ هو العلم بالحكم الذي كان يحكمه وقيل العقل والفهم والنبوة والفقه قاله مجاهد وقيل الحكم هو النبوة والعلم هو العلم بالدين وقيل علم الرؤيا ومن قال أنه أوتي النبوة صبياً قال المراد بهذا الحكم والعلم اللذين آتاهما الله هو الزيادة فيهما.

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿نجزي المحسنين﴾ فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه وجعل عاقبته الخير من جملة ما يجزيه به، وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أولياً.

قال الطبري: هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكن لك في الأرض والأولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبري، وقيل معنى المحسنين المؤمنين، وقيل الصابرين على النوائب قاله الضحاك وقيل المهتدين.

﴿وراودته﴾ أي حين بلغ مبلغ الرجال قاله ابن زيد وهذا رجوع الى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه وقوله ﴿وكذلك مكنا ليوسف﴾ إلى هنا اعتراض جيء به انموذجاً للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه يوسف من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه محسن في جميع أحواله، لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته، ولا يخفى أن مدار حسن التخلص الى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة إنما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز.

والمراودة الارادة والطلب برفق ولين، وقيل هي مأخوذة من الرود أي الرفق والتأني يقال أرودني أي أمهلني وقيل مأخوذة من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء كأن المعنى أنها فعلت في مراودتها له فعل المخادع ومنه الرائد لمن يطلب الماء والكلأ وقد يخص بمحاولة الوقاع فيقال راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع وهي عبارة عن التمحل في مواقعته إياها، وهي مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة

المديون ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل، ومن الآخر سببه.

وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم كما تدين تدان أي كما تجزي تجزى، فإن فعل البادىء وإن لم يكن جزاء أطلق عليه اسمه لكونه سبباً للجزاء، وهذه قاعدة مطردة مستمرة فكأن يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق والزيادة في الحسن والجمال سبباً لمراودة امرأة العزيز له مراوداً والمراد بالمفاعلة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو طلب منها الترك.

وإنما قال ﴿التي هو في بيتها عن نفسه﴾ ولم يقل امرأة العزيز أو زليخا قصداً الى زيادة التقرير، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك، قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لا خير فيه:قالت قرب الوساد وطول السواد ، ولإظهار كمال نزاهته عليه الصلاة والسلام فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكها ينادى بكونه في أعلى معارج العفة والنزاهة، والعدول عن اسمها للمحافظة على الستر أو للاستهجان بذكرها قال قتادة: هي امرأة العزيز.

﴿وغلقت الأبواب﴾ أي أطبقتها قيل في هذه الصيغة ما يدل على التكثير لتعدد المحال وهي الأبواب فيقال غلق الأبواب ولا يقال غلق الباب بل يقال أغلق الباب وقد يقال أغلق الأبواب قيل وكانت الأبواب سبعة كما في البيضاوي وغيره وأنها أغلقتها لشدة خوفها.

﴿وقالت هيت لك﴾ قرأ أبو عمر وعاصم والأعمش والكسائي بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء وبها قرأ ابن عباس وابن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة

ككيف وليت قال ابن مسعود: لا تنطعوا في القراءة فإنما هو مثل قول أحدكم هلم وتعال.

وقرأ ابو اسحق النحوي بكسر التاء وقرأ ابن كثير وغيره بضم التاء مع فتح الهاء وقرأ أبو جعفر ونافع بكسر الهاء وفتح التاء بوزن قيل وغيض وهذه القرآت سبعية وقرأ علي وابن عباس بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة وضم التاء وقرأ ابن عامر وأهل الشام بكسر الهاء وبالهمزة وفتح التاء وهذه كلها لغات في هذه الكلمة وهي في كلها اسم فعل بمعنى هلم وتعال أي اقبل إلا في قراءة كسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة فإنها بمعنى تهيأت لك وأنكرها ابو عمرو وقال: باطل جعلها بمعنى تهيأت اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهي الى اليمن هل تعرف أحداً يقول هكذا، وانكرها ايضاً الكسائي.

وقال النحاس: هي جيدة عند البصريين لأنه يقال هاء الرجل ويهيء هيأة ورجح الزجاج القراءة الأولى وتكون اللام في لك، على القراءة الأولى التي هي فيها بمعنى اسم الفعل للبيان أي لك اقول هذا كما في هلم لك قال النحويون: هيت جاء بالحركات الثلاث فالفتح للخفة والكسر لالتقاء الساكنين والضم تشبيهاً بحيث، وإذا بين باللام نحو هيت لك فهو صوت قائم مقام المصدر كأف له أي لك، أقول هذا وإن لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل إما خبر أي تهيأت وإما أمر أي اقبل.

وقال في الصحاح: يقال هوت به وهيت به إذا صاح به ودعاه، وقد روي عن ابن عباس والحسن: أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه الى نفسها وقال الكسائي: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناها تعال قال أبو عبيدة: فسألت شيخاً عالماً من حوران فذكر أنها لغتهم وعن ابن عباس معناه: هلم لك بالقبطية.

وقال الحسن: أي عليك بالسريانية وقيل هي بالعبرانية ومن قال أنها بغير

لغة العرب يقول أن العرب وافقت أصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنور ولغة العرب الترك في الغساق ولغة العرب الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فإن العرب إذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وعن مجاهد أنها لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها.

﴿قال معاذ الله﴾ أي أعوذ بالله معاذاً مما دعوتني إليه يقال عاذ يعوذ عياذاً ومعاذاً وعوذاً مصدر بمعنى الفعل ﴿إنه﴾ أي الذي اشتراني ﴿ربي﴾ تعليل للإمتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز وقيل الضمير للشأن فكأنه قيل أن الشأن الخطير هذا وهو ربي أي سيدي الذي رباني العزيز ﴿أحسن مثواي﴾ حيث أمرك بقوله أكرمي مثواه فكيف أخونه في أهله وأجيبك إلى ما تريدين من ذلك وقال الزجاج: إن الضمير لله سبحانه أي إن الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرمه.

قال مجاهد والسدي وابن اسحق: يبعد جداً أن يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربه ولو بمعنى السيد لأنه ليس مملوكاً في الحقيقة والأول فيه إرشادها الى رعاية حق العزيز بألطف وجه ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها، والفلاح الظفر والمعنى أنه لا يظفر الظالمون بمطالبهم ومن جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية التي تطلبها امرأة العزيز من يوسف وقيل معناه أنه لا يسعد الزناة.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

﴿ولقد﴾ لام قسم ﴿همت به وهم بها﴾ يقال هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه والمعنى أنه هم بمخالطتها كما همت بمخالطته ومال كل واحد منهما الى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجبلة الخلقية ولم يكن من يوسف عليه الصلاة والسلام القصد إلى ذلك اختياراً كما يفيده ما تقدم من استعاذته بالله وإن ذلك نوع من الظلم بل قصد من غير رضا ولا عزم ولا تصميم، والقصد على هذا الوجه لا مؤاخذة فيه فلا خلاف في أن يوسف لم يأت بفاحشة وإنما الخلاف في وقوع الهم.

ولما كان الأنبياء معصومين عن الهم بالمعصية والقصد إليها أيضاً تكلم أهل العلم في تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلف فمن ذلك ما قاله أبو حاتم قال: كنت أقرأ على أبي عبيدة غريب القرآن فلما أتيت على قوله: ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ قال: هذا على التقديم والتأخير كأنه قال ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، وقال أحمد بن يحيى ثعلب: أي همت زليخاً بالمعصية وكانت مصرة وهم يوسف ولم يوقع ما هم به فبين الهمين فرق ومن هذا قول الشاعر:

همـمت بهـم من ثـنيـة لـؤلـؤ   شفيت غليلات الهوى من فؤاديا

فهذا إنما هو حديث نفس من غير عزم، وقيل هم بها اي هم بضربها وقيل هم بمعنى تمنى أن يتزوجها وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف إلى ما قدمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوي.

ويدل على هذا قوله الآتي ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ وقوله: ﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ ومجرد الهم لا ينافي العصمة فإنها قد وقعت العصمة عن الوقوع في المعصية وذلك المطلوب.

قال الشهاب: قال الإمام: المراد بالهم في الآية خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه ولكن يمنعه دينه عنه وكالمرأة الفائقة حسناً وجمالاً تتهيأ للشاب النامي القوي فتقع بين الشهوة والعفة وبين النفس والعقل مجاذبة ومنازعة، فالهم هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ورؤية البرهان جواذب الحكمة وهذا لا يدل على حصول الذنب بل كلما كان هذه الحال أشد كانت القوة على لوازم العبودية أكمل انتهى.

ويؤيده ما في البيضاوي المراد بهمه عليه الصلاة والسلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشارفة الهم كقولك قتلته لو لم أخف الله انتهى. وقيل انه هم بالفاحشة وأتى ببعض مقدماتها وقد أفرط الزمخشري في التشنيع عليه والصحيح نزاهته عن الهم المحرم أيضاً وقد أطنب الرازي في هذا المقام فليراجعه وقيل معنى الهم أنها اشتهته واشتهاها قال الخفاجي: وأنه أحسن الوجوه.

وجواب لو في ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ محذوف أي لفعل ما هم به واختلف في هذا البرهان الذي رآه ما هو؟ فقيل أن زليخا قامت عند أن همت به وهم بها الى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال ما تصنعين قالت استحي من إلهي هذا أن يراني على هذه الصورة فقال يوسف أنا أولى ان استحي من الله تعالى، روي معنى هذا عن علي بن أبي طالب وفي رواية عن علي بن الحسين، وقيل أنه رأى في سقف البيت مكتوباً ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة، وقيل رأى كفاً مكتوباً عليها وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين، وقيل ان البرهان هو تذكرة عهد الله وميثاقه وما أخذه على عباده.

وقيل نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء، وقيل

رأى صورة يعقوب على الجدار عاضاً على أنملته يتوعده، وبه قال قتادة وأكثر المفسرين والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك، وقيل رأى جبريل في صورة يعقوب قاله ابن عباس وقيل مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، وقيل رأى جبريل قاله البيضاوي.

قال الخفاجي: هذا مع ما في القصص ونحوه مما لا يليق ذكره وتركه أحسن منه كله مما لا أصل له والنص ناطق بخلافه والبرهان ما عنده من العلم الدال على تحريم ما همت به وإنه لا يمكن الهم فضلاً عن الوقوع فيه هذا هو الذي يجب اعتقاده والحمل عليه ا هـ.

وعلى الجملة إن كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والأذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها، والحاصل أنه رأى شيئاً حال بينه وبين ما هم به والله أعلم بما هو وقد أطال المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه بلا دليل يدل عليه من السنة المطهرة واختلفت أقوالهم في ذلك اختلافاً كثيراً.

﴿كذلك﴾ إشارة الى الآراء المدلول عليها بقوله رأى برهان ربه أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك أي مثل تلك الآراء أريناه أو مثل ذلك التثبيت ثبتناه ﴿لنصرف عنه السوء﴾ أي كل ما يسوؤه ﴿والفحشاء﴾ هو كل أمر مفرط القبح وقيل السوء الخيانة للعزيز في أهله والفحشاء الزنا وقيل السوء الشهوة والفحشاء المباشرة وقيل السوء الثناء القبيح والأولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولاً أولياً قال أبو السعود: وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه إليها قط وإلا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وإنما توجه إليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل.

﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ تعليل لما قبله قرىء بكسر اللام وفتحها وهي

سبعية والمعنى على الأولى أن يوسف كان ممن أخلص طاعته لله وعلى الثانية أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة وقد بان عليه السلام مخلصاً مستخلصاً وعلى كلا المعنيين فهو منتظم في سلكهم داخل في زمرتهم من أول أمره بقضية الجملة الأسمية لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية.

قال الخفاجي: قيل فيه إن كل من له دخل في هذه القصة شهد ببراءته فشهد الله بقوله لنصرف الخ وشهد هو على نفسه بقوله هي راودتني ونحوه وشهدت زليخا بقولها ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، وسيدها بقوله إنك كنت من الخاطئين وإبليس بقوله لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين فتضمن إخباره بأنه لم يغوه ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص كما قيل:

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى ... بي الحال حتى صار إبليس من جندي

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾

﴿واستبقا الباب﴾ أي تسابقا إليه وهذا كلام متصل بقوله ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ الآية وما بينهما اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته عليه السلام ووجه تسابقهما أن يوسف يريد الفرار والخروج من الباب وامرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه عن الفتح والخروج ووحد الباب هنا وجمعه فيما تقدم لأن تسابقهما كان إلى الباب البراني الذي يخلص منه إلى خارج الدار قال السيوطي : بادرا إليه يوسف للفرار وهي للتشبث به فأمسكت ثوبه .

﴿وقدّت﴾ أي جذبت ﴿قميصه من دبر﴾ من ورائه فانشق إلى أسفله والقد القطع وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضا قال الشهاب في الريحانة : القد والقط متقاربان معنى وهما نوعان من القطع وفيه لطيفة اتفاقية لأن القد قطع الشيء من نصفه أو قطعه نصفين والقط قطع الطرف كما في الشمع والقلم فكأنه لكونه قليلاً من القطع نقص منه للعين انتهى .

وإسناد القد إليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضاً دخلاً فيه إما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة وإما للايذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب او لخوف الافتضاح .

﴿وألفيا سيدها لدى الباب﴾ أي وجدا العزيز هنالك وعني بالسيد الزوج لأن القبط يسمون الزوج سيداً وإنما لم يقل سيدهما لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحاً فلم يكن سيداً له .

﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾ من الزنا ونحوه والجملة مستأنفة كأنه قيل فما كان منها عند أن ألفيا سيدها لدى الباب قالت هذه المقالة طلباً منها للحيلة وللستر على نفسها فنسبت ما كان منها إلى يوسف أي أيُّ جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا ثم أجابت عن استفهامها بقولها ﴿إلا أن يسجن﴾ أي ما جزاؤه إلا أن يسجن، ويحتمل أن تكون ما نافية أي ليس جزاؤه إلا السجن وانما بدأت بذكر السجن لأن المحب لا يشتهي ايلام المحبوب، وإنما أرادت أن يسجن عندها يوماً أو يومين ولم ترد السجن الطويل.

قال الخازن: وهذه لطيفة فافهمها، وقال ابن الخطيب: وأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب ان يجعل من المسجونين كما قال فرعون لأجعلنك من المسجونين ذكره الكرخي ﴿أو عذاب أليم﴾ قيل هو الضرب بالسياط والظاهر أنه ما يصدق عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره وفي الابهام للعذاب زيادة تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانوناً مطرداً في حق كل أحد كائناً من كان.

وفي ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز اعظام للخطب وإغراء له على تحقيق ما تتوخاه بحكم الغضب والحمية قاله أبو السعود، ولم تقل أن يوسف يجب أن يقابل بأحد هذين الأمرين بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوناً للمحبوب عن الذكر الشر.

فلما سمع يوسف مقالتها أراد أن يبرهن عن نفسه ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾ يعني طلبت مني الفحشاء فأبيت وفررت، والجملة مستأنفة كالجملة الأولى وقد تقدم بيان معنى المراودة أي هي التي طلبت مني ذلك ولم أرد بها سوءاً، ولم يقل هذه ولا تلك لفرط استحيائه وهو أدب حسن حيث أتى بلفظ الغيبة دون الحضور، ولم يكن يريد أن يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه فقال ما قال.

﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ أي من قرابتها وسمي الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل، قيل لما التبس الأمر على العزيز احتاج الى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب قيل كان ابن عم لها واقفاً مع العزيز في الباب، وقيل ابن خال لها وقيل أنه الطفل في المهد تكلم قال السهيلي: وهو الصحيح للحديث الوارد في ذلك عن النبيﷺ في ذكر من تكلم في المهد وذكر من جملتهم شاهد يوسف.

وقيل إنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره في أموره وكان من قرابة المرأة قال ابن عباس: ظبي أنطقه الله كان في الدار وعنه قال: كان رجل ذا لحية من خاصة الملك وعن الحسن قال: هو رجل له فهم وعلم وعن مجاهد قال: إنه ليس بإنسي ولا جنى هو خلق من خلق الله، قلت ولعله لم يحضر قوله تعالى من اهلها وإنما كان الشاهد من أهل المرأة وقرابتها ليكون أقوى في نفي التهمة عن يوسف مع ما وجد من كثرة العلامات الدالة على صدقه.

﴿إن كان قميصه قد من قبل﴾ أي من قدام فقال الشاهد هذه المقالة مستدلاً على بيان صدق الصادق منهما وكذب الكاذب بأن قميص يوسف إن كان مقطوعاً من قبل أي من جهة القبل ﴿فصدقت﴾ أي فقد صدقت بأنه أراد بها سؤا ﴿وهو من الكاذبين﴾ في قوله أنها راودته عن نفسه وقرىء من قبل بضم اللام وكذا من دبر قال الزجاج جعلاهما غايتين.

﴿وإن كان قميصه قد من دبر﴾ أي من ورائه ﴿فكذبت﴾ في دعواها عليه ﴿وهو من الصادقين﴾ في دعواه عليها ولا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدميهما وتاليهما لا عقلاً ولاعادة وليستا من الشهادة في شيء وإنما ذكرتا توسيعاً للدائرة وارخاء للعنان الى جانب المرأة باجراء ما عسى أن يحتمله الحال في الجملة مجرى الظاهر الغالب الوقوع فليس ههنا إلا مجرد إمارة غير مطردة إذ من الجائز ان يجذبه اليها وهو مقبل عليها فينقد القميص من دبر وأن تجذبه وهو مدبر عنها فينقد القميص من قبل.

فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

﴿فلما رأى﴾ العزيز ﴿قميصه﴾ أي قميص يوسف ﴿قد من دبر﴾ كأنه لم يكن رأى ذلك أو قد لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال وعرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام ﴿قال﴾ أي العزيز وقيل هذا من قول الشاهد والأول أولى ﴿إنه﴾ أي الأمر الذي وقع فيه الاختلاف بينكما أو أن قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴿من﴾ جنس ﴿كيدكن﴾ ومكركن وحيلكن يا معشر النساء ﴿إن كيدكن عظيم﴾ خاطب الجنس لأن الحيل والمكايد لا تختص بها، وإنما وصف الكيد بالعظيم لأن كيدهن أعظم من كيد جميع البشر في اتمام مرادهن لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب فانه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس.

وعن بعض العلماء اني أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ وقال للنساء ﴿ان كيدكن عظيم﴾ ولأن الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال.

وفي حاشية الخفاجي: وقيل عليه ان ضعف كيد الشيطان في مقابلة كيد الله وعظم كيدهن بالنسبة للرجال وهو ليس بشيء لأنه استدل بظاهر اطلاقهما ومثله مما تنقبض له النفس وتنبسط يكفي فيه ذلك القدر انتهى.

قال الحفناوي: هذا فيما يتعلق بأمر الجماع والشهوة لا عظيمٌ على الاطلاق إذ الرجال أعظم منهن في الحيل والمكايد في غير ما يتعلق بالشهوة.

ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾

الأمر الذي جرى واكتمه ولا تتحدث به حتى لا يفشو ويشيع بين الناس وقيل معناه لا تكترث به ولا تهتم به فقد بان عذرك ثم أقبل عليها بالخطاب فقال ﴿واستغفري﴾ يا زليخا ﴿لذنبك﴾ الذي وقع منك، قال الكرخي: كان العزيز قليل الغيرة، بل قال في البحر إن قرية تربة إقليم قطفير مصر تقتضي هذا، ولهذا لا ينشأ فيها الأسد ولو دخل فيها لا يبقى.

﴿إنك كنت﴾ بسبب ذلك ﴿من الخاطئين﴾ أي من جنسهم برمي يوسف بالخطيئة، والجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار ولم يقل من الخاطئات تغليباً للمذكر على المؤنث كما في قوله ﴿كانت من القانتين﴾ومعنى من الخاطئين من المتعمدين يقال خطأ إذا أذنب متعمداً وقيل التقدير من القوم الخاطئين وقيل ان القائل ليوسف ولامرأة العزيز بهذه المقالة هو الشاهد الذي حكم بينهما.

﴿وقال نسوة﴾ قرىء نسوة بضم النون قاله أبو البقاء وبكسرها والمراد جماعة من النساء ويجوز التذكير في الفعل المسند إليهن كما يجوز التأنيث ولا واحد له من لفظه بل من معناه وهو امرأة والنساء جمع كثرة أيضاً ولا واحد له من لفظه قيل وكن خمساً وهن امرأة ساقي العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه ﴿في المدينة﴾ هي مصر وقيل مدينة الشمس.

﴿امرأة العزيز﴾ يعني زليخا ﴿تراود فتاها﴾ الفتى في كلام العرب الشاب الحديث السن والفتاة الشابة والمراد هنا غلامها يقال فتاي وفتاتي أي غلامي وجاريتي وجيء بالمضارع تنبيهاً على أن المراودة صارت مهنة لها وديدناً دون الماضي فلم يقلن راودت ﴿عن نفسه﴾ وهو يمتنع منها ﴿قد شغفها حباً﴾ أي غلبها حبه وقيل دخل حبه في شغافها قال أبو عبيدة: شغاف القلب غلافه وهو جلدة عليه، وقيل هو وسط القلب.

وعلى هذا يكون المعنى دخل حبه إلى شغافها فغلب عليه وقرىء شعفها

بالعين المهملة قال ابن الاعرابي: معناه أجرى حبه عليها قال الجوهري: شغفه الحب أحرق قلبه وقال أبو زيد: أمرضه وقال النحاس: معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب لأن شغاف الجبال أعاليها وقد شغف بذلك شغفاً باسكان الغين المعجمة إذا ولع به.

وقرأ الحسن: قد شغفها بضم الغين وحكى بكسرها قال النحاس: ولا يعرف ذلك في كلام العرب إلا شغفاً بفتح الغين، ويقال ان الشغاف الجلدة اللاصقة بالكبد التي لا ترى وهي الجلدة البيضاء فكأنه لصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالكبد وقيل المعنى أن حبه دخل الجلدة حتى أصاب القلب وقيل أن حبه قد أحاط بقلبها كإحاطة الشغاف بالقلب. قال الكلبي: حجب حبه قلبها حتى صارت لا تتعقل شيئاً سواه.

وقال السمين: خرق شغاف قلبها أي حجاب القلب وهو جلدة رقيقة وقيل سويداء القلب، وقيل داء يصل إلى القلب من أجل الحب وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب ليس محيطة به. والمعنى خرق حجابه وأصابه فأحرقه بحرارة الحب، يقال شغف الهوى قلبه شغفاً وشغفه المال زين له فأحبه فهو مشغوف به.

وعن ابن عباس: شغفها غلبها وقال قتلها حب يوسف وقال قد علقها قال آزاد في سبحة المرجان: ولا استبعاد في إظهار العشق من جانب المرأة أما ترى في القرآن الكريم غرام امرأة العزيز بيوسف عليه السلام، والأهاند يذكرون العشق في تغزلاتهم من جانب المرأة بالنسبة الى الرجل خلاف العرب، وسببه ان المرأة في دينهم لا تنكح إلا زوجاً واحداً فحظ عيشتها منوط بحياة الزوج وإذا مات تحرق نفسها معه، والعشق بين الرجل والمرأة وضع إلهي فتارة يكون من الطرفين وتارة يكون من أحدهما وإذا لوحظ الوضع الإلهي فالمرأة معشوقة عاشقة والرجل عاشق معشوق.

وأهل الهند[1] وافقوا العرب في التغزل بالنساء بخلاف الفرس والترك فان تغزلهم بالأمارد فقط، ولا ذكر من المرأة في غزلهم، ولعمر المحبة أنهم لظالمون حيث يضعون الشيء في غير موضعه كما قال سبحانه وتعالى في قوم لوط ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾.

والعرب في التغزل بالأمارد مقلدون لهم والأصل فيهم التغزل بالنساء ومعناه التحدث بهن، وأما الأهاند فلا يعرفون التغزل بالأمارد قطعاً انتهى. هذا وقد عقد رحمه الله الفصل الرابع من كتابه المذكور في بيان أقسام المعشوقات والعشاق وأورد لكل قسم منها أشعاراً عجيبة وأبياتاً غريبة. باعتبار الجهات المتنوعة والحيثيات المتلونة إن رآها السالي تذوب طبيعته الجامدة أو العاذل تشعل ناره الخامدة.

﴿إنا لنراها﴾ جملة مقررة لمضمون ما قبلها أي نعلمها في فعلها هذا وهو المراودة لفتاها ﴿في ضلال﴾ عن طريق الرشد والصواب ﴿مبين﴾ واضح لا يلتبس على من نظر فيه حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر

---

(١) هذا الكلام ينبغي أن تُنَزَّه كتب التفسير منه وقد تركناه للمحافظة على أسلوب المفسّر وعباراته، أ. هـ مصححه.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

﴿فلما سمعت﴾ امرأة العزيز ﴿بمكرهن﴾ أي بغيبتهن اياها سميت الغيبة مكراً لاشتراكهما في الاخفاء وقيل أردن أن يتوسلن بذلك الى رؤية يوسف فلهذا سمي قولهن مكراً، وقيل أنها أسرت إليهن فافشين سرها فسمي ذلك مكراً، عن سفيان قال: أي بعملهن ، وكل مكر في القرآن فهو العمل.

﴿أرسلت إليهن﴾ أي تدعوهن إليها لتقيم عذرها عندهن ولينظرن الى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه قيل دعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتي عيرنها ﴿وأعتدت لهن متكئاً﴾ أي أعدت وأحضرت وهيأت لهن مجالس يتكئن عليها من نمارق ومسانيد وأعتدت من الاعتداد، وهو كل ما جعلته عدة لشيء وقرىء متكاً مخففاً غير مهموز والمتك هو الاترنج بلغة القبط، قاله مجاهد، وعن عكرمة قال: هو كل شيء يقطع بالسكين وعن الضحاك مثله وقيل ان ذلك هو لغة أزد شنوأة وقيل حكي ذلك عن الأخفش قال الفراء: إنه ماء الورد.

وقرأ الجمهور متكئاً بالهمز والتشديد وأصح ما قيل فيه انه المجلس وقيل هو الطعام وبه قال ابن جبير والحسن وقتادة: وسمي متكئاً على الاستعارة قاله الخازن أي للاتكاء عنده على عادة المتكبرين في أكل الفواكه فهو مجاز مرسل وعلاقته المجاورة ، وقيل المتكأ كل ما اتكىء عليه عند طعام أو شراب أو حديث، وحكى القتيبي أنه يقال اتكأنا عند فلان أي أكلنا.

ويؤيد هذا قوله ﴿وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ فإن ذلك إنما يكون لشيء يأكلنه بعد أن يقطعنه والسكين تذكر وتؤنث قاله الكسائي والفراء قال الجوهري: والغالب عليه التذكير والمراد من إعطائها لكل واحدة سكيناً أن

يقطعن ما يحتاج إلى التقطيع من الأطعمة قيل وكان من عـادتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين وكانت تلك السكاكين خناجر ويمكن أنها أرادت بذلك ما سيقع منهن من تقطيع أيديهن .

﴿وقالت﴾ ليوسف ﴿أخرج عليهن﴾ أي في تلك الحالة التي هن عليها من الاتكاء والأكل وتقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام ﴿فلما رأينه أكبرنـه﴾ أي أعظمنه قال مجاهد: واحترمنه وهبنه ودهشن عند رؤيته من شدة جماله، وقيل أمنين وقيل أمذين ومنه قول الشاعر:

إذا ما رأين الفحل من فوق قلة صهلن وأكبـرن المني المقـطرا

وقال الأزهري : أكبـرن بمعنى حضن، والهاء للسكت يقـال أكبرت المـرأة أي دخلت في الكبر بالحيض وقال ابن عباس: حضن من الفرح ووقع منهن ذلك دهشاً وفزعاً لما شاهدنه من جمالـه الفائق وحسنـه الرائق، وأنكـر ذلك أبـو عبيدة وغيره، وقالوا ليس ذلك في كلام العرب، قـال الزجـاج: يقال أكبـرنه ولا يقـال حضنه فليس الاكبار بمعنى الحيض وأجاب الأزهري فقـال: يجوز أن يكـون هاء الوقف لا هاء الكناية.

وقد زيف هذا بأن هاء الوقف تسقط في الوصـل، قالـه ابن الأنباري: أن الهاء كناية عن مصدر الفعل أي أكبرن إكباراً بمعنى حضن حيضاً وسمي الحيض إكباراً لكون البلوغ يعرف به كأنه يدخلهم سن الكبر فيكون في الأصل كناية أو مجازاً ، وهذا منقول عن قتادة والسدي .

قال الرازي : وعندي أنه يحتمل وجهاً آخر هو أنهن إنما أكبرنـه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وشاهدن فيه مهابة ملكية، وهي عدم الالتفـات الى المطعوم والمنكـوح وعدم الاعتـداد بهن فتعجبن من تلك الحالـة فلا جـرم أكبرنـه وأعظمنه ، وحمل الآية على هذا أولى اهـ .

﴿وقطعن أيديهن﴾ أي جرحنها حتى سال الدم وليس المراد به القطع الذي تبين من اليد بل المراد به الخدش والحز وذلك معروف في اللغة كما قال النحاس:

يقال قطع يد صاحبه إذا خدشها وقيل المراد بالأيدي هنا أناملهن وقيل أكمامهن والمعنى أنه لما خرج يوسف عليهن أعظمنه ودهشن وراعهن حسنه حتى اضطربت أيديهن فوقع القطع عليها وهن في شغل عن ذلك بما دهمهن مما تطيش عنده الأحلام وتضطرب له الأبدان وتزول العقول، قال مجاهد: فما أحسن إلا بالدم وقال قتادة: أبنَّ أيديهن حتى ألقينها والأصح أنه كان قطعاً من غير إبانة وعن منبه عن أبيه قال: مات من النسوة اللاتي قطعن أيديهن تسع عشرة امرأة كمداً.

﴿وقلن حاش الله﴾ قرىء بإثبات الألف وبحذفها وبإسكان الشين حاش لله وقرىء حاش الإله وحاشا الله، قلت إثبات الألف وحذفها قراءتان سبعيتان وهذا بالنظر للنطق وأما رسم المصحف فلا تكتب فيه ألف بعد الشين وان نطق بها قال الزجاج: أصل الكلمة من الحاشية بمعنى الناحية يقال كنت في حاشية فلان أي في ناحيته فقولك حاشا لزيد من هذا أي تباعد منه وقال أبو علي: هو من المحاشاة وقيل ان حاش حرف وحاشا فعل.

وكلام أهل النحو في هذه الكلمة معروف ومعناها هنا التنزيه كما تقول آسى القوم حاشا زيداً فمعنى حاشا لله براءة لله وتنزيه له أي صفة العجز عن خلق هذا وأمثاله قال مجاهد: حاشا لله معاذ الله.

﴿ما هذا بشراً﴾ اعمال «ما» عمل «ليس» هي في لغة أهل الحجاز وبهذا نزل القرآن كهذه وكقوله سبحانه ﴿ما هن أمهاتهم﴾ وأما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس وقال الكوفيون: أصله ما هذا ببشر فلما حذفت الباء انتصب قال أحمد ابن يحيى ثعلب: اذا قلت ما زيد بمنطلق فموضع الباء موضع نصب وهكذا سائر حروف الخفض.

وأما الخليل وسيبويه وجمهور النحويين فقد أعملوها عمل ليس وبه قال البصريون والبحث مقرر في كتب النحو بشواهده وحججه وقرأ الحسن وما هذا بشراً على أن الباء حرف جر والشين مكسورة أي ما هذا بعبد يشترى وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله إن هذا إلا ملك كريم.

قال الخفاجي : ورد بأنها صحيحة رواية ودراية أما الأول فلأنها رواهـا في المبهج عن عبد الوارث بسند صحيح ، وأما الثـاني فلأن من قـرأ بهذه قـرأ ملك بكسر اللام فتصح المقابلة أي ما هذا عبد لئيم بملك بل سيد كريم مالـك انتهى

وإنما نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقري ولأنه قـد برز في صـورة قد لبست من الحسن البـديع مـا لم يعهـد عـلى أحـد من البشر ولا أبصر المبصرون ما يقاربه في جميع النسمة البشـرية ثم لمـا نفين عنـه البشريـة لهذه العلة أثبتن له الملكية وإن كن لا يعرفن الملائكة وقلن :

﴿إن هـذا إلا ملك كريم﴾ عـلى الله لأنـه قـد تقـرر في الـطبـاع وركـز في النفوس أنهم على شكل فوق شكل البشر في الذوات والصفات وأن لا شيء أحسن من الملك وأنهم فائقون في كل شيء كما تقرر فيها أن الشياطين على العكس من ذلك ولا أقبح منهم والمقصود من هذا إثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف .

واعلم أنـه لا يلزم من قول النسـوة هذا أن المـلائكـة صـورهم أحسن من صور بني آدم فإنهن لم يقلنه لدليل بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طبـاعهن وذلك ممنـوع ، فإن الله سبحـانه يقـول ﴿لقد خلقنـا الانسان في أحسن تقويم﴾ وظاهر هذا أنـه لم يكن شيء مثله من أنواع المخلوقـات في حسن تقويمـه وكمال صورته فما قاله صـاحب الكشاف في هـذا المقام هـو من جملة تعصباتـه لما رسخ في عقله من أقوال المعتزلة .

عـلى أن هذه المسألة أعني مسألة المفـاضلة بين المـلائكـة والبشر ليست من مسائل الدين في ورد ولا صدر فـما أغنى عباد الله عنهـا وأحوجهم إلى غيـرها من مسـائل التكاليف قال قتـادة : قلن ملك من الملائكـة من حسنه وغـرابة جمـالـه ، وأخـرج أحمد وغيـره عن أنس عن النبي صلى الله عليـه وآله وسلم قـال : أعطى يوسف وأمه شطر الحسن[1] وقد وردت روايات عن جماعـة من السلـف في وصف

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء وفرض الصلوات، رقم ١٦٢ من حديث طويل فيه : «فإذا أنا بيوسف (ص) إذا هو قد أعطى شطر الحسن. وأخرجه الإمام احمد ١٤٨/٣ ، ٢٨٦ .

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

حسن يوسف والمبالغة في ذلك ففي بعضها أنه أعطى نصف الحسن وفي بعضها ثلثه وفي بعضها ثلثيه.

﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه﴾ الاشارة الى يوسف والخطاب للنسوة أي عيرتنني فيه قالت لهن هذا لما رأت افتتانهن بيوسف إظهاراً لعذر نفسها ومعنى فيه في حبه وقيل الاشارة إلى الحب فالضمير له والمعنى فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب والأول أولى ورجحه ابن جرير.

ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعاني تقول هو ذلك العبد الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه، قال الزمخشري: قالت فذلكن ولم تقل هذا وهو حاضر رفعاً لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به فلام البعد هنا لتعظيم رتبته أو لبعد رتبته وحالته عن رتبة البشر وأصل اللوم الوصف بالقبيح وما أحسن اقتباس السيد غلام علي آزاد رحمه الله تعالى من هذه الآية في قوله:

أيا صواحب أكباد مقطعة فذلكن الذي لمتنني فيه

ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدنه مما وقعن فيه عند ظهوره لهن ضاق صدرها عن كتم ما تجده في قلبها من حبه فأقرت بذلك وصرحت بما وقع منها من المراودة له فقالت.

﴿ولقد﴾ اللام لام قسم ﴿راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي استعف وامتنع واستعصى مما أريده طالباً لعصمة نفسه عن ذلك وإنما صرحت بذلك لأنها علمت أنه لا ملامة عليها منهن وأنهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ثم توعدته إن لم

يفعل ما تريده منه كاشفة لجلباب الحياء هاتكة لستر العفاف فقالت.

﴿ولئن﴾ لامُ قسم ﴿لم يفعل ما آمره﴾ أي ما قد أمرته فِيها تقدم ذكره عند أن أغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴿ليسجنن﴾ أي ليعتقل في السجن ﴿وليكوناً من الصاغرين﴾ من صغر بكسر الغين يصغر صغراً وصغاراً والصغير من صغر بالضم صغراً أي من الأذلاء لما يناله من الاهانة ويسلب عنه النعمة والعزة في زعمها فلما سمع يوسف مقالتها هذه عرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز.

﴿قال﴾ مناجياً لربه سبحانه يا ﴿رب السجن﴾ أي دخوله الذي أوعدتني به هذه وقرأ عثمان السجن بفتح السين وهو مصدر سجنه سجناً ﴿ أحب إليّ﴾ أي آثر عندي لأنه مشقة قليلة نافدة أثرها راحات جليلة أبدية ﴿مما يدعونني إليه﴾ من مؤاتاتها التي تؤدي إلى الشقاء والوقوع في المعصية العظيمة التي تذهب بخيري الدنيا والآخرة.

وهذا الكلام منه عليه السلام مبني على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها إذ ليس له شائبة محبة لما دعته إليه وإنما هو والسجن شران أهونها وأقربها إلى الإيثار السجن وإن كان في أحدهما مشقة وفي الآخر لذة.

قال بعضهم: لو لم يقل هذا لم يبتل به فالأولى للعبد أن يسأل الله العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على من كان يسأل الصبر، والتعبير عن الإيثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفاً من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث أن الصغار من فروعه ومستتبعاته وإسناد الدعوة إليهن جميعاً لأن النسوة رغبنه في مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها.

وقيل أنهن جميعاً دعونه إلى أنفسهن أو لأنه كان بحضرتهن والأول أولى ثم جرى على هذا في نسبة الكيد إليهن جميعاً فقال:

﴿وإن لا تصرف عني كيدهن﴾ في تحبيب ذلك اليّ وتحسينه لديّ بأن تثبتني على ما أنا عليه من العصمة والعفة، وأما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصه الله سبحانه في هذه السورة وأما كيد سائر النسوة فهو ما تقدم من الترغيب له في المطاوعة والتخويف من المخالفة وقيل أنها كانت كل واحدة تخلو به وحدها وتقول له يا يوسف اقض لي حاجتي فأنا خير لك من امرأة العزيز.

وقيل أنه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيماً لها أو عدولاً عن التصريح إلى التعريض، والكيد الاحتيال وجزم ﴿أصب إليهن﴾ على أنه جواب الشرط أي أمل إليهن وأتبعهن وأطاوعهن من صبا يصبو إذا مال واشتاق ومنه قول الشاعر؛

إلى هند صبا قلبي   وهند حبها يصبي

والصبوة الميل إلى الهوى ومنه ريح الصبا لأن النفس تستطيبها وتميل إليها لطيب نسيمها وروحها.

﴿وأكن من الجاهلين﴾ أي ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه أو ممن يعمل عمل الجهال أو ممن يستحق صفة الذم بالجهل وفيه أن من ارتكب ذنباً إنما يرتكبه عن جهالة قال أبو السعود: وهذا فزع منه عليه السلام والتجاء إلى ألطاف الله جرياً على سنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم مبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركني وإلا هلكت لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهن.

فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

﴿فاستجاب له ربه﴾ لما قال وإن لا تصرف عني كيدهن كان ذلك منه تعرضاً للدعاء وكأنه قال اللهم اصرف عني كيدهن فالاستجابة من الله تعالى هي بهذا الاعتبار لأنه لم يتقدم دعاء صريح منه عليه السلام وفي إسناد الاستجابة إلى الرب مضافاً إليه عليه السلام ما لا يخفى من اظهار اللطف.

﴿فصرف عنه كيدهن﴾ حسب دعائه والمعنى أنه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية لأنه إذا صرف عنه كيدهن لم يقع شيء مما رمنه، ووجه إسناد الكيد قد تقدم ﴿إنه هو السميع العليم﴾ تعليل لما قبلها من صرف الكيد أي أنه هو السميع لدعوات الداعين له العليم بأحوال الملتجئين إليه وفيه أنه لا يقدر أحد على الانصراف عن المعصية إلا بعصمة الله ولطفه به وهو معنى قوله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿ثم بدا لهم﴾ أي ظهر للعزيز وأصحابه الذين يدبرون الأمر معه ويشيرون عليه في الرأي وأما فاعل بدا فقال سيبويه: هو ليسجننه أي ظهر لهم أن يسجنوه قال المبرد: وهذا غلط لأن الفاعل لا يكون جملة ولكن الفاعل ما دل عليه بدا وهو المصدر فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه وقيل الفاعل المحذوف هو رأي أي وظهر لهم رأي لم يكونوا يعرفونه من قبل وهذا الفاعل حذف لدلالة ليسجننه عليه.

﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ قيل هي القميص وشهادة الشاهد وقطع

الأيدي وقيل هي البركات التي فتحها الله عليهم بعد وصول يوسف إليهم ولم يجد ذلك فيهم بل كانت امرأته هي الغالبة على رأيه الفاعلة لما يطابق هواها في يوسف،وانفاذ ما تقدم منها من الوعيد له بقولها ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين قال ابن عباس: الآيات قد القميص وأثرها في جسده وأثر السكين وقالت امرأة العزيز إن أنت لم تسجنه ليصدقنه الناس.

وعن ابن زيد قال: من الآيات كلام الصبي وقال قتادة: والآيات حزهن أيديهن وقد القميص، وأقول: إن كان المراد بالآيات الآيات الدالة على براءته فلا يصح عد قطع أيدي النسوة منها لأنه وقع منهن ذلك لما حصل لهن من الدهشة عند ظهوره لهن ما ألبسه الله سبحانه من الجمال الذي ينقطع عند مشاهدته عرى الصبر ويضعف عند رؤيته قوى التجلد وإن كان المراد الآيات الدالة على أنه قد أعطى من الحسن ما يسلب عقول المبصرين ويذهب بإدراك الناظرين فنعم يصح عد قطع الأيدي من جملة الآيات ولكن ليس هذه الآيات هي المرادة هنا.

﴿ليسجننه﴾ اللام جواب قسم محذوف على تقدير القول أي قائلين والله ليسجننه وقرىء بالفوقية على الخطاب إما للعزيز ومن معه أو له وحده على طريق التعظيم وفي الخطط للمقريزي قال القضاعي سجن يوسف ببو صير من عمل الجيزة أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبيين أحدهما يوسف سجن به المدة التي ذكر أن مبلغها سبع سنين والآخر موسى وقد بني على أثره بمسجد يعرف بمسجد موسى انتهى.

ثم أطال بيان حال ذلك السجن وموضعه وما يصنع هناك قيل وسبب ظهور هذا الرأي لهم في سجن يوسف أنهم أرادوا ستر القالة وكتم ما شاع في الناس من قصة امرأة العزيز معه، وقيل إن العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته لما علم أنها قد صارت بمكان من حبه لا تبالي معه تحمل نفسها

عليه على أي صفة كانت ﴿حتى حين﴾ أي إلى مدة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين وقيل إلى انقطاع ما شاع في المدينة.

وقال سعيد بن جبير: إلى سبع سنين وقبل إلى خمس وقيل إلى ستة أشهر وقد تقدم في البقرة الكلام في تفسير الحين وحتى بمعنى إلى، قال السدي: جعل الله ذلك الحبس تطهيراً ليوسف من همه بالمرأة وعن ابن عباس قال: عوقب يوسف ثلاث مرات: أما أول مرة فبالحبس لما كان من همه بها والثانية لقوله ﴿أذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين﴾ عوقب بطول الحبس، والثالثة حيث قال ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ فاستقبل في وجهه ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾

﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ التقدير فسجنوه ودخل معه، ومع للمصاحبة وفتيان تثنية فتى وذلك يدل على أنهما عبدان له ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً قال ابن عباس: أحدهما خازن الملك على طعامه والآخر ساقيه وقد كانا وضعا للملك سماً لما ضمن لهما أهل مصر مالاً في مقابلة ذلك ثم إن الساقي رجع من ذلك وقال للملك لا تأكل الطعام فإنه مسموم وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم فقال الملك للساقي: إشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز: كل فأبى فجرب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما وكان دخولهما السجن مع دخول يوسف وقيل قبله وقيل بعده قال ابن جرير: انهما سألا يوسف عن علمه فقال: إني أعبر الرؤيا فسألاه عن رؤياهما كما قص الله سبحانه.

﴿قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً﴾ أي رأيتني والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة والمعنى إني أراني أعصر عنباً فسماه باسم ما يُؤَوّل إليه لكونه المقصود من العصر وقراءة ابن مسعود وإني أعصر عنباً لا تدل على الترادف، قال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب فقال له

ما معك قال خمر وقيل معناه أعصر عنب خمر فهو على حذف مضاف وقيل الخمر هو العنب حقيقة بلغة غسان وعمان وهذا الذي رأى هذه الرؤيا هو الساقي وكان بين دخوله السجن وبين الرؤيا خمس سنين وهذه الجملة مستأنفة بتقدير سؤال وكذلك الجملة التي بعدها وهي:

﴿وقال الآخر﴾ أي الخباز ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً﴾ ثم وصف الخبز هذا بقوله ﴿تأكل﴾ أي تنهش ﴿الطير منه﴾ ثم قالا ليوسف جميعاً بعد أن قصا رؤياهما عليه﴿نبئنا بتأويله﴾ أي بتأويل ما قصصناه عليك من مجموح المرئيين أو بتأويل المذكور لك من كلامنا وقيل إن كل واحد منهما قال له عقب قص رؤياه عليه فيكون الضمير راجعاً إلى ما رآه كل واحد منهما وقيل إن الضمير في بتأويله موضوع موضع اسم الإشارة بطريق الاستعارة فإن الإشارة يشار به إلى متعدد والتقدير بتأويل ذلك

﴿إنا نراك من المحسنين﴾ أي من الذين يحسنون عبارة الرؤيا وكذا قال الفراء: ان معناه من العالمين الذين أحسنوا العلم وقال ابن اسحاق من المحسنين إلينا إن فسرت ذلك أو من المحسنين إلى أهل السجن قد روي أنه كان كذلك قال قتادة: وكان يعزي حزنتهم ويداوي مرضاهم ورأوا منه عبادة واجتهاداً فأحبوه وعن الضحاك قال: كان إحسانه إذا مرض إنسان في السجن قام عليه وإذا ضاق عليه المكان أوسع له وإذا احتاج جمع له وعن ابن عباس قال: دعا يوسف لأهل السجن ففال اللهم لا تعم عليهم الأخبار وهون عليهم مر الأيام.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾

﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ من جهة الله أو الملك والجملة صفة لطعام ﴿إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ومعنى ذلك أنه يعلم شيئاً من الغيب بإلهام الله تعالى وأنه لا يأتيهما إلى السجن طعام في اليقظة إلا أخبرهما بماهيته قبل أن يأتيهما وقيل أراد به في النوم والأول هو الأظهر وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه بل جعل عليه السلام مقدمة قبل تعبيره لرؤياهما بياناً لعلو مرتبته في العلم وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين فهو كقول عيسى عليه السلام وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم.

وإنما قال يوسف لهما بهذا ليحصل الانقياد له منهما فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا يأتيكما في حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما أي بينت لكما ماهيته وكيفيته وسماه تأويلاً بطريق المشاكلة لأن الكلام في الرؤيا أو المعنى إلا نبأتكما بما يؤول إليه الكلام من مطابقة ما أخبركما به للواقع.

﴿ذلكما﴾ أي التأويل والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما ﴿مما علمني ربي﴾ مما أوحاه إليّ وألهمني إياه لا من قبيل الكهانة والتنجيم ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ، ثم بين لهما أن ذلك الذي ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم

الجمة هو سبب ترك الملـة التي لا يؤمن أهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملة الأنبياء من آبائه فقال.

﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ وهـو كلام مستـأنف يتضمن التعليل لما قبله والمراد بالترك هو عدم التلبس بذلك من الأصل وعدم الالتفات إليه بالكلية لا أنه قد كان تلبس به ثم تركه كما يدل عليه قوله ما كان لنا أن نشرك بالله ثم وصف هؤلاء القوم بما يدل على تصلبهم في الكفر وتهالكهم عليه فقال ﴿وهم بالآخرة هم كافـرون﴾ أي هم يختصون بـذلك دون غيـرهم لإفراطهم في الكفر بالله.

﴿واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب﴾ وسماهم آباء جميعاً لأن الأجداد آباء وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب ثم الأب لكون ابراهيم هو أصل هذه الملة التي كان عليها أولاده ثم تلقاها عنه اسحاق ثم يعقوب وإنما قاله عليه السلام ترغيباً لصاحبيه في الإيمان وتنفيراً لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لأن التخلية متقدمة على التحلية.

﴿مـا كان﴾ أي ما صح وما استقام فضلاً عن الوقوع ﴿لنا﴾ معاشر الأنبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا ﴿أن نشرك بالله من شيء﴾ أي شيء كان من ملك أو جني أو انسي فضلاً أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر قال الواحدي: لفظة من زائدة مؤكدة كقولك ما جاءني من أحد.

﴿ذلك﴾ أي الايمان والتوحيد وعدم الاشراك والعلم الذي رزقنا ﴿من فضل الله﴾ أي ناشيء من تفضلاته ﴿علينا﴾ ولطفه بنا بما جعله لنا من النبوة المتضمنة للعصمة عن معاصيه ﴿و﴾ من فضل الله ﴿على الناس﴾ كافة ببعثه الأنبياء إليهم وهدايتهم إلى ربهم وتبين طرائق الحق لهم ﴿ولكن أكثر الناس﴾

وهم الكفار ﴿لا يشكرون﴾ الله سبحانه على نعمه التي أنعم بها عليهم فيؤمنون به ويوحدون ويعملون بما شرعه لهم أو لا يستدلون بما نصب لهم من الدلائل وإنزال الآيات فيلغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها أو لا يصرفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خلقت هي له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الأفاقية والأنفسية والعقلية والنقلية.

قال قتادة: إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله ويشكر ما بالناس من نعمة، ذكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول يا رُبَّ شاكر نعمة غير منعم عليه لا يدري ويا رب حامل فقه غير فقيه ثم دعاهم إلى الإسلام صريحاً فقال:

﴿ يا صاحبي السجن﴾ جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه وقيل المراد يا صاحبي في السجن لأن السجن ليس بمصحوب بل مصحوب فيه وأن ذلك من باب يا سارق الليلة وعلى الأول يكون من باب الاضافة الى الشبيه بالمفعول به والمعنى يا ساكني السجن كقوله أصحاب الجنة وأصحاب النار قال قتادة: لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما إلى حظهما من ربهما وإلى نصيبهما من آخرتهما فقال:

﴿أأرباب متفرقون﴾ الاستفهام للإنكار مع التوبيخ والتقريع ومعنى التفرق هنا هو التفرق في الذوات والصفات والعدد أي هل الأرباب المتفرقون في ذواتهم المختلفون في صفاتهم المتنافون في عددهم ﴿خير﴾ لكما يا صاحبي السجن ﴿أم الله الواحد﴾ أي المعبود بحق المتفرد في ذاته وصفاته الذي لا ضد له ولا ند ولا شريك ﴿القهار﴾ الذي لا يغالبه مغالب ولا يعانده معاند وقيل استفهام تقرير أي طلب الإقرار بجواب الاستفهام أي أقروا واعلموا أن الله هو الخير والأول أولى.

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

أورد يوسف عليهما هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام وقد قيل أنه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب ولهذا قال لهما ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء﴾ فارغة لامسميات لها وإن كنتم تزعمون أن لها مسميات وهي الآلهة التي تعبدونها لكنها لما كانت لا تستحق التسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لامسميات لها.

وقيل المعنى ما تعبدون من دون الله إلا مسمياته أسماء وقيل خطاب لأهل السجن جميعاً لا لخصوص الصاحبين، وهذا هو الأظهر وكذلك ما بعده من الضمائر لأنه قصد خطاب صاحبي السجن ومن كان على دينهم.

﴿سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ من تلقائكم بمحض جهلكم وضلالتكم وليس لها من الإلهية شيء إلا مجرد الأسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر والتقدير سميتموها آلهة من عند أنفسكم ﴿ماأنزل الله بها﴾ أي بتلك التسمية المستتبعة للعبادة ﴿من سلطان﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿إن﴾ أي ما ﴿الحكم﴾ في أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية ﴿إلا لله﴾ عز سلطانه لأنه المستحق لها بالذات إذ هو الذي خلقكم وخلق هذه الأصنام التي جعلتموها معبودة بدون حجة ولا برهان ﴿أمر أن لا﴾ أي بأن لا ﴿تعبدوا إلا إياه﴾ حسبما تقضي به قضية العقل أيضاً والجملة مستأنفة أو حالية والأول هو الظاهر.

والمعنى انه امركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون أنه معبود، ثم بين لهم ان عبادته وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره فقال:

﴿ذلك﴾ أي تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿الدين القيم﴾ أي المستقيم الثابت العدل الذي تعاضدت عليه البراهين عقلاً ونقلاً ﴿ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ ان ذلك هو دينه القويم وصراطه المستقيم لجهلهم وبعدهم عن الحقائق أو لا يعلمون ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون وهذا يدل على ان العقوبة تلزم العبد وان جهل اذا أمكن له العلم بطريقه.

ثم بعد تحقيق الحق ودعوتهما إليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ومرتبة علمه الواسع شرع في تفسير ما استفسراه ولكونه بحثاً مغايراً لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال.

﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما﴾ أي الساقي وانما أبهمه لكونه مفهوماً أو لكراهة التصريح للخباز بانه الذي سيصلب ﴿فيسقي ربه﴾ أي مالكه ﴿خمراً﴾ وهي عهدته التي كان قائماً بها في خدمة الملك فكأنه قال أما أنت أيها الساقي فستعود بعد ثلاث من الايام الى ما كنت عليه ويدعوك الملك ويطلقك من الحبس.

﴿وأما الآخر﴾ وهو الخباز فيخرج بعد ثلاث ﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ تعبيراً لما رآه من أنه حمل فوق رأسه خبزاً فتأكل الطير منه ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ وهو ما رأياه وقصاه عليه يقال استفتاه إذا طلب منه بيان حكم شيء سأله عنه مما أشكل عليه وهما قد سألاه تعبير ما أشكل عليهما من الرؤيا والمراد بالأمر ما يؤول إليه أمرهما ولذلك وحده قاله البيضاوي.

وقال الزمخشري: المراد بالأمر ما اتهما به من سم الملك وما سجنا من

أجله عن ابن مسعود قال: مـا رأى صاحبـا يوسف شيئـاً إنما تحـالما ليجـربا علمـه فلما أول رؤياهما قالا إنما كنا نلعب ولم نر شيئاًفقال قضي الأمر، الآية يعني وقعت العبارة فصار الامر على ما عبر يوسف وقال قوم بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة وعن أبي مجلز قال: كان أحد اللذين قصا على يوسف الرؤيا كاذباً وكان هذا التعبير بالوحي كما ينبىء عنه قوله قضي الأمر وقيل هو بالاجتهاد.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وقال للذي ظن انه ناج منهما﴾ أي قال يوسف عليه السلام والظان هو أيضاً يوسف عليه السلام والمراد بالظن العلم لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابيّ وهلاك الخباز ، هكذا قال جمهور المفسرين .

وقيل الظاهر انه على معناه لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظناً ، والأول أولى وأنسب بحال الأنبياء ، ولا سيما وقد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه الله على شيء من علم الغيب كما تقدم .

﴿اذكرني عند ربك﴾ هي معقول القول ، أمره بأن يذكره عند سيده ويقول له إن في السجن غلاماً محبوساً ظلماً منذ خمس سنين ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والاطلاع على شيء من علم الغيب فخرج .

﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ وكانت هذه المقالة منه صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان ، فيكون ضمير المفعول في أنساه عائداً الى يوسف عليه السلام ، هكذا قال أكثر المفسرين ، ويكون المراد بربه في قوله ذكر ربه هو الله سبحانه ، أي أنسى الشيطان يوسف عليه السلام ذكر الله تعالى في تلك الحال . فقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما يذكره عند سيده ليكون ذلك سبباً لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البينّ عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات ما يدل على براءته ، وذلك غفلة عرضت له عليه السلام فإن الإستعانة

بالمخلوق في دفع الضرر وان كانت جائزة إلا أنه لما كان مقام يوسف عليه السلام أعلى المقامات ورتبته أعلى الرتب وهي منصب النبوة والرسالة لاجرم صار مؤاخذاً بهذا القدر ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه وهو الذي نجا من الغلامين وهو الشرابي ، والمعنى أنسى الشرابي الشيطان ذكر سيده ، أي ذكره لسيده فلم يبلغ اليه ما أوصاه به يوسف عليه السلام من ذكره عند سيده ، ويكون المعنى فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف عليه السلام مع خلوصه من السجن ورجوعه الى ما كان عليه من القيام بسقي الملك .

وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء . وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف عليه السلام ونسبته الى الشيطان على طريق المجاز ، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله سبحانه .

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني[1] . ورجح أيضاً بأن النسيان ليس بذنب ، فلو كان الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف عليه السلام لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين ، وأجيب بأن النسيان بمعنى الترك وانه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه ، ويؤيد رجوع الضمير الى يوسف عليه السلام ما بعده من قوله ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾ ويؤيد رجوعه الى الذي نجا من الغلامين قوله فيما سيأتي ﴿الذي نجا منهما وادَّكر بعد أمة﴾ .

---

(١) مسلم ٥٧٢ .

﴿فلبث﴾ يوسف عليه السلام ﴿في السجن﴾ بسبب ذلك القول الذي قاله للذي نجا من الغلامين أو بسبب ذلك الإنساء ، أخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير والطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو لم يقل يوسف عليه السلام الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله[٢] . وعن عكرمة مرفوعاً نحوه وهو مرسل ﴿بضع سنين﴾ البضع ما بين الثلاث الى التسع كما حكاه الهروي عن العرب وبه قال قتادة .

وحكى عن أبي عبيدة أن البضع ما دون نصف العقد ، يعني ما بين واحد الى أربعة ، وقيل ما بين ثلاث الى سبع قاله مجاهد ، وقيل هو ما دون العشرة . وحكى الزجاج انه ما بين الثلاث الى الخمس ، وقد اختلف السلف في تعيين قدر المدة التي لبث فيها يوسف عليه السلام في السجن، فقيل سبع سنين، قاله ابن جريج وقتادة ووهب بن منبه، وقيل اثنتي عشرة سنة، قاله ابن عباس، وقيل أربع عشرة سنة قاله الضحاك، وقيل خمس سنين.

وعن أنسٍ قال: أوحى الى يوسف عليه السلام من استنقذك من القتل حين هم اخوتك أن يقتلونك ؟ قال : أنت يارب ، قال: فمن استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه ؟ قال: أنت يارب ، قال : فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك ؟ قال: أنت يارب ، قال: فمالك نسيتني وذكرت آدمياً ؟ قال: جزعاً وكلمة تكلم بها لساني ، قال: فوعزتي لأخلدنك في السجن بضع سنين ، فلبث فيه سبع سنين ، اخرجه ابن أبي شيبة وعبدالله بن أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله .

---

(٢) ابن كثير ٢/ ٤٧٩ .

﴿و﴾ لما دنا فرج يوسف عليه السلام ﴿قال الملك﴾ أي الملك الأكبر وهو الريان ابن الوليد الذي كان العزيز وزيراً له ﴿إني أرى﴾ أي رأيت في منامي ﴿سبع بقرات سمان﴾ خرجن من نهر يابس ﴿يأكلهن سبع عجاف﴾ أي مهازيل في غاية الضعف ، والتعبير في الموضعين بالمضارع لاستحضار الصورة والسمان جمع سمين وسمينة ، يقال رجال سمان كما يقال نساء كرام ، والعجاف جمع عجفاء سماعي وقياس جمعه عجف لأن فعلى وافعل لا تجمع على فعال ولكنه عدل عن القياس حملاً على السمان لأنه نقيضه .

﴿و﴾ رأيت ﴿سبع سنبلات خضر﴾ قد انعقد حبها ﴿و﴾ رأيت سبعاً ﴿أخر يابسات﴾ وهي التي قد بلغت حد الحصاد ، وانما حذف اسم العدد لأن التقسيم في البقرات يقتضي التقسيم في السنبلات وكان قد رأى ان السبع السنبلات اليابسات قد أدركت الخضر وٱلْتَوَتْ عليها حتى غلبتها ولم يبق من خضرتهن شيء ولعل عدم التعرض لذكر هذا في النظم القرآني للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات ، ولما شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوي الكامل حتى غلبه وقهره أراد أن يعرف ذلك فقال:

﴿يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي﴾ الخطاب للأشراف مَن قومه ، وقيل هم السحرة والكهنة والمعبرون للرؤيا ، والمعنى أخبروني بحكم هذه الرؤيا ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ أي تعلمون عبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية الى المعاني النفسانية التي هي مثالها ، وأصل العبارة مشتقة من عبور النهر وهو المجاوزة ، فمعنى عبرت النهر بلغت شاطئه ، فعابر الرؤيا يخبر بما يؤول اليه أمرها .

قال الزجاج : اللام في للرؤيا للبيان ، وقيل هو لتقوية العامل وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل .

قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾

﴿قالوا﴾ هذه ﴿أضغـاث أحلام﴾ أي تخاليطها وهي جمع ضغث وهو في الأصل كل مختلط من أخلاط من بقل أو حشيش أو غيرهما فاستعير للرؤيا الكاذبة ، والأحلام جمع حلم وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان ، والاضافة بمعنى من أي هي اضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تؤول اليها ويعتني بأمرها وجمعوها وهي رؤيا واحدة مبالغة في وصفها بالبطلان كما في قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك إلا فرساً واحداً وعمامة فردة ، أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف ، والسنابل السبع الخضر والأخر اليابسات .

فتأمل حسن موقع الأضغـاث مع السنابل ، فللّه در شأن التنزيل ، ويجوز ان يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا . قال ابن عباس : أضغاث أحلام يقول مشتبهة ، وعنه قال الكاذبة ؛ وعن الضحاك مثله .

﴿وما نحن بتأويـل الأحلام﴾ المختلطة ﴿بعـالمين﴾ يـريدون بـالأحلام المنامات الباطلة خاصة ، أي ليس لها تأويل عندنا وإنما التأويل للمنامات

الصادقة كأنه مقدمة ثانية للعذر لجهلهم بتأويله ؛ نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له لا مطلق العلم بالتأويل .

وقيل إنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل مطلقاً ولم يدعوا انه لا تعبير لهذه الرؤيا ، وقيل إنهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها ولم يكن ما ذكروه من نفي العلم حقيقة .

﴿وقال الذي نجا منهما﴾ أي من الغلامين ، وهو الساقي الذي قال له يوسف عليه السلام : اذكرني عند ربك ﴿وادَّكر﴾ بالدال المهملة على قراءة الجمهور وهي الفصيحة ، وقرىء بالمعجمة أي تذكر الساقي يوسف عليه السلام وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا ﴿بعد أمة﴾ مدة طويلة وحين بعيد ، ومنه الى أمة معدودة الى وقت قال ابن درستويه : والأمة لا تكون على الحين إلا على حذف مضاف وإقامة المضاف اليه مقامه ، كأنه قال: والله أعلم وادكر بعد حين أمة او بعد زمن أمة .

قيل وسمى الحين من الزمان أمة لأنه جماعة أيام ، والأمة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع ، وكل جنس من الحيوان أمة، وقرىء بعد أمة أي بعد نسيان، وإمة بكسر الهمزة أي بعد نعمة ، وهي نعمة النجاة . وعن الحسن : بعد أمة من الناس . وقال ابن عباس : بعد سبع سنين وقيل تسع سنين وقيل سنتين .

﴿أنا انبئكم بتأويله﴾ أي اخبركم به بسؤالي عنه من له علم بتأويله ، وهو يوسف عليه السلام او أدلكم عليه او أخبركم بمن عنده تأويله ﴿فأرسلون﴾ خاطب الملك بلفظ الجمع للتعظيم ، او خاطبه ومن كان معه من الملأ ، طلب منهم أن يرسلوه الى يوسف عليه السلام ليقص عليه رؤيا الملك حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك الى الملك او إلى السجن .

فأتى السجن فقال يا ﴿يوسف أيها الصديق﴾ إنما سماه صديقاً لأنه لم يجرب عليه كذباً قط والصديق الكثير الصدق والذي لم يكذب قط ، وقيل لأنه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في السجن ، وجملة مجيء الرسول ليوسف عليه السلام في السجن أربع مرات هذه أولاها .

﴿أفتنا﴾ أي اخبرنا وبيِّن لنا ﴿في سبع بقـرات سمان يـأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ وترك ذكر الرؤيا اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف عليه السلام بأن ذلك رؤيا وان المطلوب منه تعبيرها .

ولما عاين علو رتبته عليه السلام في الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولاً نبئنا بتأويله ، وفي قوله أفتنا مع انه المستفتي وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة ، وانه في ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال ﴿لعلي أرجع الى الناس﴾ أي الى الملك ومن عنده من الملأ بتأويل هذه الرؤيا او الى أهل البلد إذ قيل إن السجن لم يكن فيه .

﴿لعلهم يعلمون﴾ ما تأتي به من تأويل هذه الرؤيا او يعلمون فضلك ومنزلتك ومعرفتك لفن الرؤيا ، وانما لم يبت الكلام فيها لأنه لم يكن جازماً بالرجوع فربما اخترمته المنية دونه ولا يعلمهم .

﴿قال تزرعون﴾ مستأنفة كغيرها مما يرد هذا المورد ﴿سبع سنين دأباً﴾ أي متوالية متتابعة ، قرىء بفتح الهمزة وسكونها وهما لغتان في مصدر دأب في العمل إذا جد فيه وتعب ، قال الفراء : حرك لأن فيه حرفاً من حروف الحلق ، وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز في كلمات معروفة .

وأصل معنى الدأب التعب ويكنى به عن العادة المستمرة لأنها تنشأ عن

مداومة العمل اللازم له التعب وانتصابه بفعل مقدر أي تدأبون دأباً ، قاله سيبويه ، او على أنه مصدر واقع موقع الحال فيكون فيه الأوجه المعروفة إما المبالغة وإما وقوعه موقع الصفة وإما على حذف مضاف أي دائبين او ذوي دأب ، او جعلهم نفس الدأب مبالغة ، فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان والسنبلات الخضر بسبع سنين فيها خصب ، والعجاف واليابسات بسبع سنين فيها جدب وأوَّلَ ابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة ، واستدل بالسبع الخضر على ما ذكره في التعبير من قوله :

﴿فما حصدتم﴾ في كل سنة من السنين المخصبة ﴿فذروه﴾ أي ذلك المحصود ﴿في سنبلة﴾ وقصبه ليكون القصب علفا للدواب ولا تفصلوه عنها لئلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ، قيل وهذه نصيحة منه لهم خارجة عن التعبير وما شرطية او موصولة وسنبل فنعل بضم الفاء والعين الواحدة سنبلة ، يقال سنبل الزرع أي أخرج سنبله .

﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾ في هذه السنين المخصبة فإنه لا بد لكم من فصله عن سنبله واخراجه عنها ، واقتصر على استثناء المأكول دون ما يحتاجون اليه من البذر الذي يبذرونه في أموالهم لأنه قد علم من قوله تزرعون .

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ السبع السنين المخصبة ﴿سبع شداد﴾ أي سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة يصعب أمرها على الناس وهي تأويل السبع العجاف والسبع اليابسات .

﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾ من تلك الحبوب المتروكة في سنابلها في السنين المخصبات ، واسناد الأكل الى السنين مجازي تطبيقاً بين المعبر والمعبر به كما في نهاره صائم .

وفيه تلويح بأنه تأويل الأكل العجاف السمان واللام في لهن ترشيح لذلك فكأن ما ادخر في السنابل من الحبوب شيء قد هيء وقدم لهن كالذي يقدم للنازل وإلا فهو في الحقيقة مقدم للناس فيهن والمعنى يأكل الناس فيهن أو يأكل أهلهن ما قدمتم أي ما أدخرتم لهن ﴿إلا قليلا مما تحصنون﴾ أي مما تحبسون من الحب لتزرعوا به لأن في استيفاء البذر تحصين الأقوات .

وقال أبو عبيدة : معناه تحرزون وقيل تدخرون وقيل تخزنـون والمعنى واحد والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع ،

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لقد عجبت من يوسف عليه السلام وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط عليهم أن يخرجوني ولقد عجبت من يوسف عليه السلام وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر»[1]

---

(١) وهو حديث مرسل وقد أورده ابن كثير في تفسيره ٢/٤٨١ .

ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ السنين المجدبات ﴿عام﴾ سنة وهذه بشارة منه لهم زائدة على تعبير الرؤيا ولعله علم ذلك بالوحي او بأن انتهاء الجدب بالخصب على العادة الآلهية حيث يوسع على عباده بعد تضييقه عليهم ﴿فيه يغاث الناس﴾ من الإغاثة او الغوث وهو الفرج وزوال الهم والكرب والغيث المطر وقد غاث الغيث الأرض أي أصابها وغاث الله البلاد يغيثها غوثاً امطرها فمعنى يغاث الناس يمطرون .

﴿وفيه يعصرون﴾ الاشياء التي تعصر كالعنب والسمسم والزيتون ، وقيل أراد حلب الألبان ، وقيل معناه ينجون مأخوذ من العصرة وهي المنجاة ، قال ابو عبيدة: والعصر بالتحريك الملجأ والمنجى واعتصرت بفلان التجأت به وقرىء بتاء الخطاب ويعصرون بضم الياء وفتح الصاد ومعناه يمطرون ومنه قوله تعالى ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً﴾ قال ابن عباس : يصيبهم فيه غيث يعصرون فيه العنب والزبيب ومن كل الثمرات ويحتلبون وعنه قال : اخبرهم بشيء لم يسألوه عنه كان الله قد علمه إياه وفيه يعصرون السمسم دهناً والعنب خمراً والزيتون زيتاً والمراد كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار .

﴿وقال الملك﴾ في الكلام حذف قبل هذا والتقدير فذهب الرسول الى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف عليه السلام من تعبير الرؤيا وقال الملك لمن بحضرته ﴿أئتوني به﴾ أي بيوسف عليه السلام رغب الى رؤيته ومعرفة حاله بعد ان علم بفضله ما علمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه ﴿فلما جاءه﴾ أي إلى يوسف عليه السلام ﴿الرسول﴾ واستدعاه الى حضرة الملك وأمره بالخروج من السجن وهذه هي المرة الثانية من مجيء الرسول اليه في السجن .

﴿قال﴾ يوسف عليه السلام للرسول قاصداً اظهار براءته ﴿ارجع الى ربك﴾ أي سيدك ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ أمره بأن يسأل الملك عن ذلك وتوقف عن الخروج من السجن ولم يسارع الى إجابة الملك ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه وانه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلماً بيناً . قال ابن عباس : أراد يوسف عليه السلام العذر قبل ان يخرج من السجن ولقد أعطى عليه السلام من الحلم والصبر والاناة ما تضيق الأذهان عن تصوره .

ولهذا ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : (ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف عليه السلام لاجبت الداعي)[1] يعني الرسول الذي جاء يدعوه إلى الملك ، قال ابن عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبراً وطلباً لبراءة ساحته وذلك انه خشي ان يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون هذا الذي راود امرأة العزيز .

وفيه دليل على ان الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها وإنما قال فاسأله ما بال النسوة وسكت عن امرأة العزيز رعاية لذمام الملك العزيز او خوفاً منه من كيدها وعظم شرها وذكر السؤال عن تقطيع الأيدي ولم يذكر مراودتهن له تنزيهاً منه عن نسبة ذلك اليهن ولذلك لم ينسب

---

(١) مسلم ١٥١ - البخاري ١٥٩٣.

المراودة فيما تقدم الى امرأة العزيز إلا بعد ان رمته بدائها وانسلت وقد اكتفى هنا بالاشارة الاجمالية بقوله :

﴿ان ربي بكيدهن عليم﴾ فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنياً عن التصريح وقيل المراد بالرب هنا الملك وجعله رباً لنفسه لكونه مربياً له والأول أولى وفيه تعظيم كيدهن والوعيد لهن على كيدهن .

﴿قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا قال الملك بعد أن أبلغه الرسول ما قال يوسف عليه السلام والخطب الشأن العظيم الذي يحق له ان يخاطب فيه صاحبه خاصة وإنما يخطب في الأمور العظام قال الأزهري : تقول هذا خطب جليل وخطب يسير والمعنى ما شأنكن وكانت النسوة أربعين كما تقدم وقد تقدم معنى المراودة وإنما نسب إليهن المراودة لأن كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدم .

ومن جملة من شمله خطاب الملك امرأة العزيز او أراد بنسبة ذلك إليهن وقوعه منهن في الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشياً عن التصريح منه بنسبة ذلك اليها لكونها امرأة وزيره وهو العزيز فأجبن عليه بقولهن ﴿قلن حاش لله﴾ أي معاذ الله تنزيهاً له عن ان يتصف بالعجز عن خلق بشر عفيف مثل هذا .

﴿ما علمنا عليه من سوء﴾ أي من أمر سيء ينسب اليه من خيانة في شيء من الأشياء وغير ذلك ولما علمت زليخا ان هذه المناظرات والتفحصات إنما هي بسببها فعند ذلك كشفت الغطاء وصرحت بما هو الواقع .

و ﴿قالت امرأة العزيز﴾ منزهة لجانبه مقرة على نفسه بالمراودة له ﴿الآن حصحص الحق﴾ أي تبين وظهر بعد خفائه وأصله حص فقيل حصحص كما قيل في كبوا كبكبوا قاله الزجاج ، واصل الحص استئصال الشيء يقال حص

شعره اذا استأصله والمعنى انه انقطع الحق عن الباطل بظهوره وبيانه ، وقيل هو مشتق من الحصة والمعنى بانت حصة الباطل .

قال الخليل : معناه ظهر الحق بعد خفائه ، وقال ابن عباس : تبين ، وعن مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد والسدي مثله .

ثم لما علمت ان يوسف عليه السلام راعى جانبها حيث قال : ما بال النسوة ولم يذكرها مع ان الفتن كلها إنما نشأت من جهتها ، كافأته على ذلك باعترافها بأن الذنب منها واوضحت ذلك بقولها ﴿أنا راودته عن نفسه﴾ ولم تقع منه المراودة لي أصلاً ﴿وإنه لمن الصادقين﴾ فيما قاله من تنزيه نفسه ونسبة المراودة اليها وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام فأخبر الرسول يوسف عليه السلام بجواب النسوة المذكورة فقال ﴿ذلك﴾ أي الحادثة الواقعة منه وهي تثبته وتأنيه ، ذهب اكثر المفسرين الى أن هذا الكلام من كلام يوسف عليه السلام .

قال الفراء : ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة الصارفة لكل منهما الى ما يليق به . وهذه هي المرة الثالثة من مرات مجيء الرسول ليوسف عليه السلام في السجن ، والمعنى فعلت ذلك ﴿ليعلم﴾ العزيز ﴿أني لم أخنه﴾ في أهله ﴿بالغيب﴾ والمعنى بظهر الغيب ، أي وهو غائب عني أو وأنا غائب عنه . قال الزمخشري : أي مكان الغيب وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة .

قيل انه قال ذلك وهو في السجن بعد ان أخبره الرسول بما قالته النسوة وما قالته امرأة العزيز ، وقيل انه قال ذلك وقد صار عند الملك والأول أولى . وذهب الأقلون من المفسرين الى ان هذا كلام امرأة العزيز ، والمعنى ذلك القول الذي قلته في تنزيهه والاقرار على نفسي بالمراودة ليعلم يوسف عليه السلام اني لم أخنه فأنسب اليه ما لم يكن منه وهو غائب عني أو أنا غائبة عنه .

﴿وان الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ أي لا يثبته ولا ينفذه ولا يمضيه ولا يسدده ، أو لا يهديهم في كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له ما يثبت به ويدوم واذا كان من قول يوسف عليه السلام ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منه الكيد له والخيانة لزوجها ، وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد ان علم براءته ونزاهته ، ولعل المراد منه اني لو كنت خائناً لما خلصني الله من هذه الورطة ، وحيث خلصني منها ظهر اني كنت بريئاً مما نسبوني اليه ، ثم تواضع لله تعالى وتبارك فقال:

﴿وما أبرىء نفسي﴾ وهذا ان كان من كلام يوسف عليه السلام فهو من باب الهضم للنفس وعدم التزكية لها مع انه قد علم هو وغيره من الناس انه بريء وظهر ذلك ظهور الشمس وأقرت به المرأة التي ادعت عليه الباطل ، ونزهته النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، وان كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة لأنها قد أقرت بالذنب واعترفت بالمراودة وبالافتراء على يوسف عليه السلام .

وقد قيل إن هذا من قول العزيز وهو بعيد جداً ، ومعناه وما أُبرّىء نفسي من سوء الظن بيوسف عليه السلام والمساعدة على حبسه بعد ان علمت براءته.

﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ أي إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله الى الشهوات وتأثيرها بالطبع وصعوبة قهرها،وكفها عن ذلك ﴿إلا ما رحم ربي﴾ أي إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء أو إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها .

وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن أن تكون أمارة بالسوء ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ تعليل لما قبلها . أي إن من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾

﴿وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾ الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدم ، والمعنى أجعله خالصاً لي دون غيري وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز ، والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شوائب الشركه. قال ذلك لما كان يوسف عليه السلام نفيساً ، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم .

قال ابن عباس : فأتاه الرسول فقال : ألق عنك ثياب السجن والبس ثياباً جدداً وقم الى الملك ، فدعا له أهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رآه غلاماً حدثا فقال: أيعلم هذا رؤياي ولم يعلمها السحرة والكهنة ، واقعده قدامه وقال: لا تخف ، وألبسه طوقاً من ذهب وثياب حرير ، واعطاه دابة مسروجة مزينة كدابة الملك وضرب الطبل بمصر ان يوسف عليه السلام خليفة الملك .

وعنه قال: قال الملك ليوسف عليه السلام اني أحب ان تخالطني في كل شيء إلا في أهلي وأنا آنف ان تأكل معي ، فغضب يوسف عليه السلام فقال: أنا أحق أن آنف أنا ابن ابراهيم خليل الله وأنا ابن اسحاق ذبيح الله وأنا ابن يعقوب نبي الله، وهذه هي المرة الرابعة من مجيء الرسول ليوسف عليه السلام في السجن.

﴿فلما كلمه﴾ في الكلام حذف وتقديره فأتوه به فلما كلمه أي الملك يوسف عليه السلام ويحتمل ان يكون المعنى فلما كلم يوسف عليه السلام الملك ، قيل والأول أولى لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم دون من يدخل عليهم ، وقيل الثاني الأولى لقول الملك ﴿قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ فإن هذا يفيد انه لما تكلم يوسف عليه السلام في الملك جاء بما حببه الى الملك وقربه من قلبه فقال له هذه المقالة ، ومعنى مكين أمين ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك يأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره او على ما يكله اليه من ذلك .

وقيل المكانة المنزلة والجاه ، والمعنى قد عرفنا أمانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نُسِبَ اليك، ومكين كلمة جامعة لكل ما يحتاج اليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والأمانة بل هو آن التكلم ، والمراد تحديد مبدئهما احترازاً عن احتمال كونهما بعد حين .

قيل انه لما وصل الى الملك أجلسه على سريره وقال له : إني أحب أن أسمع تأويل رؤياي منك ، فعبرها له بأكمل بيان وأتم عبارة ، فلما سمع الملك منه ذلك قال له : انك اليوم لدينا مكين أمين .

فلما سمع يوسف عليه السلام منه ذلك ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض﴾ أي ولني أمر الأرض التي أمرها اليك ، وهي أرض مصر ، أو اجعلني على حفظ خزائن الأرض وهي الأمكنة التي تخزن فيها الأموال والطعام ، جمع خزينة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء ، طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به الى نشر العدل ، ورفع الظلم ويتوسل به الى دعاء أهل مصر الى الايمان بالله وترك عبادة الاوثان .

وفيه دليل على انه يجوز لمن وثق من نفسه اذا دخل في أمر من أمور السلطان ان يرفع منار الحق ويهدم ما أمكنه من الباطل ان يطلب ذلك

لنفسه ، ويجوز له ان يصف نفسه بالأوصاف التي لها ترغيباً فيما يرومه وتنشيطاً لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور اليه وجعلها منوطة به .

ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من النهي عن طلب الولاية والمنع من توليه من طلبه أو حرص عليها ، وكان يوسف عليه السلام طلبه ابتغاء لوجه الله لا لحب الملك والدنيا وبهذا يجمع بينهما .

﴿اني حفيظ﴾ وهو الذي يحفظ الشيء أي اني حفيظ لما جعلته اليّ من حفظ الأموال لا أخرجها في غير مخارجها ولا أصرفها في غير مصارفها ﴿عليم﴾ بوجوه جمعها وتفريقها ومدخلها ومخرجها ومصالحها .

عن شيبة بن نعامة الضبي قال : يقول اجعلني على جميع الطعام اني حفيظ لما استودعتني عليم بسنين المجاعة . وقيل حفيظ لما استودعتني عليم لما وليتني ، وقيل حفيظ للحساب عليم أعلم لغة من يأتيني .

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك التمكين العجيب ﴿مكنا ليوسف﴾ أي جعلنا له مكاناً ﴿في الأرض﴾ أي أرض مصر . روي انها كانت اربعين فرسخا في أربعين والتمكين عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه حتى لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وصار الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى وكان في حكم التابع وصار الناس يعملون على أمره ونهيه .

﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ أي ينزل منها حيث أراد بعد الضيق والحبس ويتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدم وكأنه يتصرف في الأرض التي أمرها الى سلطان مصر كما يتصرف الرجل في منزله ، وفي القصة ان الملك توَّجَهُ وختمه وولاه مكان العزيز وعزله فمات بعد ، فزوجه امرأته فوجدها عذراء وولدت له ولدين وأقام العدل بمصر ودانت له الرقاب . قاله السيوطي .

وعن ابن زيد ان يوسف عليه السلام تزوج امرأة العزيز فوجدها بكراً ، وكان زوجها عنيناً ، وقد استدل بهذه الآية على انه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق ، وقد قدمنا الكلام مستوفى على هذا في قوله سبحانه ﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا﴾ قال مجاهد : ولم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك الى الاسلام ويتلطف به حتى اسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله ﴿وكذلك مكنا﴾ الخ .

﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ من العباد فنرحمه في الدنيا بالإحسان اليه والانعام عليه وفي الآخرة بإدخاله الجنة وانجائه من النار ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ في أعمالهم الحسنة التي هي مطلوبنا منهم ، أي لا نضيع ثوابهم فيها ومجازاتهم عليها .

﴿ولأجر الآخرة﴾ أي أجرهم في الآخرة ، وأضيف الأجر الى الآخرة للملابسة واللام للقسم وأجرهم هو الجزاء الذي يجازيهم الله به فيها وهو الجنة التي لا ينفذ نعيمها ولا تنقضي مدتها .

﴿خير للذين آمنوا﴾ بالله ﴿وكانوا يتقون﴾ الوقوع فيما حرمه عليهم ، والمراد بهم المحسنون الذين تقدم ذكرهم ، وفيه تنبيه على ان الاحسان المعتد به هو الإيمان والتقوى ، وفي الكلام إظهار في مقام الإضمار للتوصل الى وصفهم بالإيمان والتقوى بعد وصفهم بالإحسان .

﴿وجاء إخوة يوسف﴾ أي جاءوا الى مصر من أرض كنعان ليمتاروا لما أصابهم القحط وكانوا عشرة ، وكان مسكنهم بالعربات من أرض فلسطين ، والعربات ثغور الشام وكانوا أهل بادية وشياه .

﴿فدخلوا عليه﴾ أي على يوسف عليه السلام وهو في مجلس ولايته ﴿فعرفهم﴾ لقوة

فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لأنه فارقهم رجالاً قيل بأول نظرة نظر اليهم عرفهم ، وقيل لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه . قاله الحسن والأول أولى وهو ظاهر النظم القرآني ، وبه قال ابن عباس ومجاهد .

﴿وهم له منكرون﴾ لم يعرفوه لأنهم فارقوه صبياً يباع بالدراهم في أيدي السيارة بعد ان اخرجوه من الجب ، ودخلوا عليه الآن وهو رجل عليه أبهة الملك ورونق الرياسة وعنده الخدم والحشم ، وقيل انهم أنكروه لكونه في تلك الحال على هيئة ملك مصر ولبس تاجه وتطوق بطوقه ، وقيل كانوا بعيدي العهد منه فلم يعرفوه .

قيل كان بين ان قذفوه بالجب وبين دخولهم عليه مدة اربعين سنة ؛ فلذلك انكروه ، وقيل غير ذلك ، وكل واحد من هذه الأسباب مانع من حصول المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه، ولما كان إنكارهم له مستمراً في حالتي المحضر والمغيب اخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام .

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ المراد به هنا أنه أعطاهم ما طلبوه من الميرة وما يصلحون به سفرهم من العدة التي يحتاجها المسافر ، يقال جهزت القوم تجهيزاً اذا تكلفت لهم جهاز السفر قال الازهري : القراء كلهم على فتح الجيم والكسر لغة جيدة . وقيل بالعكس .

وفي الآية تضمين ضمن جهز معنى أكرم ، أي ولما أكرمهم بجهازهم أي بتحصيله لهم ، قيل حمل لكل واحد منهم بعيراً من الطعام وأكرمهم في النزول واحسن ضيافتهم ، وجميع ما فعله يوسف عليه السلام معهم في هذه القصة كان بالوحي كما قاله بعض المفسرين .

﴿قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ يعني أخاه بنيامين الذي تقدم ذكره ،

وهو أخو يوسف لأبيه وأمه ، ولم يقل بأخيكم بالاضافة مبالغة في عدم تعرفه بهم ، ولذلك فرقوا بين مررت بغلامك وبغلام لك ، فإن الأول يقتضي عرفانك بالغلام وان بينك وبين مخاطبك نوع عهد ، والثاني لا يقتضي ذلك قاله الكرخي ، أو أتى باللام لانه كان أخاهم لأبيهم لا لأمهم وهذا أحسن من الأول .

ولعله عليه السلام إنما قاله لما قيل من انهم سألوه عليه السلام حملاً زائداً على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم ان يأتوا به ، لا لما قيل من انه لما رأوه وكلموه بالعبرية .

قال لهم : من أنتم فإني أنكركم ؟

فقالوا له : نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار .

فقال لهم : لعلكم جئتم عيوناً.

فقالوا : معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب .

قال : كم انتم ؟

قالوا : كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا الى البرية فهلك وكان أحبنا الى أبينا .

فقال : كم أنتم ههنا ؟

قالوا : عشرة .

قال : فأين الحادي عشر ؟

قالوا : هو عند ابيه يتسلى به عن الهالك .

قال : فمن يشهد لكم أنكم لست عيوناً وان ما تقولون حق ؟

قالوا : نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا .

قال : فدعوا بعضكم عندي رهينا وأتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى اصدقكم ، فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده إذ لا يساعده ورود الأمر بالإتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بإيفاء الكيل ولا الإحسان في الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الإتيان به ولا جعل بضاعتهم في رحالهم لأجل رجوعهم ولا عدتهم بالإتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند أبيهم ارسال اخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة ، على ان استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال .

ثم قال لهم ﴿ألا ترون أني أوف الكيل﴾ أي أتممه وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على ان ذلك عادته المستمرة وغرضه ترغيبهم في العود اليه مرة أخرى ، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقاً به وتصديقاً لقوله فقال :

﴿وأنا خير المنزلين﴾ أي والحال أنا خير لمن نزل بي كما فعلته بكم من حسن الضيافة وحسن الإنزال، قال الزجاج: قال يوسف عليه السلام ذلك حين انزلهم واحسن ضيافتهم، وقال ابن عباس: أنا خير من يضيف بمصر، قال الرازي: وهذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى أنهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون الخ ، وايضاً يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقاً أن يقول لهم ذلك مع أنه يعرف براءتهم من هذه التهمة لأن البهتان لا يليق بالصديق .

فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

ثم توعدهم أذا لم يأتوه به فقال ﴿فإن لم تأتوني﴾ إذا عدتم مرة اخرى ﴿به﴾ أي بأخيكم الذي من أبيكم ﴿فلا كيل لكم عندي﴾ أي فلا ابيعكم شيئا فيما بعد فضلاً عن ايفائه ، واما في الحال فقد أوفاهم كيلهم ، وهذا نهاية التخويف لانهم كانوا محتاجين الى تحصيل الطعام ولا يمكن إلا من عنده فإذا منعهم من العود فقد ضيق عليهم .

﴿ولا تقربون﴾ أي لا تدخلوا بلادي فضلاً أن أحسن اليكم ، وقيل معناه لا انزلكم عندي كما أنزلتكم هذه المرة ولم يرد أنهم لا يقربون بلاده والمعنى لا تدنوا مني ولا تقربون مجزوماً على أن لا ناهية أو على انها نافية وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كأنه قال فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا ، فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم .

﴿قالوا سنراود عنه أباه﴾ أي سنطلبه منه ونجتهد في ذلك ، بما نقدر عليه ، وقيل معنى المراودة هنا المخادعة منهم لأبيهم والاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه ﴿وإنا لفاعلون﴾ هذه المراودة غير مقصرين فيها ، وقيل معناه وانا لقادرون على ذلك لا نتعانى به ولا نتعاظمه .

﴿وقال﴾ يوسف ﴿لفتيته﴾ أي لغلمانه واتباعه ، قرأ به أهل المدينة وابو

عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن عامر ، واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس وغيرهما ، وقرأ سائر الكوفيين لفتيانه ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة وبه قرأ ابن مسعود ، قال النحاس لفتيانه مخالف للسواد الاعظم ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الاسناد المنقطع .

وايضا فإن فتية أشبه من فتيان لأن فتية عند العرب لأقل العدد ، وأمر القليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال اشبه ، والجملة مستأنفة جواب سؤال كأنه قيل فما قال يوسف عليه السلام بعد وعدهم له بذلك فأجيب بأنه قال لفتيته . .

قال الزجاج : الفتية والفتيان في هذا الموضع المماليك ، وقال الثعلبي : هما لغتان جيدتان مثل الصبية والصبيان .

قال الكرخي : وكلاهما جمع فتى كإخوة واخوان جمع أخ ، الأول للقلة والثاني للكثرة قال البيضاوي وهم الكيالون .

﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ المراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام وكانت نعالاً وأدماً ، وقال ابن عباس : اوراقاً.

﴿في رحالهم﴾ وكل لكل رحل واحداً من غلمانه يدس فيه البضاعة التي اشتروا بها الطعام الذي في هذا الرحل ، والرحال جمع رحل وهي الأوعية التي يحمل فيها الطعام وغيره والمراد به هنا ما يستصحبه الرجل معه من الأثاث .

قال الواحدي : الرحل كل شيء معد للرحيل من وعاء للمتاع ومركب للبعير ومجلس ورسن انتهى . والمراد هنا الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام .

قال ابن الأنباري : يقال للوعاء رحل وللبيت رحل ، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم ، وقيل ليستعينوا بها على الرجوع إليه سريعاً لشراء الطعام، وقيل ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلاّ بثمن قاله الفراء، وجرى عليه الجلال.

وقيل انه خاف ان لا يكون عند أبيه شيء آخر من المال لأن الزمان كان زمان قحط وشدة وقيل اراد ان يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه منة ولا عيب وقيل اراد ان يريهم بره وكرمه واحسانه اليهم ، وقيل اراد ان يكون ذلك عوناً لأبيه ولأخوته على شدة الزمان ، وقيل غير ذلك ، وقيل انه استقبح ان يأخذ من أبيه واخوته ثمن الطعام .

ثم علل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة في الرحال وهي معرفتهم لها فقال ﴿لعلهم يعرفونها﴾ أي بضاعتهم ﴿اذا انقلبوا﴾ رجعوا ﴿الى اهلهم﴾ لانهم لا يعلمون برد البضاعة اليهم الا عند تفريغ الاوعية التي جعلوا فيها الطعام وهم لا يفرغونها الا عند الوصول الى اهلهم .

ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة اليهم المجعولة في رحالهم بقوله ﴿لعلهم يرجعون﴾ الينا فانهم اذا عرفوا ذلك علموا انهم اخذوا الطعام بلا ثمن وان ما دفعوه عوضاً عنه قد رجع اليهم وتفضل به من وصلوا اليه عليهم ، نشطوا الى العود ولا سيما مع ما هم فيه من الجدب الشديد والحاجة الى الطعام وعدم وجوده لديهم ، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم الى الرجوع ؛ وبهذا يظهر يوسف عليه السلام لم يرد البضاعة اليهم الا لهذا المقصود وهو رجوعهم اليه فلا يتم تعليل ردها بغير ذلك .

﴿فلما رجعوا الى أبيهم﴾ قبل ان يشتغلوا بفتح المتاع ﴿قالوا يا أبانا﴾ قدمنا على خير رجل انزلنا واكرمنا كرامة عظيمة فقال لهم يعقوب إذا رجعتم الى ملك مصر فاقرأوا عليه مني السلام وقولوا ان أبانا يدعو لك بما أوليتنا فقالوا ﴿منع منا الكيل﴾ وارادوا بهذا ما تقدم من قول يوسف عليه السلام .

﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ أي منع الكيل في المستقبل بعد هذه المرة وفيه دليل على ان الامتياز مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه ولعلهم قالوا له بهذه المقالة قبل ان يفتحوا متاعهم ويعلموا برد بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد ﴿فلما فتحوا متاعهم﴾ الآية .

ثم ذكروا له ما أمرهم به يوسف عليه السلام فقالوا ﴿فأرسل معنا أخانا﴾ بنيامين الى مصر ﴿نكتل﴾ بسبب ارساله معنا ما نريده من الطعام وهو مجزوم في جواب الامر.واصله نكتيل بوزن نغتنم ووزنه الآن نفتل ، وبحسب الاصل نفتعل قرأ سائر الكوفيين بالتحتية ، واختار ابو عبيدة قراءة النون قال : ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال ، وزعم انه اذا كان بالياء كان للاخ وحده أي يكتال اخونا بنيامين واعترضه النحاس بما حاصله ان اسناد الكيل الى الاخ لا ينافي كونه للجميع والمعنى يكتال بنيامين لنا جميعاً ، والقراءتان سبعيتان ، قال الزجاج : أي ان ارسلته اكتلنا والا منعنا الكيل ﴿وإنا له﴾ أي لبنيامين ﴿لحافظون﴾ من ان يصيبه سوء أومكروه .

﴿قال﴾ يعقوب لما قالوا له هذه المقالة ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ مستأنفة كما تقدم نظائر ذلك في مواضع كثيرة ، والمعنى أنه لا يأمنهم على بنيامين إلا كما أمنهم على اخيه يوسف عليه السلام وقد قالوا له في يوسف عليه السلام وإنا له لحافظون كما قالوا هنا ثم خانوه في يوسف عليه السلام فهو إن آمنهم في بنيامين خاف ان يخونوه كما خانوه في يوسف عليه السلام .

﴿فالله خير حافظاً﴾ منصوب على الحالية وقرىء حفظاً على التمييز ، ولعل هنا اضماراً والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه اليهم وقال فالله خير حافظاً والمعنى ان حفظ الله إياه خير من حفظهم له وانما ارسله معهم لانه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف عليه السلام ، أو ان شدة القحط وضيق الوقت احوجه الى ذلك .

﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فأرجو ان ينعم عليَّ بحفظه ولا يجمع عليَّ مصيبتين قيل لما وكل يعقوب حفظه الى الله سبحانه حفظه وارجعه اليه ، ولما قال في يوسف عليه السلام ﴿وأخاف ان يأكله الذئب﴾ وقع له من الامتحان ما وقع ، قال كعب : لما قال ذلك قال الله تعالى وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما .

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾

﴿ولما فتحوا﴾ بحضرة ابيهم ﴿متاعهم﴾ أي أوعية الطعام او ما هو أعم من ذلك مما يطلق عليه اسم المتاع سواء كان الذي فيه طعاماً او غير طعام ﴿وجدوا بضاعتهم﴾ التي حملوا الى مصر ليمتاروا بها وهي ثمن الطعام وقد تقدم بيانها ﴿ردت إليهم﴾ وجملة ﴿قالوا يا أبانا﴾ مستأنفة كما تقدم ﴿ما نبغي﴾ ما للاستفهام الانكاري ، والمعنى أي شيء نطلب من هذا الملك بعد ان صنع معنا ما صنع من الاحسان بِرَدِّ البضاعة والاكرام عند القدوم اليه ، وتوفير ما اردناه من الميرة ، وارادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم .

وقال قتادة : ما نبغي وراء هذا ، وقيل ان ما نافية أي ما نبغي في القول وما نزيد فيما وصفنا لك من احسان الملك الينا واكرامه لنا ، وقرىء بالفوقية خطابا ليعقوب أي أيُّ شيء تطلب وراء هذا الاحسان أو أي شيء تطلب من الدليل على صدقنا .

ثم برهنوا على ما نفوه من التزيد في وصف الملك بقولهم ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ فإن من تفضل عليهم برد ذلك حقيق بالثناء عليه منهم ، مستحق لما وصفوه به وهي جملة مقررة لما دل عليه الاستفهام من الانكار لطلب شيء مع كونها قد ردت اليهم .

﴿ونمير أهلنا﴾ نجلب اليهم الميرة وهي الطعام يقال مار أهله يميرهم إذا حمل لهم الطعام وجلبه من بلد آخر اليهم ، والمائر الذي يأتي بالطعام ، وقرأ السلمي بضم النون ﴿ونحفظ أخانا﴾ بنيامين مما تخافه عليه ﴿ونزداد﴾ بسبب

إرساله معنا ﴿كيل﴾ حمل ﴿بعير﴾ زائد على ما جئنا به هذه المرة لأنه كان يكال لكل رجل ومرّ بعير قال مجاهد حمل حمار وهي لغة، قال أبو عبيدة: يعني أن الحمار يقال له في بعض اللغات بعير.

﴿ذلك﴾ أي زيادة كيل بعير لاخينا ﴿كيل يسير﴾ يسهل على الملك ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيراً لا يتعاظمه ولا يضايقنا فيه ، وقيل ان المعنى ذلك المكيل لأجلنا قليل نريد ان ينضاف اليه حمل بعير لأخينا ، واختار الزجاج الاول ، وقيل ان هذا من كلام يعقوب جواباً على ما نزله أولاده ﴿ونزداد كيل بعير﴾ يعني ان حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لأجله بالولد وهو ضعيف لأن جواب يعقوب هو :

﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون﴾ أي تعطوني ﴿موثقاً﴾ ما أثق به وأركن اليه ﴿من﴾ جهة ﴿الله﴾ سبحانه وهو الحلف به والموثق العهد المؤكد باليمين ، وقيل هو المؤكد بإشهاد الله عليه ، واللام في ﴿لتأتنني به﴾ جواب القسم أي تحلفو بالله لتردن بنيامين أي لتأتُنّني به ، والاستثناء بقوله ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ مفرغ من أعم الأحوال لأن لتأتنني به وان كان كلاماً مثبتاً فهو في معنى النفي فكأنه قال : لا تمنعون من إتياني به على حال إلا حال الاحاطة بكم أو من أعم العلل أي لعلة من العلل إلا لعلة الاحاطة بكم ، والاحاطة مأخوذة من أحاطه العدو ومن أحاط به العدو فقد غلب أو هلك .

تقول العرب : احيط بفلان اذا هلك او قارب هلاكه ، فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنْيامين الا ان يغلبوا عليه او يهلكوا دونه جميعاً فيكون ذلك عذراً لهم عنده.

﴿فلما آتوه موثقهم﴾ أي أعطوه ما طلبه منهم من اليمين والعهد ﴿قال : الله على ما نقول وكيل﴾ أي قال يعقوب : الله على ما قلناه من طلبي الموثق منكم واعطائكم لي ما طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية فهو المعاقب لمن خاس في عهده وفجر في الحلف به ، أو موكول اليه القيام بما شهد عليه منا .

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٖ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ لما تجهز أولاد يعقوب للسير الى مصر خاف عليهم أبوهم ان تصيبهم العين لكونهم كانوا ذوي جمال ظاهر ، وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد ، فنهاهم ان يدخلوا مجتمعين من باب واحد ، لان في ذلك مظنة لإصابة العين لهم والعين حق فأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ، وكان لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب ، وقال السدي ؛ أراد الطرق لا الأبواب ولم يأمرهم بالتفرق في الكرة الاولى لأنهم كانوا مجهولين في الكرة الاولى .

ولم يكتف بقوله ﴿لا تدخلوا من باب واحد﴾ من قوله ﴿وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ لأنهم لو دخلوا من بابين مثلاً كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول من باب واحد ، ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه ان تصيبهم العين ، أمرهم ان يدخلوا من أبواب متفرقة .

قال النخعي : أحب يعقوب أن يلقى أخاه في خلوة ، قيل وكان قد علم أن ملك مصر هو ولده يوسف عليه السلام إلا أن الله لم يأذن له في اظهاره ذلك، فلما بعث أبناءه اليه قال لهم ذلك القول ، والأول أولى ، أعني أنه خاف عليهم العين ، وبه قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين .

وقد أنكر بعض المعتزلة كأبي علي الجبائي واتباعه ان للعين تأثيراً انكاراً بليغاً ولم يذكروا في انكاره شبهة فضلاً عن حجة ، وليس هذا بمستنكر من هؤلاء فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم ، وأي مانع من اصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق واصيب بها جماعة في عصر النبوة منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعجب من انكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلي ، والتنطع في العبارات كالزمخشري في تفسيره ، فإنه في كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذي يدعيه على العقل حتى يضم الى ذلك الوقاحة في العبارة على وجه يوقع المقصرين في الاقوال الباطلة والمذاهب الزائفة .

وبالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة واجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً ، وبما هو مشاهد في الوجود ، فكم من شخص من هذا النوع الانساني وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب ، وقد اختلف العلماء فيمن عرف بالاصابة بالعين ، فقال قوم يمنع من الاتصال بالناس دفعاً لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته ، وقيل ينفى ، وأبعد من قال انه يقتل إلا اذا كان يتعمد ذلك ويتوقف اصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك فإنه اذا قتل كان له حكم القاتل .

ثم قال يعقوب لأولاده ﴿وما أغنى عنكم من الله من شيء﴾ أي لا أدفع عنكم ضرراً ولا أجلب اليكم نفعاً بتدبيري هذا بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة قال الزجاج وابن الأنباري : لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم .

وقال آخرون : ما كان يغني عنهم يعقوب شيئاً قط حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من اضافة السرقة اليهم ، قال ابو السعود : ولم يرد عليه السلام الغاء الحذر بالمرة ، كيف لا وقد قال تعالى ﴿ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة﴾ وقال تعالى ﴿خذوا حذركم﴾ بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير في الجملة ، وانما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير ، وان ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله وهرب منه اليه . ثم صرح يعقوب بأنه لا حكم إلا لله سبحانه فقال ﴿إن الحكم إلا لله﴾ وحده لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك ﴿عليه﴾ لا على غيره ﴿توكلت﴾ أي اعتمدت ووثقت في كل ايراد واصدار ﴿وعليه﴾ لا على غيره ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ على العموم ويدخل فيه أولاده دخولاً أولياً .

﴿ولما دخلوا﴾ المدينة ﴿من حيث أمرهم أبوهم﴾ أي من الابواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد ، وجواب لما ﴿ما كان يغني عنهم﴾ ذلك الدخول أو رأي يعقوب واتباعهم له ﴿من الله﴾ أي من جهته ﴿من شيء﴾ من الاشياء مما قدره الله عليهم ، أي الذي اراد وقوعه فقد نسبوا للسرقة واخذ منهم بنيامين ، وتضاعفت المصيبة على يعقوب لأن الحذر لا يدفع القدر .

والاستثناء بقوله ﴿الا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ منقطع ، والمعنى ولكن حاجة كانت في نفسه وهي شفقته عليهم ومحبته لسلامتهم أظهرها يعقوب لهم ووصاهم بها غير معتقد ان للتدبير الذي دبره لهم تأثيراً في دفع ما قضاه الله عليهم ، وقيل أنه خطر ببال يعقوب أن الملك اذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة وسيما الشجاعة أوقع بهم حسداً وحقداً وخوفاً منهم فأمرهم بالتفرق لهذه العلة .

وقد اختار هذا النحاس وقال لا معنى للعين هنا ؛ وفيه ان هذا لو كان السبب لأمرهم بالتفرق لم يخص النهي عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من

باب واحد لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد ، وقيل إن الفاعل في قضاها ضمير يعود الى الدخول لا الى يعقوب ؛ والمعنى ما كان الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئاً ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة في نفس يعقوب لوقوعه حسب ارادته .

﴿وإنـه﴾ أي وان يعقوب ﴿لذو علم﴾ جليل ﴿لما علمناه﴾ أي لتعليمنا بالوحي ونصب الأدلة حيث لم يعتقد ان الحذر يدفع القدر وان التدبير له حظ من التأثير حتى يتبين الخلل في رأيه عند تخلف الأثر ، وعلم أن ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة وقيل غير ذلك ، وهذا أولى ، وفي تأكيد الجملة بإن واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ بذلك كما ينبغي ، وقيل لا يعلمون ان الحذر مندوب اليه وإن كان لا يغني من القدر شيئاً والسياق يدفعه ، وقيل المراد بأكثر الناس المشركون .

﴿ولما دخلوا على يوسف﴾ أي في محل حكمه ﴿آوى﴾ ضم ﴿اليه أخاه﴾ بنيامين ، قيل أنه أمر بإنزال كل اثنين في منزل ، فبقي أخوه منفرداً فضمه اليه ﴿وقال اني أنا اخوك﴾ يوسف قال له ذلك سراً من دون أن يـطلع عليه إخوتـه .

﴿فلا تبتئس﴾ أي فلا تحزن ، والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس والضر والشدة ﴿بما كانوا يعملون﴾ إخوتـك من الاعمال الماضية التي عملوها ، وقيل انه لم يخبره بأنه يوسف عليه السلام بل قال له اني أنا اخوك مكان أخيك يوسف عليه السلام فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسداً وبغياً .

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

وقيل أنه أخبره بما سيدبره معهم من جعل السقاية في رحله فقال لا أبالي فدس الصاع في رحله وهو المراد بالسقاية في قوله ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية﴾ وأصلها المشربة التي كان الملك يشرب بها جعلت صاعاً يكال به . وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحب ، وقيل كانت من فضة ، وقيل من ذهب ، وقيل من زبرجد ، وقيل مرصعة بالجوهر ؛ وقيل غير ذلك ، وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل .

وعبر بالفاء هنا اشارة الى طلب سرعة سيرهم وذهابهم لبلادهم لأن الغرض منه قد حصل ، وقد عرفت حالهم بخلاف المرة الأولى كان المطلوب طول مدة اقامتهم ليتعرف الملك حالهم .

والمعنى انه جعل السقاية التي هي الصواع ﴿في رحل أخيه﴾ الذي هو الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من مصر ﴿ثم﴾ بعد ذلك ﴿أذن﴾ نادى ﴿مؤذن﴾ منادٍ وأعلم معلم ، والأذان في اللغة الاعلام ، وكان ذلك النداء مع رفع الصوت مراراً كثيرة بدليل التفعيل بعد انفصالهم عن مجلس يوسف عليه السلام حتى انطلقوا وخرجوا من العمارة ، ثم ارسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم كما يشير له التعبير بثم التي للتراخي بل قيل انهم وصلوا الى بلبيس وردوا من عندها .

﴿أيتها العير﴾ قال الزجاج : معناه ياأصحاب العير ، أي الإبل فهو مجاز مرسل علاقته المجاورة كما قاله السمين ، وفي المصباح العير بالكسر اسم للإبل التي تحمل الميرة في الأصل ثم غلب على كل قافلة ، انتهى .

وكل ما آمتير عليه من الإبل والحمير والبغال فهو عير ، قاله الهيثم ، وقيل قافلة الحمير . وقال أبو عبيدة : العير الإبل المرحولة المركوبة ، ثم كثر ذلك في الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير لأنه يعير أي يذهب ويجيء .

﴿إنكم لسارقون﴾ نسبة السرقة اليهم على حقيقتها لأن المنادي غير عالم بما دبره يوسف عليه السلام . وقيل أن المعنى أن حالكم حال السارقين من كون الصواع صار لديكم من غير رضاً من الملك ، وليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف عليه السلام ، وهو الأقرب الى ظاهر الحال ؛ لأنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم ، وغلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم ؛ وقيل غير ذلك وهذا أولى .

﴿قالوا﴾ أي إخوة يوسف عليه السلام ﴿وأقبلوا عليهم﴾ أي حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادي من أصحاب الملك ، أي التفتوا اليهم وخاطبوهم بقوله ﴿ماذا تفقدون﴾ أي ما الذي فقدتموه ، والفقد غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه ، يقال فقدت الشيء اذا عدمته بضياع او نحوه ، فكأنهم قالوا ماذا ضاع عليكم وما استفهامية وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة .

﴿قالوا﴾ في جوابهم ﴿نفقد صواع الملك﴾ وقرىء بالغين المعجمة وقرىء صوع وصياع وصاع ، وقال الزجاج : الصواع الصاع بعينه وهو يذكر ويؤنث وهو السقاية ، قال ابن عباس : كل شيء شربت منه فهو صواع وقيل الصواع

الذي يكال به وجمعه أصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان وفيه قرآات كثيرة وهي ثمانية كلها لغات في هذا الحرف ، والمراد هنا آلة الكيل سماها تارة كذا وتارة كذا وانما اتخذ هذا الإناء مكيالاً لعزة ما يكال به في ذلك الوقت .

﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ من الطعام جعلاً له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع ﴿وجود﴾ الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من أخذ من وجد في رحله ، وهذا قول المؤذن وحده فهو الذي كفر وضمن والبعير الجمل ، وفي لغة بعض العرب أنه الحمار ؛ والمراد بالحمل ههنا ما يحمله البعير من الطعام .

ثم قال المنادي ﴿وأنا به﴾ أي بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية ﴿زعيم﴾ كفيل ، قاله ابن عباس أي بلسان أهل اليمن .

وعن سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك مثله ، ولعل القائل بفقد صواع الملك هو المنادي ، وإنما نسب القول الى الجماعة لكونه واحداً منهم ، ثم رجع الكلام الى نسبة القول الى المنادي وحده لأنه القائل بالحقيقة وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم في ذلك الزمان .

﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ التاء بدل من واو القسم عند الجمهور، وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأياً ما كان ففيه التعجب، ولا تدخل إلا على هذا الاسم الشريف دون سائر اسمائه سبحانه وقد دخلت نادراً على الرب وعلى الرحمن، والكلام على هذا مستوفى في علم الاعراب.

وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف واصحابه بنزاهة جانبهم وطهارة ذيلهم عن التلوث بقذر الفساد في الأرض الذي من أعظم أنواعه السرقة لأنهم قد شاهدوا منهم في قدومهم عليه المرة الأولى وهذه المرة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة بمراحل ما يستفاد منه العلم الجازم بأنهم ليسوا ممن يتجارى على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد ، ولو لم يكن من ذلك الا ردهم

لبضاعتهم التي وجدوها في رحالهم لكفى ، والمراد بالأرض هنا أرض مصر .

ثم أكدوا هذه الجملة التي اقسموا بالله عليها بقولهم : ﴿وما كنا سارقين﴾ لزيادة التبري مما قذفوهم به والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة الرذيلة الشنعاء .

﴿قالوا فما جزاؤه﴾ هذه جملة مستأنفة كما تقدم غير مرة في نظائرها ، والقائلون هم أصحاب يوسف عليه السلام او المنادي منهم وحده كما مر ، والضمير في جزاؤه للصواع على حذف مضاف أي فما جزاء سرقة الصواع عندكم او الضمير للسارق .

﴿إن كنتم كاذبين﴾ فيما تدعونه لأنفسكم من البراءة عن السرقة ؛ وذلك بأن يوجد الصواع معكم .

فأجاب إخوة يوسف عليه السلام ﴿قالوا جزاؤه﴾ أي جزاء سرقة الصواع أو جزاء سارق الصواع والتقدير جزاء السرقة للصواع أخذ ﴿من وجد في رحله﴾ واسترقاقه ، وتكون جملة ﴿فهو جزاؤه﴾ لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها .

قال الزجاج : هو زيادة في البيان أي جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير .

قال المفسرون : وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترقّ سنة ثم يخلى سبيله فلذلك استفتوهم في جزائه .

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكامل ﴿نجزي الظالمين﴾ لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم ، وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام اخوة يوسف عليه السلام ، ويجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف أي كذلك نحن نجزي الظالمين بالسرق .

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

ثم لما ذكروا جزاء السارق ارادوا ان يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر فأقبل يوسف عليه السلام على ذلك ﴿فبدأ بأوعيتهم﴾ يعني بتفتيش أوعية إخوته العشرة وقيل إن المنادي وأصحابه هم الذين تولوا تفتيشهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين ﴿قبل﴾ تفتيش ﴿وعاء أخيه﴾ بنيامين دفعاً للتهمة ورفعاً لما دبره من الحيلة .

﴿ثم استخرجها﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه يذكر ويؤنث ﴿من وعاء أخيه﴾ فنكس إخوة يوسف عليه السلام رؤوسهم من الحياء ولاموا بنيامين فأخذوه وردوه الى يوسف عليه السلام .

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الكيد العجيب ﴿كدنا﴾ أي دبرنا قاله القتيبي أو أردنا قاله ابن الأنباري ﴿ليوسف﴾ يعني علمناه إياه وأوحينا اليه واللام زائدة واليه نحا السيوطي .

وفي أبي السعود : ما يقتضي ان اللام للتعليل أي صنعنا له ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها من دس الصواع وما يتلوه والكيد مبدؤه

السعي في الحيلة والخديعة ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل الى دفعه ، وهو محمول في حق الله سبحانه على النهاية لا على البداية .

وقال ابن الأعرابي : الكيد التدبير بالباطل وبالحق ، وقيل الكيد هنا جزاء الكيد يعني كما فعلوا بيوسف عليه السلام في الابتداء فعلنا بهم وقيل غير ذلك والأول أولى ، وفي الآية دليل على جواز التوصل الى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً .

﴿ما كان﴾ يوسف عليه اللام ﴿ليأخذ أخاه﴾ بنيامين ﴿في دين الملك﴾ أي ملك مصر وفي شريعته التي كان عليها بل كان دينه وقضاؤه أن يضرب السارق ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب وشريعته ؛ وحاصله أن يوسف ما كان يتمكن من اجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفاً لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له ودبره وأراده حتى وجد السبيل إليه ،وهو ما اجراه على ألسن اخوته من قولهم أن جزاء السارق الاسترقاق ، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتدبيره .

وهذه الجملة تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف عليه السلام او تفسير له يعني ان ذلك الأمر كله كان الهاماً من أمر الله ليوسف عليه السلام واخوته حتى جرى الأمر على وفق المراد وهو معنى قوله ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي إلا حال مشيئته واذنه بذلك وإرادته له والاستثناء منقطع ، إذ الأخذ بدين الملك لا يشمل المراد به ، فالمعنى ولكن أخذه بشريعة يعقوب .

﴿نرفع درجات من نشاء﴾ بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف عليه السلام بذلك ؛ والآية على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لأن الله تعالى مدح يوسف عليه السلام ورفع درجته

على أخوته بالعلم ، وقرىء درجات بالاضافة والتنوين وهما سبعيتان .

﴿وفوق كل ذي علم﴾ ممن رفعه الله بالعلم من المخلوقين ﴿عليم﴾ أرفع رتبة منه وأعلى درجة لا يبلغون مداه ولا يرتقون شأوه ، وقيل معنى ذلك أن فوق كل أهل العلم عليم الى ان ينتهي العلم الى الله وهو سبحانه فوق كل عالم .

عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس فحدث بحديث ؛ فقال رجل عنده وفوق كل ذي علم عليم ، فقال ابن عباس : بئس ما قلت؛ الله العليم الخبير وهو فوق كل عالم .

وعن محمد بن كعب : سأل رجل علياً كرم الله وجهه عن مسئلة فقال فيها ، فقال الرجل : ليس هكذا ولكن كذا وكـذا ، فقال عـليّ : أصبت واخطأت وفوق كل ذي علم عليم .

وعن عكرمة قال : علم الله فوق كل عالم ، قال ابن الأنباري : يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه ولا يطمع نفسه بالغلبة لأنه لا يخلو عالم عن عالم فوقه ، وفي الآية دليل على أن اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء . وكان يوسف عليه السلام أعلم منهم .

﴿قالوا إن يسرق﴾ أي بنيامين الصواع ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعنون يوسف عليه السلام وكان غرضهم من هذا الكلام إنا لسنا على طريقته ولا على سيرته ، بل هذا واخوه كانا على هذه الطريقة لانهما من أم أخرى غير أمنا ، وقال الخفاجي : أتوا بكلمة إن لعدم تحققهم له بمجرد خروج السقاية من رحله ، وأما قولهم إن ابنك سرق فبناء على الظاهر ، ويسرق لحكاية الحال الماضية .

والمعنى ان كان سرق فليس ببدع لسبق مثله من أخيه ، والعرق نزاع ، وقيل انهم جزموا بذلك وان لمجرد الشرط انتهى .

وقد اختلف المفسرون في هذه السرقة التي نسبوها الى يوسف عليه السلام ، ما هي فقيل انه كان ليوسف عليه السلام عمة هي أكبر من يعقوب وكانت عندها منطقة اسحاق لكونها أسن أولاده وكانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سناً من ذكر أو أنثى ، وكانت قد حضنت يوسف عليه السلام وأحبته حباً شديداً ، فلما ترعرع قال لها يعقوب سلمي يوسف اليّ فأشفقت من فراقه واحتالت في بقائه لديها فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمته بها ، ثم قالت قد سرقت منطقة اسحق فانظروا من سرقها ، فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف عليه السلام فأخذته عندها كما هو شرع الأنبياء في ذلك الوقت من آل ابراهيم . ذكره محمد بن اسحاق ، وقد سبق بيان شريعتهم في السرقة .

وقيل ان يوسف أخذ صنماً كان لجده أبي أمه فكسره، وألقاه على الطريق تغييراً للمنكر فعيره بذلك اخوته ، وقد روى معناه عن ابن عباس مرفوعاً . وعن سعيد بن جبير وقتادة مثله غير مرفوع ، وقد روي نحوه عن جماعة من التابعين ، وحكى عن الزجاج انه كان صنماً من ذهب ، وقيل من فضة ، وقال عطية سرق في صباه ميلين من ذهب .

وعن ابن عباس سرق مكحلة لخالته ، وقيل كان في المنزل دجاجة فأعطاها لسائل ، قاله سفيان بن عيينة ، وقيل كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء . قال ابن الأنباري : وليس في هذه الافعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب .

وحكى الواحدي عن الزجاج قال : الله أعلم أسرق أخ له أم لا ، وحكى القرطبي في تفسيره عنه انه قال ؛ كذبوا عليه فيما نسبوه اليه .

قلت وهذا أولى فيما هذه الكذبة بأول كذباتهم ، وقد قدمنا ما يدفع قول من قال أنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم ، وفي البحر لابن المنير أن ما ذكر في تفسير السرقة تكلف لا يسوغ نسبة مثله الى بيت النبوة ولا الى أحد من الأشراف فالواجب تركه ، واليه ذهب مكي وفسره بعضهم بإن يسرق فقد سرق مثله من بني آدم ، وذكر له نظائر في الحديث ، قال الخفاجي وهو كلام حقيق بالقبول .

قال الزجاج وغيره الضمير في ﴿فأسرَّها﴾ يعود الى الكلمة او الجملة كأنه قيل فأسر الجملة ﴿يوسف في نفسه ولم يبدها لهم﴾ ثم فسرها بقوله ﴿قال أنتم شر مكاناً﴾ وقد رد أبو علي الفارسي هذا فقال : إن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل ؛ وعلى هذا يكون في الكلام رجوع الضمير على متأخر لفظاً ورتبة . وفيه ايضاً اطلاق الكلمة على الكلام ، والاول سائغ في مقام التفسير كما هنا . والثاني سائغ في اللغة .

وقيل الضمير عائد الى الاجابة أي أسر يوسف عليه السلام اجابتهم في ذلك الوقت الى وقت آخر . وقيل أسر في نفسه قولهم إن يسرق الخ . وهذا هو الأولى ويكون معنى ولم يبدها لهم انه لم يبد لهم هذه المقالة التي أسرها في نفسه بإن يذكر لهم صحتها وبطلانها .

وجملة: قال أنتم شر مكاناً مفسرة على القول الأول ومستأنفة على القولين الأخيرين كأنه قيل فماذا قال يوسف عليه السلام لما قالوا هذه المقالة ، أي انتم شر موضعاً ومنزلاً ممن نسبتموه الى السرقة ورميتموه بها وهو بريء فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف عليه السلام في الجب والكذب على أبيكم وغير ذلك من افاعيلكم، ولم يكن من يوسف عليه السلام سرقة حقيقية.

ثم قال ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ من الباطل بنسبة السرقة الى يوسف

عليه السلام وانه لا حقيقة لذلك . ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاه بنيامين ويكون معهم ويرجعون به الى أبيهم لما تقدم من أخذه الميثاق عليهم بأن يردوه اليه ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له﴾ أي لبنيامين هذا ﴿أباً﴾ متصفاً بكونه ﴿شيخاً كبيراً﴾ في السن لا يستطيع فراقه ولا يصبر عنه ولا يقدر على الوصول اليه ، وقيل كبيراً في القدر لأنه نبي من أولاد الأنبياء وفيه بعد ظاهر ، والأول أولى ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ يبقى لديك فإن له منزلة في قلب أبيه ليست لواحد منا ، فلا يتضرر بفراق أحدنا كما يتضرر بفراق بنيامين .

ثم عللوا ذلك بقولهم ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ الى الناس كافة،وإلينا خاصة فأتم إحسانك إلينا بإجابتنا الى هذا المطلب ، فأجاب عليهم يوسف و ﴿قال معاذ الله﴾ أي نعوذ بالله معاذاً فهو مصدر ، والمستعيذ بالله هو المستعصم به ﴿أن﴾ أي من أن ﴿نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ وهو بنيامين لأنه الذي وجد الصواع في رحله فقد حل لنا استعباده بفتواكم التي أفتيتمونابقولكم ﴿جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ ولم يقل « من سرق » تحرزاً عن الكذب لأنه يعلم أن أخاه ليس بسارق .

وفيه جواز التوصل الى الأغراض بالحيل اذا لم تخالف شريعة ولا هدمت أصلاً، ولعل الله أمر يوسف عليه السلام بذلك تشديداً للمحنة على يعقوب ، ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل كما أمر صاحب موسى بقتل من لو بقي لطغى وكفر ، قاله ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب . وجزم صاحب الكشاف بأن هذه الواقعة كانت بوحي كما مر مراراً ﴿إنا إذاً﴾ أي إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ﴿لظالمون﴾ في دينكم وما تقتضيه فتواكم .

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

﴿فلما استيأسوا منه﴾ أي يئسوا من يوسف وإجابته إياهم وإسعافهم منه الى مطلبهم الذي طلبوه ، والسين والتاء للمبالغة، قاله الزمخشري والبيضاوي . قال ابن اسحاق أي أيسوا منه ورأوا شدته في أمره .

قال أبو عبيدة : استيأسوا أي استيقنوا أن الأخ لا يرد عليهم ، وقيل أيسوا من أخيهم أن يرد اليهم ، والأول أولى .

﴿خلصوا نجياً﴾ أي انفردوا عن الناس واعتزلوا مجلسه وانحازوا على حدة حال كونهم متناجين متحدثين فيما بينهم ليس فيهم غيرهم في التشاور في أمر هذه القضية وهو مصدر يقع على الواحد والجمع كقوله ﴿وقربناه نجياً﴾ .

قال الزجاج : معناه انفردوا وليس معهم اخوهم متناجين فيما يعملون به في ذهابهم الى أبيهم من غير أخيهم ، وقال قتادة وحدهم .

﴿قال كبيرهم﴾ قيل هو روبيل لأنه الأسن وهو الذي كان نهاهم عن قتله وكان أكبر القوم في الميلاد قاله قتادة ، وقيل كبيرهم في العقل والعلم لا في السن وقيل يهوذا لأنه الأوفر عقلاً .

وقيل شمعون لأنه رئيسهم ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً﴾

أي عهدا ﴿من الله﴾ في حفظ ابنه ورده اليـه ، ومعنى كونه من الله انه بإذنه ذكره النحاس وغيره .

﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ أي وألم تعلموا أن تفريطكم في أمر يوسف عليه السلام كائن من قبل تفريطكم في بنيامين أو من قبل أخذكم العهد في شأنه ، على ان ما مصدرية ، ويجوز ان تكون زائدة والأول أولى ، والمعنى قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه .

﴿فلن أبرح الأرض﴾ يقال برح براحاً وبروحاً أي زال فإذا دخله النفي صار مثبتاً أي لن أبرح من أرض مصر بل ألزمها ولا أفارقها ولا أزال مقيماً فيها على أن أبرح هنا تامة ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في مفارقتها والخروج منها بالعود اليه وانما قال ذلك لأنه يستحي من أبيه أن يأتي اليه بغير ولده الذي أخذ عليهم الميثاق بإرجاعه اليه إلا أن يحاط بهم كما تقدم .

﴿أو يحكم الله لي﴾ بمفارقتها والخروج منها ، وقيل المعنى او يحكم الله لي بخلاص أخي من الأسر حتى يعود الى أبي وأعود معه ، وقيل المعنى أو يحكم الله لي بالنصر على من أخذ أخي فأجازيه واخذ أخي منه أو أعجز فأنصرف بعد ذلك قال مجاهد : أقاتل بسيفي حتى أقتل ، وعن أبي صالح نحوه ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأن احكامه لا تجري إلا على ما يوافق الحق ويطابق الصواب ومراده بهذا الكلام الالتجاء الى الله في اقامة عذره الى والده يعقوب .

ثم قال كبيرهم مخاطباً لهم ﴿ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ على البناء للفاعل وذلك لأنهم قد شاهدوا استخراج الصـواع من وعائه ؛ وقرىء على البناء للمفعول.

قال الزجاج : ان سرق يحتمل معنيين أحدهما علم منه السرق والآخر اتهم بالسرق أمرهم بهذه المقالة مبالغة في ازالة التهمة عـن أنفسهم عند أبيهم لأنهم كانوا متهمين عنده بسبب وقعة يوسف عليه السلام .

﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ من استخراج الصواع من وعائه ، وقيل

المعنى ما شهدنا عند يوسف عليه السلام بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ حتى يتضح لنا هل الأمر على ما شاهدناه أو على خلافه فإن الغيب لا يعلمه إلا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لا نعلم بذلك .

وقيل المعنى ما كنا وقت أخذنا له منك ليخرج معنا الى مصرللغيب حافظين بأنه سيقع منه السرق الذي افتضحنا به ، وقيل الغيب هو الليل ومرادهم انه سرق وهم نيام وقيل مرادهم انه فعل ذلك وهو غائب عنهم فخفي عليهم فعله . قال عكرمة : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق وعن قتادة نحوه ، وقال ابن عباس : ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين .

﴿واسأل﴾ أهل ﴿ القرية التي كنا فيها﴾ أي قولوا لأبيكم اسأل القريـة أي مصر ، قاله قتادة وابن عباس ، وقيل هي قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها وجرى فها حديث السرقة والتفتيش ، قال المفسرون : المراد اهلها ، وقيل المعنى واسأل القرية نفسها ، وان كانت جماداً فانك نبي الله والله سبحانه سينطقها فتجيبك .

ومما يؤيد هذا أنه قال سيبويه : لا يجوز كلم هنداً وانت تريد غلام هند ؛ قيل والأول أولى لأن مثل هذا النوع من المجاز مشهور في كلام العرب ، وتعقبه الحافظ ابن القيم في البدائع وقال انما يضمر المضاف حيث يتعين ولا يصح الكلام الا بتقديره للضرورة كما إذا قيل أكلت الشاة فان المفهوم من ذلك أكلت لحمها فحذف المضاف لا يلبس ونظائره كثيرة وليس منه قوله تعالى ﴿واسأل القرية﴾ وان كان أكثر الأصوليين يمثلون به فإن القرية اسم للسكان في مسكن مجتمع فإنما تطلق القرية باعتبار الأمرين كالكأس لما فيه الشراب ، والذنوب للدلو الملآن ماء والخوان للمائدة اذا كان عليها طعام ونظائره .

ثم لكثرة استعمالهم هذه اللفظة ودورانها في كلامهم أطلقوها على السكان تارة وعلى المسكن تارة بحسب سياق الكلام وسباقه ، وإنما يفعلون

هذا حيث لا لبس ، فلا اضمار في ذلك ولا حذف فتأمل هذا الموضع الذي خفي على القوم مع وضوحه انتهى .

﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ أي أصحابها وكانوا قوماً معروفين من جيران يعقوب من كنعان ، حمل العير هنا إلى الدواب نفسها وهذا هو المعنى الحقيقي لها فاحتاج إلى تقدير المضاف وفيما سبق على المعنى المجازي وهو نفس أصحابها فاستغنى عن تقدير المضاف .

﴿وإنا لصادقون﴾ فيما قلنا ، جاءوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد لأن ما قد تقدم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة في خبرهم هذا عند السامع ، وهذا آخر الكلام الذي علمه لهم أخوهم الكبير .

فلما قالوا هذا ليعقوب ﴿قال بل سولت﴾ زينت او خيلت ﴿لكم أنفسكم أمراً﴾ لا أصل له ، والأمر هنا قولهم ﴿إن ابنك سرق﴾ وما سرق في الحقيقة وقيل المراد بالأمر اخراجهم بنيامين والمضي به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد ذلك بالمضرة ، وقيل هذا الأمر فتياهم بأن السارق يؤخذ بسرقته ، والإضراب هنا هو باعتبار ما اثبتوه من البراءة لأنفسهم لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح والجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدر كغيرها .

﴿فصبر جميل﴾ أي فأمري صبر أو فصبر جميل أجمل بي وأولى لي ، والصبر الجميل هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى بل يفوض أمره الى الله ويسترجع ، وقد ورد أن الصبر عند أول الصدمة .

﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ أي بيوسف عليه السلام واخيه بنيامين ، والأخ الثالث الباقي بمصر وهو كبيرهم كما تقدم ، وإنما قال هكذا على سبيل حسن الظن بالله عز وجل لأنه قد كان عنده أن يوسف عليه السلام لم يمت وانه باق على الحياة وإن غاب عنه خبره ، واذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع الى الفرج قال تعالى ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ ﴿انه هو العليم﴾ بحالي ﴿الحكيم﴾ فيما يقضي به .

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وتولى﴾ أي أعرض ﴿عنهم﴾ وقطع الكلام معهم حين بلغوه خبر بنيامين ﴿و﴾ لما ساء حزنه واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهاج غمه ﴿قال يا أسفا على يوسف﴾ قال الزجاج الأصل يا أسفي فأبدل من الياء ألفا لخفة الفتحة ، والأسف شدة الجزع ، وقيل شدة الحزن .

عن ابن عباس أي يا حزناً ، وعن قتادة مثله ، وعن مجاهد يا جزعاً .

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغة بسبب فراقه ليوسف عليه السلام وانضمام فراقه لأخيه بنيامين وبلوغ ما بلغه من كونه أسيراً عند ملك مصر ، فتضاعفت احزانه وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير .

وقد روي عن سعيد بن جبير أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت في شريعتنا من الاسترجاع والصبر على المصائب ، ولو كان عنده ذلك لما قال يا أسفاً على يوسف عليه السلام يعني ان الاسترجاع خاص بهذه الأمة ، ومعنى المناداة للأسف طلب حضوره كأنه قال تعال يا أسفي وأقبل عَليّ وفيه شكوى إلى الله لا منه .

﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ أي انقلب سواد عينه بياضاً من كثرة

البكاء قيل أنه زال ادراكه بحاسة البصر بالمرة ، قال مقاتل : لم يبصر شيئاً ست سنين ، والتزمه بعضهم بناء على جواز مثل هذا على الأنبياء بعد التبليغ .

وقيل كان يدرك ادراكاً ضعيفاً ، قال بعض أهل اللغة الحزن بالضم والسكون البكاء وبفتحتين ضد الفرح، وقال أكثر أهل اللغة هما لغتان بمعنى ، والبكاء بالمد رفع الصوت وبالقصر نزول الدمع من غير صوت وهو المناسب هنا وهو أحد قولين والذي جرى عليه المصباح والقاموس انه لا فرق بينهما في أن كُلًّا يستعمل في كليهما .

وقد قيل في توجيه ما وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم المفضي إلى ذهاب بصره كُلًّا او بعضاً أنه إنما وقع منه ذلك لأنه علم أن يوسف عليه السلام حيّ فخاف على دينه مع كونه بأرض مصر وأهلها حيئنذ كفار ، وقيل ان مجرد الحزن ليس بمحرم وإنما المحرم ما يفضي منه الى الوله وشق الثياب والتكلم بما لا ينبغي .

قال ابو السعود : وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فإن الكف من ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وإنّا عليك ياابراهيم لمحزونون انتهى .

ويؤيد هذا قوله ﴿فهو كظيم﴾ أي مكظوم فإن معناه أنه مملوء من الحزن ممسك له لا يبثه ومنه كظم الغيظ وهو اخفاؤه فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه من كظم السقاء اذا سده على ما فيه والكظم بالفتح مخرج النفس ، يقال أخذ بأكظامه ، وقيل الكظيم بمعنى الكاظم أي المشتمل على حزنه الممسك له ومنه والكاظمين الغيظ .

وقال الزجاج : معنى كظيم محزون ، وعن ابن عباس قال : كظيم حزين ، وعن قتادة قال ؛ كظم على الحزن وحزنه في جوفه فلم يقل إلا خيراً ، وعن عطاء الخراساني ، قال مكروب ، وعن عكرمة مثله ، وعن الضحاك الكظيم الكمد ، وعن مجاهد نحوه .

قال الحسن : كان بين خروج يوسف عليه السلام من حجر أبيه الى يوم التقيا ثمانون سنة ولم تجف فيها عينا يعقوب ، وما على وجه الارض يومئذ أكرم على الله منه والله أعلم .

﴿قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف﴾ أي لا تفتؤ فحذف حرف النفي لعدم اللبس قال الفراء : أن لا مضمرة ، قال النحاس : والذي قاله صحيح ، وعن الخليل وسيبويه مثل قول الفراء ، قال الكسائي : فتأت وفتيت أفعل كذا أي مازلت ، وعن ابن عباس تفتأ أي لا تزال تذكر يوسف عليه السلام ولا تفتر عن حبه .

﴿حتى تكون حرضاً﴾ أي دنفاً من المرض ، قاله ابن عباس ، وقال قتادة : هرماً، والحرض مصدر يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والصفة المشبهة حرض بكسر الراء كدنف ودنف ، وأصل الحرض الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم ، حكى ذلك عن ابي عبيدة وغيره ، وقيل الحرض ما دون الموت ، وقيل الحارض البالي الدائر ، وقال الفراء : الحارض الفاسد الجسم والعقل وكذا الحرض .

وقال المؤرج : هو الذائب من الهم ، ويقال رجل محرض ، قال النحاس : وحكى اهل اللغة أحرضه الهم إذا أسقمه ، ورجل حارض أي أحمق ، وقال الأخفش الحارض الذاهب ، وقال ابن الأنباري : هو الهالك ، وفي المصباح حرض حرضاً من باب تعب أشرف على الهلاك .

والأولى تفسير الحرض هنا بغير الموت والهلاك من هذه المعاني المذكورة لقوله ﴿أو تكون من الهالكين﴾ أي من الميتين ، قاله مجاهد ، وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن والأسف شفقة عليه وإن كانوا هم سبب أحزانه ومنشأ همومه وغمومه .

﴿قال إنما أشكو بثي وحزني﴾ بضم الحاء وسكون الزاي وقرىء بفتحهما ﴿إلى الله﴾ هذه الجملة مستأنفة كأنه قيل فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا ، والبث ما يرد على الانسان من الأشياء التي تعظم حزن صاحبها حتى لا يقدر على اخفائها كذا قال أهل اللغة وهو مأخوذ من بثثته أي فرقته ، فسميت المصيبة بثاً مجازاً . قال ابن قتيبة البث أشد الحزن .

وقد ذكر المفسرون أن الإنسان اذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزناً وهماً ، وإن لم يقدر على كتمه وذكره لغيره كان ذلك بثاً ، فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه، وقيل البث الهم وقيل الحاجة وعلى هذا يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى ، وأما على تفسير البث بالحزن العظيم فكأنه قال : إنما أشكو حزني العظيم وما دونه من الحزن القليل إلى الله لا إلى غيره من الناس ولا إليكم.

وعن مسلم بن يسار يرفعه قال : من بث لم يصبر ، ثم قرأ هذه الآية . اخرجه ابن جرير وعبدالرزاق . قال ابن عباس : بثي همي .

﴿وأعلم من الله﴾ أي من لطفه واحسانه وثوابه على المصيبة ﴿ما لا تعلمون﴾ انتم وانه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب، وقيل أراد علمه بأن يوسف عليه السلام حي لكنه لم يعرف أين هو ، وقيل أراد علمه بأن رؤياه صادقة وأي لأسجد له ، قاله ابن عباس ، وقيل أعلم من اجابة المضطرين الى الله ما لا تعلمون.

﴿يابني اذهبوا فتحسسوا﴾ التحسس بمهملات طلب الشيء بالحواس مأخوذ من الحس أو من الاحساس ، أي اذهبوا فتعرَّفوا ﴿من﴾ خبر ﴿يوسف وأخيه﴾ بالحاسة كالبصر والسمع وتطلبوه ، وقرىء بالجيم وهو ايضاً التطلب وقيل بالحاء في الخير وبالجيم في الشر ومنه الجاسوس ، ومن هنا بمعنى عن لأنه لا يقال تحسست من فلان بل عن فلان أو هي للتبعيض أي تحسسوا خبراً من أخبارهما ولم يقل أخويه لأنه كان يعلم أن الثالث مقيم بمصر فليس حاله مجهولاً عنده بخلافهما .

﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ أي لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه ورحمته .

قال الأصمعي : الروح ما يجده الانسان من نسيم الهواء فيسكن اليه ، والتركيب يدل على الحركة والهزة ، فكل ما يهتز الانسان بوجوده ويلتذ به فهو روح .

وحكى الواحدي عنه ايضاً الروح الاستراحة من غم القلب .

وقال أبو عمرو : الروح الفرج . وعن ابن زيد قال : من فرج الله يفرج عنكم الغم الذي أنتم فيه .

وقال ابن عباس : الروح الرحمة ، يعني انه استعير الروح للرحمة ، وقيل انه مصدر بمعنى الرحمة .

﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرين﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه وعظيم صنعه وخفيٍّ ألطافه ، والمؤمن يصبر عند البلاء وينتظر الفرج والرحمة فينال به خيراً ويحمد الله عند الرخاء ، والكافر بضد ذلك .

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

﴿فلما دخلوا عليه﴾ أي على يوسف عليه السلام والتقدير فذهبوا كما أمرهم أبوهم الى مصر ليتحسسوا من يوسف عليه السلام وأخيه، فلما دخلوا على يوسف عليه السلام ﴿قالوا ياأيها العزيز﴾ أي الملك الممتنع القادر ، وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ ﴿مسنا وأهلنا الضر﴾ أي الجوع والحاجة .

قال قتادة : الضر في المعيشة وعدلوا إلى الشكوى لأن المتحسس يتوصل إلى مطلوبه بجميع الطرق ، والاعتراف بالعجز وضيق اليد وشدة الحاجة مما يرقق القلب ، فقالوا نختبره بهذه الأمور فإن رق قلبه لنا ذكرنا المقصود والا شكونا. وفيه دليل على أنه يجوز الشكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه، كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب ما يجده من العلة.

وعبارة ابي السعود وإنما لم يبدءوا بما أمروا به استجلاباً للرأفة والشفقة ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو انتهى . وهذه المرة التي دخلوا فيها مصر هي المرة الثالثة كما يفيده ما تقدم من سياق الكتاب العزيز .

﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ البضاعة هي القطعة من المال يقصد بها شراء

شيء يقال أبضعت الشيء واستبضعته اذا جعلته بضاعة ، وفي المثل كمستبضع التمر إلى هجر ، والإزجاء السوق بدفع .

وقال الواحدي الإزجاء في اللغة السوق والدفع قليلاً قليلاً، ومنه قوله تعالى ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً﴾ والمعنى أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار.

قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة . قال ابوعبيد : إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة .

قال ابن عباس : دراهم مزجاة أي كاسدة ، وعنه ايضاً مزجاة رثة المتاع خلقة الحبل والغرارة والشيء ، وايضاً الورق الزيوف التي لا تنفق حتى يوضع منها .

وفي القاموس زجاه ساقه ودفعه ومزجاة قليلة أو لا يتم صلاحها ، وفي المصباح زجيته بالتثقيل دفعته برفق .

واختلف في هذه البضاعة ما هي ، فقيل كانت قديداً وحيساً ، وقيل صوف وسمن ؛ وقيل الحبة الخضراء والصنوبر ، وقيل دراهم رديئة زيوف ، وقيل النعال والأدم ، ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التي معهم أن يوفي لهم الكيل أي يجعله تاماً لا نقص فيه وأن يتصدق عليهم فقالوا :

﴿فأوف لنا الكيل وتصدق علينا﴾ إما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم او بالاغماض عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها وان يجعلها كالبضاعة الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها ، وبهذا قال أكثر المفسرين ، وقد قيل كيف يطلبون التصدق عليهم وهم أنبياء والصدقة محرمة عليهم . وأجيب باختصاص ذلك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن جريج : معنى قولهم أردد علينا أخانا . وبه قال الضحاك . وقال ابن الأنباري وكان الذي يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة لا نفس الصدقة .

﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ بما يجعله لهم من الثواب الأخروي او التوسيع عليهم في الدنيا قال الضحاك : ولم يقولوا أن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن ولما قالوا ذلك لم يتمالك يوسف عليه السلام أن عرفهم نفسه حيث ﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، وقد كانوا عالمين بذلك ولكنه أراد ما ذكرناه ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه في قوة ما أعظم الأمر الذي ارتكبتم من يوسف عليه السلام واخيه ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ، كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت ، والذي فعلوه بيوسف عليه السلام هو ما تقدم مما قصه الله سبحانه علينا في هذه السورة .

وأما ما فعلوا بأخيه فقال جماعة من المفسرين هو ما أدخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف عليه السلام وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة ولم يستفهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب مع أنه قد ناله منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الأذى .

قال الواحدي ؛ ولم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم بفراقه تعظيماً له ورفعاً من قدره ، وعلما بأن ذلك كان بلاء له من الله عز وجل ليزيد في درجته عنده تعالى .

﴿اذ أنتم جاهلون﴾ نفى عنهم العلم وأثبت لهم صفة الجهل لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم ، وقيل انه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الأمر عليهم ، فكأنه قال إنما اقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم وقصور معارفكم عن عاقبته وما يترتب عليه ، او أراد أنهم عند ذلك في أوان الصبا وزمان الصغر اعتذاراً لهم ودفعاً لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا في ذلك الوقت كباراً، وهذا الآية تصديق لقوله تعالى ﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ .

﴿قالوا أئنك لأنت يوسف﴾ قرىء بالاستفهام التقريري وبدونه ، وكان

ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب .

وقيل سبب معرفتهم له بمجرد قوله ﴿ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾ أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو ، وقيل إنه لما قال لهم هذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه ، وقيل إنه تبسم فعرفوا ثناياه .

﴿قال أنا يوسف﴾ أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه ، قال ابن الأنباري : أظهر الاسم فقال أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيماً لما وقع له من ظلم إخوته ، كأنه قال أنا المظلوم المستحل منه المحرم المراد قتله ، فاكتفى باظهار الاسم عن هذه المعاني وقال ﴿وهذا أخي﴾ مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه لأن قصده وهذا أخي المظلوم كظلمي ﴿قد منَّ الله علينا﴾ بالخلاص عما ابتلينا به ، وقيل منَّ الله علينا بكل خير في الدنيا والآخرة وقيل بالجمع بيننا بعد التفرق وقيل بالسلامة في ديننا ودنيانا ولا مانع من إرادة جميع ذلك .

﴿إنه من يتق ويصبر﴾ قرىء بالجزم على أن من شرطية وقرىء بإثبات الياء في يتقي وقيل من موصولة لا شرطية وهو بعيد والمعنى من يفعل التقوى او يفعل ما يتقيه من الذنوب ويصبر على المصائب ، وقيل يتقي الزنا ويصبر على العزوبة ، وقيل يتقي المعصية ويصبر على السجن ، وقيل يتقي الله بأداء فرائضه ويصبر عما حرم الله ، وقيل يتقي الفحشاء ويصبر على الطاعة والعموم أولى ، ولا وجه لتخصيص نوع دون نوع .

﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ على العموم فيدخل فيه ما يفيده السياق دخولاً أولياً وجاء بالظاهر وكان المقام مقام المضمر أي أجرهم للدلالة على أن الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الاحسان .

﴿قالوا تالله لقد آثرك﴾ اختارك وفضلك ﴿الله علينا﴾ بما خصك به من صفات الكمال أو بالعلم والعقل أو بالملك قاله الضحاك أو بالصبر قاله ابو صالح أو بالحلم والصفح أو بالحسن ، وقيل بالنبوة وقيل بسائر الفضائل التي أعطاها الله له دون اخوته ، واللفظ أوسع من ذلك ويدخل فيه ما ذكر دخولاً

أوليـاً، وهذا اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره قيل ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا أنبياء، فإن درجة الأنبياء متفاوتة قال الله تعالى ﴿تلك الرسـل فضلنا بعضهم على بعض﴾ ويستعار آثر للفضل والإيثار للتفضيل .

﴿وإن كنا لخاطئين﴾ أي وإن الشأن كذلك ، قال ابو عبيدة : خطأ واخطأ واحد ، وقال الازهري : المخطىء من اراد الصواب فصار الى غيره . ومنه قولهم المجتهد يخطىء ويصيب والخاطىء من تعمد ما لا ينبغي ، قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والـذنب استجلابـا لعفوه واستجـذاباً لصفحه ، وقيل آثر لفظ خاطئين على مخطئين موافقة لرؤوس الآي .

﴿قال لا تثريب﴾ التثريب التعيير والتوبيخ أي لا لوم ﴿عليكم اليوم﴾ قال الاصمعي : ثربت عليه قبحت عليه فعله ، وقال الزجاج : المعنى لا افساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الاخوة ولكم عندي الصفح والعفو ، وأصل التثريب الإفساد وهي لغة أهل الحجاز ، وقال ابن الأنباري : معناه قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب .

قال ثعلب : ثرب فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ، ومعناه إزالة التثريب كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع أي لا تثريب مستقر أو ثابت عليكم .

وقد جوز الأخفش الوقف على ﴿عليكم﴾ فيكون اليوم متعلقـاً بالفعل الذي بعده وقد ذكر مثل هذا ابن الأنباري عن عكرمة قال لا تثريب لا تعيير ، واخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة التفت إلى الناس فقال ماذا تقولون وماذا تظنون فقالوا : ابن عم كريم فقال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم[١] .

ثم دعا لهم بقوله ﴿يغفر الله لكم﴾ على تقدير الوقف على اليوم وهو بمنزلة التعليل او أخبرهم بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على

(١) أنـظر كامـل القصة في سيـرة ابن هشام ٤/٥٤،٥٥؛ طبعـة مصـطفى البـابي الحلبي بمصر ١٣٥٥ هـ، ١٩٣٦ م.

عليكم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم فيجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم .

قال عطاء الخراساني : طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ ألم تر إلى قول يوسف عليه السلام ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ وقال يعقوب ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ .

أقول وفي هذا الكلام نظر فإنهم طلبوا من يوسف عليه السلام أن يعفو عنهم لقولهم ﴿لقد آثرك الله علينا﴾ فقال ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ لأن مقصودهم صدور العفو منه عنهم وطلبوا من أبيهم يعقوب أن يستغفر الله لهم وهو لا يكون إلا بطلب ذلك منه إلى الله عز وجل وبين المقامين فرق ، فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلاً عليهم بسؤال الله لهم ولا سيما اذا صح ما تقدم من أنه أخر ذلك الى وقت الإجابة فإنه لو طلبه لهم في الحال لم يحصل له علم بالقبول .

واخرج الحكيم الترمذي وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال : لما كان من أمر إخوة يوسف عليه السلام ما كان كتب يعقوب إلى يوسف عليه السلام وهو لا يعلم أنه يوسف عليه السلام بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب بن اسحاق ابن ابراهيم إلى عزيز آل فرعون سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو : أما بعد فإنّا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء كان جدي ابراهيم خليل الله ألقي في النار في طاعة ربه فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وأمر الله جدي أن يذبح له أبي[1] ففداه الله بما فداه، وكان لي ابن وكان أحب الناس إليَّ ففقدته فأذهب حزني عليه نور بصري وكان له أخ من أمه كنت اذا ذكرته ضممته إلى صدري فأذهب على بعض وجدي وهو المحبوس عندك في السرقة وإني أخبرك لم أسرق، ولم ألد سارقاً، فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب بكى وصاح وقال:

(١) الصحيح والقول الراجح أن الذبيح هو نبي الله إسماعيل وهو الابن الأكبرللخليل صلّى الله عليه وسلم.

ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

﴿اذهبوا بقميصي﴾ الباء للتعدية او اذهبوا معكم قميصي و ﴿هذا﴾ نعت له او بيان او بدل قيل هو القميص الذي ألبسه الله ابراهيم لما أُلقي في النار وكساه ابراهيم اسحاق وكساه اسحاق يعقوب ، وكان يعقوب أدرج هذا القميص في قصب وعلقه في عنق يوسف عليه السلام لما كان يخاف عليه من العين ، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره لأن فيه ريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفي ، ولا مُبْتَلّى إلا عوفي.

قال ابن عباس : ولو علم إخوته إذ ألقوه في الجب لأخذوه فلما أراد الله أن يرد يوسف عليه السلام على يعقوب وكان بين رؤياه وتعبيره أربعون سنة أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل فوجد يعقوب ريحه ، وليس يقع شيء من الجنة على عاهة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن الله .

﴿فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا﴾ المعنى يصير بصيراً على أن يأت هي التي من أخوات كان ، قال الفراء : يرجع بصيراً ، وقال السدي : يعود بصيراً ويشهد له ﴿فارتد بصيراً﴾ قيل كان ذلك بوحي الله وقيل بعث اليه قميصه ليزول بكاؤه وينشرح صدره ، قال يهوذا أنا أحمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء قيل حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً وقيل معناه يأت إليّ إلى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى .

ويؤيده قوله ﴿وأْتوني بأهلكم أجمعين﴾ أي جميع من شمله لفظ الأهل

من النساء والذراري ، قيل كانوا نحو سبعين وقيل ثلاثة وتسعين .

﴿ولما فصلت العير﴾ أي خرجت منطلقة من عريش مصر أو من مصر الى الشام ، يقال فصل فصولاً وفصلته فصلاً لازم ومتعد . ويقال فصل من البلد فصولاً اذا انفصل عنه وخرج منه وجاوز حيطانه .

﴿قال أبوهم﴾ يعقوب لمن عنده في أرض كنعان من أهله ﴿اني لأجد ريح يوسف﴾ أي أدركها بحاسة الشم أي أشمها أي ريح الجنة من قميص يوسف عليه السلام ، فالاضافة لأدنى ملابسة .

قيل إنها هاجت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة فأخبرهم بما وجد . قال ابن عباس : وجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام ، وقيل من مسيرة عشرة أيام ؛ وقيل من مسيرة ثمانين فرسخاً .

ثم قال ﴿لولا أن تفندون﴾ أي لولا ان تنسبوني الى الفند وهو ذهاب العقل من الهرم ، يقال أفند الرجل اذا خرف وتغير عقله قاله مجاهد ، وقال ابو عبيدة : لولا أن تسفهون فجعل الفند السفه .

وقال الزجاج وابن عباس : لولا أن تجهلون فجعل الفند الجهل ، وقال أبو عمرو الشيباني : التفنيد التقبيح ، وقيل هو الكذب ، قاله ابن عباس ، وقال ابن الأعرابي : لولا أن تضعفوا رأيي . وروى مثله عن ابي عبيدة ، وقال الأخفش : التفنيد اللوم وضعف الرأي .

وكل هذه المعاني راجع الى التعجيز وتضعيف الرأي ، يقال فنده تفنيداً إذا اعجزه التعجيز وافند إذا تكلم بالخطأ، والفند الخطأ من الكلام. وعن الربيع

قال: لولا أن تحمقون، أخبرهم يعقوب بأن الصَّبا قد حملت إليه ريح حبيبه وأنه لولا ما يخشاه من التفنيد لما شك في ذلك:

فإن الصبا ريح اذا ما تنفست على نفس مهموم تجلت همومها
اذا قلت هذا حين أسلو يهيجني نسيم الصبا من حيث ما يطلع الفجر
ولقد تهب لي الصبا من أرضها فيلذ مسّ هبوبها ويطيب

قيل إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف عليه السلام قبل ان يأتيه البشير.

قال أهل المعاني: إنّ الله أوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة من المكان البعيد، ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الأخرى في مدة ثمانين سنة، وذلك يدل على أن كل سهل فهو في مدة المحنة صعب، وكل صعب فهو في زمان الاقبال سهل.

﴿قالوا﴾ أي قال الحاضرون عنده من أهله ﴿تالله إنك﴾ يايعقوب ﴿لفي ضلالك﴾ ذهابك ﴿القديم﴾ عن طريق الصواب الذي كنت عليه قديماً من إفراط حبك ليوسف عليه السلام ورجاء لقائه على بعد العهد لا تنساه ولا تفتر عنه، ولسان حال يعقوب يقول لهم:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها
لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى تكون حشاك في أحشائه

وقيل الضلال الجنون قاله سعيد بن جبير، وقيل أنك في محبتك القديمة، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: في خطئك القديم، قالوا له ذلك لأنه لم يكن قد بلغهم قدوم البشير وكان عندهم أن يوسف قد مات وهلك.

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿فلما أن جاء البشير﴾ بين يدي العير قال ابن عباس : البشير البريد ، وعن الضحاك مثله ، قال المفسرون البشير هو يهوذا بن يعقوب قال لأخيه أنا جئته بالقميص ملطخاً بالدم فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حي فأفرحه كما أحزنته وبه قال سفيان .

﴿ألقاه على وجهه﴾ أي ألقى البشير قميص يوسف عليه السلام على وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿فارتد﴾ الارتداد انقلاب الشيء الى حال قد كان عليها ، والمعنى عاد ﴿بصيراً﴾ ورجع الى حالته الأولى من صحة بصره وقوته وسروره . وعن الحسن قال : لما أن جاء البشير الى يعقوب فألقى عليه القميص قال على أي دين خلفت يوسف ؟ قال على الإسلام، قال الآن تمت النعمة .

﴿قال﴾ يعقوب لمن كان عنده من أهله الذين قال لهم إني لأجد ريح يوسف عليه السلام ﴿ألم أقل لكم﴾ هذا القول فقلتم ما قلتم ، ويكون قوله ﴿إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ كلاماً مبتدأً لا يتعلق بالقول ، ويجوز أن

تكون الجملة مقول القول ويريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقاً إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، والمعنى أعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام وأن الله يجمع بيننا .

﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم واعترفوا بالذنب ؛ وفي الكلام حذف والتقدير لما رجعوا من مصر ووصلوا إلى أبيهم ، قالوا هذا القول اعتذاراً عما حصل منهم فوعدهم بما طلبوه منه و ﴿قال سوف استغفر لكم ربي﴾ قال الزجاج أراد يعقوب أن يستغفر لهم في وقت السحر لأنه أخلق بإجابة الدعاء لا أنه بخل عليهم بالاستغفار . قاله ابن مسعود .

وقال ابن عباس : أخرهم إلى السحر ، وكان يصلي لأن دعاء السحر مستجاب . واخرج ابن جرير وابو الشيخ عنه ايضاً قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم في قصة «هو قول أخي يعقوب لبنيه سوف استغفر لكم ربي، يقول حتى تأتي ليلة الجمعة[1]» .

قيل أخره إلى ليلة الجمعة لأنها اشرف الأوقات ، وقيل أخره الى أن يستحل لهم من يوسف عليه السلام ولم يعلم انه قد عفا عنهم أو ليعرف حالهم في صدق التوبة ، وجملة ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ تعليل لما قبلها .

﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ لعل في الكلام محذوفاً مقدراً وهو فرحل يعقوب وأولاده وأهله إلى مصر فلما دخلوا على يوسف عليه السلام وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة .

وقال مسروق : كانوا ثلاثة وسبعين ، قيل وكان دخولهم يوم عاشوراء ،

(١) ابن كثير ٢/٤٩٠ .

وكانوا حين خرجوا من مصر مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلاً سوى الذرية والهرمى ، وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف ، قاله القرطبي ، فقد بورك فيهم كثيراً حتى بلغوا هذا العدد في مدة موسى مع أن بينه وبين يوسف عليه السلام أربعمائة سنة كما في التحبير .

قال أبو هريرة : دخل يعقوب مصر في ملك يوسف عليه السلام وهو ابن مائة وثلاثين سنة وعاش في ملكه ثلاثين سنة ومات يوسف عليه السلام وهو ابن مائة وعشرين سنة، قال ابو هريرة : وبلغني أنه كان عمر ابراهيم خليل الله مائة وخمسة وتسعين سنة .

﴿آوى اليه أبويه﴾ أي ضمهما وأنزلهما عنده ، قال المفسرون المراد بالأبوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف عليه السلام لأن أمه قد ماتت في ولادتها لأخيه بنيامين ، وقيل أحيى الله له أمه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له ، وبه قال قتادة وسفيان بن عيينة .

قال الخازن : والأول هو المعتمد وهذا مبني على أنه تزوج راحيل في حياة اختها ليا ، قال الحفناوي وهذا قول ضعيف وأن الراجح أن ليا ماتت قبل أن يتزوج راحيل ، وعلى هذا فلعله كانت لهما اخت ثالثة تزوجها يعقوب بعدهما وأدركت هذه القضية انتهى ، وقيل كانت أمه باقية فلا حاجة إلى التأويل وهو الأولى بظاهر النظم القرآني .

﴿وقال ادخلوا مصر﴾ أي للاقامة بها ﴿إن شاء الله آمنين﴾ على أنفسكم وأهليكم مما تكرهونه من القحط وأصناف المكاره ، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ولا يدخلونها إلا بجوار منهم ، وقيل والتقييد بالمشيئة عائد إلى الدخول مع الأمن ولا مانع من عوده إلى الجميع لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه كما أنهم لا يكونون آمنين إلا بمشيئته .

وقيل إن التقيد بالمشيئة راجع إلى قوله عليه السلام: سوف استغفر لكم ربي ، وهو بعيد جداً وظاهر النظم القرآني أن يوسف عليه السلام قال لهم هذه المقالة أعني ادخلوا مصر قبل دخولهم ، وقد قيل في توجيه ذلك أنه تلقاهم الى خارج مصر فوقف منتظراً لهم في مكان أو خيمة فدخلوا عليه فآوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ، فلما دخلوا مصر دخلوا عليه دخولاً آخر في المكان الذي له بمصر فهذا الدخول غير الأول .

ولمصر فضائل كثيرة ذكرها المقريزي في الخطط منها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز بضعاً وعشرين مرة تارة بصريح الذكر وتارة ايماء وقال ابن عباس سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن وقد جاء في فضل مصر أحاديث أوردها المقريزي في تاريخه ، ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر الى مثلها في الدنيا فلينظر الى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها ومن شاء أن يطلع على مواقع مصر ومجرياتها فعليه ان ينظر في الخطط وفي حسن المحاضرة للسيوطي .

﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي أجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه كما هي عادة الملوك قال ابن عباس : العرش السرير والرفع النقل إلى العلو ﴿وخروا﴾ أي الأبوان والاخوة ﴿له﴾ أي ليوسف عليه السلام ﴿سجداً﴾ وكان ذلك جائزاً في شريعتهم منزلاً منزل التحية ، وقيل لم يكن ذلك سجوداً بل هو مجرد ايماء وانحناء وكانت تلك تحيتهم وهو يخالف معنى خروا له سجداً فإن الخرور في اللغة المقيد بالسجود لا يكون إلا بوضع الوجه على الأرض .

وقيل الضمير في له راجع الى الله سبحانه أي وخروا لله سجداً وهو بعيد جداً وقيل ان الضمير ليوسف عليه السلام واللام للتعليل أي وخروا لأجله وفيه ايضاً بعد ، قال عدي بن حاتم في الآية كانت السجدة تحية من كان قبلكم فأعطاكم الله السلام مكانها ، وعن قتادة نحوه ، وعن ابن زيد قال ذلك سجود تشرفة كما

سجدت الملائكة تشرفة لآدم وليس سجود عبادة وكان ذلك بأمر الله لتحقيق رؤياه .

﴿وقال﴾ يوسف عليه السلام ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي﴾ التي تقدم ذكرها ﴿من قبل﴾ أي من قبل هذا الوقت في حال الصغر ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ أي صدقاً بوقوع تأويلها في اليقظة على ما دلت عليه قيل وكان بين الرؤيا والتأويل اربعون سنة أو ثمانون أو ست وثلاثون أو اثنتان وعشرون ، وقيل خمس وثلاثون ، وقيل سبعون حكى هذه الأقوال كلها ابن الجوزي والله أعلم كم كان بينهما .

﴿وقد أحسن بي﴾ الأصل أن يتعدى فعل الإحسان بإلى وقد يتعدى بالباء كما في قوله وبالوالدين إحساناً ويقال بي وإليّ بمعنى واحد ، وقيل انه ضمن احسن معنى لطف أي لطف بي محسناً ﴿اذ أخرجني من السجن﴾ بعدما ابتليت به ، ولم يذكر اخراجه من الجب ، لأن في ذكره نوع من تثريب وتخجيل للاخوة وقد قال ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ وقد تقدم سبب سجنه ومدة بقائه فيه .

وقد قيل إن وجه عدم ذكر اخراجه من الجب أن المنة كانت في اخراجه من السجن أكبر من المنة في اخراجه من الجب لأن دخوله الجب كان بحسد اخوته ودخوله السجن بسبب تهمة المرأة فإخراجه من السجن كان لزوال التهمة عنه ، وكان ذلك من أعظم نعمه سبحانه عليه وفيه بعد وضعف ، وقيل لأن اخراجه من السجن كان سبباً لوصوله الى الملك ، أو لأن مصيبة السجن عنده كانت أعظم لطول مدتها ولمصاحبة الأوباش واعداء الدين فيه بخلاف مصيبة الجب لقصر مدتها ولكون المؤنس له فيها جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة .

﴿وجاء بكم من البدو﴾ أي البادية أي ارض كنعان بالشام وكانوا أهل

مواشي وبرية فسكنوا البادية ، وقيل أن يعقوب عليه السلام تحول إلى البادية بعد النبوة لأن الله لم يبعث نبياً من البادية وأن المكان الذي كان فيه يعقوب يقال له بدا وفيه نظر والبدو هو البسيط من الأرض والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة ، قال الخفاجي البادية والبدو بمعنى ، قيل سميت به لأن مافيها يبدو للناظر لعدم ما يواريه .

﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي﴾ أي بعد أن أفسد بيننا وحمل بعضنا على بعض يقال نزغه إذا نخسه وأصله من نخس الدابة ليقوى مشيها وأحال يوسف ذنب اخوته على الشيطان تكرماً منه وتأدبا ﴿إنّ ربي لطيف﴾ قال الازهري : هو من أسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده يقال لطف فلان بفلان يلطف اذا رفق به .

وقال عمرو بن أبي عمرو : اللطيف الذي يوصل اليك أَرَبَكَ[1] في لطف ، قال الخطابي ؛ اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، وقيل اللطيف العالم بدقائق الأمور ، قال قتادة : لطف بيوسف عليه السلام وصنع له حين أخرجه من السجن وجاء بأهله من البدو ونزع من قلبه نزع الشيطان وتحريشه على اخوته .

﴿لما يشاء﴾ أي لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب ﴿إنه هو العليم﴾ بأموره ﴿الحكيم﴾ في أفعاله .

---

(١) الإِرْبَةُ، والأَرَبُ: الحاجة (مجمل اللغة لابن فارس /٩٣؛ تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، طبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.)

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾

ولما أتمّ الله نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه من المحن العظيمة، وبما خوله من الملك وعلمه من العلم، تاقت نفسه إلى الخير الأخروي الدائم الذي لا ينقطع فقال ﴿رب قد آتيتني من الملك﴾ من للتبعيض أي بعض الملك لأنه لم يؤت كل الملك، إنما أوتي ملكاً خاصاً وهو ملك مصر في زمن خاص، وقيل زائدة، وقيل لبيان الجنس، والملك عبارة عن الاتساع في الشيء المقدور لمن له السياسة والتدبير ولم يملك جميع أقطار الأرض إلا أربعة: اثنان مسلمان اسكندر وسليمان، وإثنان كافران بختنصر وشداد بن عاد.

قلت وسيملك خامس وهو عيسى بن مريم حين ينزل من السماء إلى الأرض كما وردت به الأحاديث الصحيحة.

﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ أي بعضها لأنه لم يعط جميع علم التأويل سواء أريد به مطلق العلم والفهم أو مجرد تأويل الرؤيا، وقيل من للجنس كما في قوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الأوثان وقيل زائدة كما تقدم.

﴿فاطر السموات والارض﴾ أي يا فاطرهما أو منتصب بإضمار أعني أو على أنه صفة لرب أو بدل أو بيان، والفاطر الخالق والمنشىء والمخترع والمبدع

﴿أنت وليي﴾ أي ناصري ومتولي أموري ﴿في الدنيا والآخرة﴾ تتولاني فيهما .

﴿توفني مسلماً﴾ أي على الاسلام لا يفارقني حتى أموت ، قيل إنه دعا بذلك مع علمه بأن كل نبي لا يموت إلا مسلماً إظهاراً للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة وتعليماً لغيره ، وهذه حالة زائدة على الاسلام الذي هو ضد الكفر ؛ والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى ، قاله الرازي والخطيب والكرخي .

قال ابن عباس : ما سأل نبي الوفاة غير يوسف عليه السلام اشتاق إلى لقاء الله واحب أن يلحق به وبآبائه ، فدعا الله أن يتوفاه ﴿و﴾ قال ﴿ألحقني بالصالحين﴾ من النبيين من آبائي وغيرهم فأظفر بثوابهم منك ودرجاتهم عندك ، قال الضحاك : يعني إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ، وقال عكرمة : يعني أهل الجنة .

قيل إنه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله عز وجل ولم يأت عليه اسبوع بعد هذا الدعاء ، قيل كان عمره عند أن ألقي في الجب سبع عشرة سنة ، وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة إلى قدوم ابيه يعقوب ، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذي سيأتي وتوفاه الله .

وليس في اللفظ ما يدل أنه طلب الوفاة في الحال ولهذا ذهب الجمهور الى أنه لم يتمن الموت بهذا الدعاء في الحال وانما دعا ربه أن يتوفاه على دين الاسلام ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله .

وقد عاش بعد ذلك سنين كثيرة وولد له من امرأة العزيز ثلاثة أولاد إفراثيم وميشا ورحمة امرأة ايوب ، ولما مات دفنوه في أعلى النيل في صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر لتعم البركة جانبيه ، فسبحان من لا انقضاء لملكه ، فبقي اربعمائة سنة إلى أن أخرجه موسى وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام في الأرض المقدسة فهو الآن هناك .

﴿ذلك﴾ المذكور من أمر يوسف أي قصته وما جرى له مع اخوته وما

صار اليه من الملك بعد الرق ﴿من أنباء الغيب﴾ أخباره ﴿نوحيه إليك﴾ خبر ثان ، قال الزجاج : ويجوز ان يكون ﴿ذلك﴾ بمعنى الذي أي الذي من أنباء الغيب نوحيه اليك والمعنى الاخبار من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن هذا الذي قصه عليه من أمر يوسف واخوته من الاخبار التي كانت غائبة عنه فأوحاه الله اليه واعلمه به ، ولم يكن عنده قبل الوحي شيء من ذلك .

وفيه تعريض ساطع بكفار قريش لأنهم كانوا مكذبين له صلى الله عليه وسلم بما جاء به جحوداً وعناداً وحسداً مع كونهم يعلمون حقيقة الحال، ودليل قاطع على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم لأنه كان أمياً بحتاً لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر إلى غير بلده الذي نشأ فيه ، ومع ذلك أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن تركيب وأفصح عبارة فعلم ان اتيانه بها بوحي من الله سبحانه وتعالى .

﴿وما كنت لديهم﴾ أي لدى إخوة يوسف وهو تعليل لكل من الخبرين ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾ إجماع الأمر العزم عليه أي إذ عزموا جميعاً على إلقائه في الجب ﴿وهم﴾ أي بنو يعقوب في تلك الحالة ﴿يمكرون﴾ بيوسف عليه السلام في هذا الفعل الذي فعلوه به ويبغونه الغوائل أو يمكرون بيعقوب حين جاءوه بقميص ملطخاً بالدم وقالوا أكله الذئب .

وإذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لديهم عند أن فعلوا ذلك انتفى علمه بذلك مشاهدة ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ، ولا خالطهم ولا خالطوه ، فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير ، فلم يبق بعلمه بذلك طريق إلا مجرد الوحي من الله سبحانه فهذا يستلزم الايمان بما جاء به .

فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار قال الله سبحانه ذاكراً لهذا ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت﴾ على هدايتهم وبالغت في ذلك ﴿بمؤمنين﴾ بالله لتصميمهم على الكفر الذي هو دين آبائهم ، يقال حرص يحرص مثل ضرب

يضرب وفي لغة ضعيفة مثل حمد يحمد ، والحرص طلب الشيء باجتهاد والاسم الحرص بكسر وحرص حرصاً من باب تعب لغة إذا رغب رغبة مذمومة .

وقال الزجاج : معناه ما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على ان تهديهم ، لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، قال ابن الأنباري : ان قريشاً واليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف واخوته فشرحها شرحاً شافياً وأتى بها على وفق ما عندهم في التوراة، وهو يأمل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم، فخالفوا ظنه ولم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فعزاه الله بقوله وما أكثر الناس . الآية .

﴿وما تسألهم عليه﴾ أي على القرآن وما تتلوه عليهم منه أو على الإيمان وحرصك على وقوعه منهم أو على ما تحدثهم به من هذا الحديث ﴿من أجر﴾ من مال يعطونك إياه ويجعلونه لك كما يفعله أحبارهم ﴿إن هو﴾ أي القرآن أو الحديث الذي حدثتهم به ﴿إلا ذكر للعالمين﴾ كافة قاطبة لا يختص بهم وحدهم وهذا كالتعليل لما قبله لأن الوعظ العام ينافي أخذ الأجر من البعض .

﴿وكأين من آية﴾ قال الخليل وسيبويه ان كأين أصلها (أي) دخل عليها كاف التشبيه لكنه انمحى عن الحرفين المعنى الافرادي وصار المجموع باسم واحد بمعنى كم الخبرية التكثيرية والأكثر ادخال من في مميزة وهو تمييز عن الكاف لا عن أي كما في مثلك رجلاً .

والمعنى كم من آية كائنة ﴿في السموات﴾ من كونها منصوبة بغير عمد مزينة بالكواكب النيرة السيارة والثوابت ﴿والأرض﴾ من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه ، وأنه الخالق لذلك والرازق له المحيي المميت .

قال الضحاك : كم من آية في السماء ، يعني شمسها وقمرها ، ونجومها وسحابها ، وفي الأرض ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور

ولكن أكثر النّاس ﴿يمرون عليها﴾ أي على هذه الآيات غير متأملين لها ولا متفكرين فيها ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه من وجود خالقها وأنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها ، وفي مصحف عبد الله يمشون عليها ، والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من الآثار والعبر .

﴿وهم عنها معرضون﴾ وان نظروا اليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة وهي التفكر والاعتبار والاستدلال .

﴿وما يؤمن﴾ أي ما يصدق ﴿أكثرهم﴾ أي أكثر الناس ﴿بالله﴾ من كونه الخالق الرازق المحيي المميت ﴿إلا وهم مشركون﴾ بالله يعبدون معه غيره .

أقول إن إيضاح ما تضمنه هذه الآية يتوقف على ايضاح ما ذكره أهل التفاسير المعتبرة وينحصر ذلك في وجوه اثني عشر ، وينضم الى ذلك ما ذكرته أنا فيكون الوجوه ثلاثة عشر .

الوجه الأول: ان أهل الجاهلية كانوا يقرون بأن الله سبحانه خالقهم ورازقهم ويعبدون غيره من أصنامهم وطواغيتهم ، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله كما قالوا ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى﴾ ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله . والمعتقدون في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه الا الله سبحانه كما يفعله كثير من عباد القبور .

فهذا الاقرار الصادر منهم بأن الله عز وجل خالقهم ورازقهم هو يصدق عليه انه ايمان بالمعنى الاعم أي تصديق لا بالمعنى الاخص أعني ايمان المؤمنين ، فهذا الايمان الصادر منهم واقع في حال الشرك فقد آمنوا حال كونهم مشركين ، والى هذا الوجه ذهب جمهور المفسرين ، ولكنهم لم يذكروا ما ذكرناه

ههنا من تقريره بكونه ايماناً بالمعنى الأعم ولا بد من ذلك حتى يستقيم الكلام ويصدق عليه مسمى الإيمان .

الوجه الثاني : ان المراد بالآية المنافقون لأنهم كانوا يظهرون الايمان ويبطنون الشرك فما كانوا يؤمنون ظاهراً الا وهم مشركون باطناً . وروي هذا عن الحسن البصري .

الوجه الثالث : انهم أهل الكتاب يؤمنون بكتابهم ويقلدون علماءهم في الكفر بغيره ويقولون المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، فهم يؤمنون بما أنزل الله على أنبيائهم حال كونهم مشركين .

الوجه الرابع: ان المقصود بذلك ما كان يقع في تلبية العرب من قولهم لبيك لا شريك لك الا شريكاً هو لك ، فقد كانوا في هذه التلبية يؤمنون بالله وهم مشركون . روي نحو ذلك عن ابن عباس .

الوجه الخامس: ان المراد بهذه الآية المراؤون من هذه الأمة لان الرياء هو الشرك المشار اليه بقوله صلى الله عليه وسلم : «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل»[1] فالمراؤون آمنوا بالله حال كونهم مشركين بالرياء . وأخرج أحمد في المسند من حديث محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال الرياء[2] ، يقول الله يوم القيامة : اذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء».

الوجه السادس: ان المراد بالآية من نسي ربه في الرخاء وذكره عند الشدائد روى ذلك عن عطاء ، وفيه انه لا يصدق على ذلك انه آمن بالله حال كونه مشركاً الا أن يجعل مجرد نسيان الذكر والدعاء عند الرخاء شركاً مجازاً كأنه بنسيانه وتركه للدعاء قد عبد إلهاً آخر وهو بعيد، على انه لا يمكن

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٣٦٢٤ .
(٢) أحمد بن حنبل ٥/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

اجتماع الأمرين لأنه حال الذكر والدعاء غير متصف بالنسيان وترك الذكر، وقد تقرر أن الحال قيد في عاملها الا أن يعتبر بما كان عليه الشيء فإن ذلك أحد العلاقات المصححة للتجوز، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون﴾.

الوجه السابع: أن المراد من أسلم من المشركين فإنه كان مشركاً قبل إيمانه حكم بذلك الحاكم في تفسيره وتقريره انه ما يؤمن أحدهم بالله الا وقد كان مشركاً قبل ايمانه والكلام فيه كالكلام في الوجه الذي قبله، والجواب الجواب.

الوجه الثامن: ان المراد بالشرك ههنا ما يعرض من الخواطر والأحوال حال الايمان، قاله الواسطي كما حكاه عنه البقاعي، وفيه أن هذه الخواطر والأحوال ان كانت مما يصدق عليه الشرك الأكبر أو الأصغر فذاك وان كانت خارجة عن ذلك فهو فاسد.

الوجه التاسع: انهم الذين يشبهون الله بخلقه، رواه الكشاف عن ابن عباس وتقريره انهم آمنوا بالله حال تشبيههم له بما يكون شركاً أو يؤول الى الشرك.

الوجه العاشر: هو ما تقوله القدرية من اثبات القدرة للعبد حكاه النسفي في مدارك التنزيل. وتقريره انهم آمنوا بالله حال اثباتهم ما هو مختص به لغيره وهو شرك أو منزل منزلة الشرك.

الوجه الحادي عشر: ما قاله محيي الدين بن عربي في تفسيره أن أكثر الناس انما يؤمنون بغير الله ويكفرون بالله دائماً، ففي بعض الأحيان يشركون الله سبحانه مع ذلك الإلـه الذي هم مؤمنون به فلا يؤمن أكثرهم بالله الا حال كونه مشركاً، وفيه أن ظاهر النظم القرآني ان الايمان بالله والشرك بتشريك غيره معه لا يكون الا بتشريكه مع غيره وبين المعنيين فرق.

الوجه الثاني عشر: ذكره ابن كثير في تفسيره، وهو أن ثمة شركاً خفياً

لا يشعر به غالب الناس ممن يفعله ، كما روى عن حذيفة انه دخل على مريض يزوره فرأى في عضده سيراً فقطعه وانتزعه ثم قال : «وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون» وفي الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن ابن عمر مرفوعاً «من حلف بغير الله فقد أشرك»(١) .

وأخرج أحمد وأبو داود من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان الرقى والتمائم والتولة شرك»(٢) وفي لفظ لهما : الطيرة شرك وما منا الا . ولكن الله يذهبه بالتوكل .

وروى أحمد في المسند عن عدي بن عبد الرحمن قال دخلت على عبد الله ابن حكيم وهو مريض فقيل له لو تعلقت فقال أتعلق شيئاً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من تعلق شيئاً وكل إليه»(٣)، ورواه النسائي عن أبي هريرة .

وفي المسند عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من علق تميمة فقد أشرك»(٤) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه)(٥).

وروى أحمد وغيره من حديث غيره ؛ وفي المسند أيضاً من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك قالوا يا رسول الله ما كفارة ذلك قال ان يقول أحدهم : «اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك»(٦).

وأخرج أحمد من حديث أبي موسى قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٦٠٨٠ .
(٢) صحيح الجامع الصغير/ ١٦٢٨ .
(٣) ابن كثير ٢/٤٩٤ .
(٤) صحيح الجامع الصغير ٦٢٧٠ .
(٥) مسلم ٢٩٨٥ .
(٦) صحيح الجامع الصغير ٦١٤٠ .

وسلم ذات يوم فقال يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل ، ثم قالوا له كيف نجتنبه وهو أخفى من دبيب النمل ؟ قال قولوا: «اللهم انا نعوذ بك ان نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه» وقد روي من حديث غيره[1] .

إذا عرفت ما تضمنته كتب التفسير من الوجوه التي ذكرناها وعرفت تقريرها على الوجه الذي قررناه فاعلم ان هذه الأقوال إنما هي اختلاف في سبب النزول وأما النظم القرآني فهو صالح لحمله على كل ما يصدق عليه مسمى الايمان مع وجود مسمى الشرك ، والاعتبار بما يفيده اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر في مواطنه .

فيقال مثلاً في أهل الشرك انه ما يؤمن أكثرهم بأن الله هو الخالق الرازق الا وهو مشرك بالله بما يعبده من الأصنام ، ويقال فيمن كان واقعاً في شرك من الشرك الخفي وهو من المسلمين انه ما يؤمن بالله إلا وهو مشرك بذلك الشرك الخفي ، ويقال مثلاً في سائر الوجوه بنحو هذا على التقرير الذي قررناه سابقاً ، وهذا يصلح ان يكون وجهاً مستقلاً وهو أوجهها وأرجحها فيما أحسب وان لم يذكره أحد من المفسرين .

فما قيل من انه يشكل وجود اتصافهم بالإيمان في حال تلبسهم بالشرك استشكال واقع موقعه ، وسؤال حال محله ، وجوابه قد ظهر مما سبق فإنه يقال مثلاً ان أهل الجاهلية كان ايمانهم المجامع للشرك هو مجرد الاقرار بأن الله هو الخالق الرازق وهو لا ينافي ما هم عليه من الشرك .

وكذلك يقال ان أهل الاسلام كان شرك من وقع منهم في شيء من الشرك الخفي الأصغر غير مناف لوجود الايمان منهم لأن الشرك الأصغر لا يخرج به فاعله عن مسمى الايمان ولهذا كانت كفارته ان يتعوذ بالله من ان يشرك وان يقول في الطيرة اللهم لا طير إلا طيرك ولا إله غيرك .

---

(١) احمد بن حنبل ٤/٤٠٢ .

أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

فقد صح بهذا انه اجتمع الايمان الحقيقي والشرك الخفي في بعض المؤمنين ، واجتمع الايمان بالمعنى الأعم والشرك الحقيقي في أهل الجاهلية ، وكذا يقال في أهل الكتاب انه اجتمع فيهم الإيمان بما أنزل الله على أنبيائهم والاشراك بجعل بعض المخلوقين أبناء لله عز وجل وهكذا في بقية الوجوه .

﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ الاستفهام للانكار والغاشية ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقيل هي الساعة ، وقيل الصواعق والقوارع ، وقيل وقيعة تغشاهم ، قاله قتادة ، وقيل نقمة تشملهم ولا مانع من الحمل على العموم .

﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾ أي فجأة من غير سابقه علامة والنصب على الحال قال المبرد جاء عن العرب حال بعد نكرة وهو قولهم وقع أمر بغتة يقال بغتهم الأمر بغتاً وبغتة إذا فاجأهم .

﴿وهم لا يشعرون﴾ باتيانها قيل تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم غير مستعدين لها .

﴿قل﴾ يا محمد للمشركين ﴿هذه﴾ الدعوة التي أدعو اليها والطريقة

التي أنا عليها ﴿سبيلي﴾ طريقي وسنتي وفسر ذلك بقوله : ﴿أدعو إلى الله على بصيرة﴾ أي على حجة واضحة والبصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل ﴿أنا ومن اتبعني﴾ أي ويدعو اليها من اتبعني واهتدى بهديي ، قال الفراء : والمعنى ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو.

وفي هذا دليل على ان كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حق عليه ان يقتدي به في الدعاء إلى الله أي الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده ، قال ابن الأنباري : ويجوز ان يتم الكلام عند قوله أدعو إلى الله ، ثم ابتدأ فقال على بصيرة أنا ومن اتبعني ، قال قتادة على بصيرة أي على هدى .

﴿و﴾ أسبح ﴿سبحان الله﴾ أي وأنزه تنزيهاً له عما لا يليق بجلاله من جميع النقائص والشركاء والاضداد والانداد ﴿وما أنا من المشركين﴾ بالله الذين يتخذون من دونه أنداداً .

﴿وما أرسلنا من قبلك﴾ هذا رد على من قال لولا أنزل عليه ملك أي لم نبعث من الأنبياء إلى من قبلهم ﴿إلا رجالاً﴾ لا ملائكة أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، قاله ابن عباس ، فكيف ينكرون إرسالنا إياك ، وتدل الآية على ان الله سبحانه لم يبعث نبياً من السماء ولا من الجن ، وهذا يرد على من قال ان في النساء أربع نبيات حواء وآسية وأم موسى ومريم .

وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمراً معروفاً عند العرب حتى ، قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبئة :

أضحت نبيتنا انثى فطيف بها وأصبحت أنبياء الله ذكرانا
فلعنة الله والأقوام كلهم على سجاح ومن باللوم أغرانا

﴿نوحي إليهم﴾ كما نوحي إليك،وقرىء بالياء مبنياً للمفعول ﴿من أهل القرى﴾ أي المدائن والأمصار دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو

ولكون أهل الأمصار أتم عقلاً وأكمل حلماً وأحسن علماً وأجل فضلاً .

قال قتادة : ما نعلم ان الله أرسل رسولاً قط إلا من أهل القرى لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل المعمور ، وقال الحسن : لم يبعث نبي من بدو ولا من الجن ولا من النساء .

﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ أفلم يسر هؤلاء المشركون المنكرون لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم وما حل بهم من عذاب الله حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب . قال الحسن : أي كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح والأمم التي عذبها .

﴿ولدار﴾ الساعة ﴿الآخرة﴾ أو الحالة الآخرة أو الحياة الآخرة على حذف الموصوف . وقال الفراء : إن الدار هي الآخرة ، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة وصلاة الأولى ومسجد الجامع ، والكلام في ذلك مبين في كتب الإعراب ، والمراد بهذه الدار الجنة ، وقرىء للدار الآخرة ﴿خير﴾ من دار الدنيا ﴿للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾ على الخطاب ، وقرىء بالتحتية أي يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنوا .

﴿حتى﴾ غاية لمحذوف دل عليه الكلام ، وتقديره وما أرسلنا من قبلك يامحمد إلا رجالاً ولم نعاجل أممهم الذين لم يؤمنوا بما جاءوا به بالعقوبة حتى ﴿اذا استيأس الرسل﴾ عن النصر بعقوبة قومهم ، أو حتى إذا استيأسوا من إيمان قومهم لانهماكهم في الكفر ، وقدره القرطبي إلا رجالاً ثم لم نعاقب أمتهم حتى إذا ، وقدره ابن الجوزي إلا رجالاً فدعوا قومهم فكذبوهم وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى إذا ، وقدره الزمخشري إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى ؛ وأحسنها ما قدمته . وقال الواحدي : حتى هنا من حروف الابتداء يستأنف بعدها .

﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قرأ جماعة من الصحابة وتابعيهم والكسائي والفراء بالتخفيف مبنياً للمفعول ، أي ظن القوم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا .

وقيل المعنى ظن القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من النصر ، وقيل المعنى وظن الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم أو كذبهم رجاؤهم النصر ، وقرأ الباقون كذبوا بالتشديد .

والمعنى عليها واضح ، أي ظن الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب ، ويجوز في هذا أن يكون فاعل ظن القوم المرسل إليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد ، وقرأ مجاهد وحميد قد كذبوا بالتخفيف معروفاً على معنى وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا . وقد قيل إن الظن في هذه الآية بمعنى اليقين لأن الرسل قد تيقنوا أن قومهم كذبوهم ، وليس ذلك مجرد ظن منهم ، والذي ينبغي أن يفسر الظن باليقين في مثل هذه الصورة ، ويفسر بمعناه الأصلي فيما يحصل فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة ، وقد أطال الخازن والخفاجي في بيان معنى هذه الآية بما ليس في ذكره كثير فائدة وفيما ذكرناه مقنع وبلاغ .

﴿جاءهم نصرنا﴾ أي فجاء الرسل نصر الله سبحانه فجأة او جاء قوم الرسل الذين كذبوهم نصر الله لرسله بايقاع العذاب على المكذبين .

وأخرج البخاري وغيره من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قول الله سبحانه حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا قال : قلت أكذبوا أم كذبوا يعني هل هذه الكلمة مخففة او مشددة؟ فقالت بل كذبوا تعني بالتشديد ، قلت والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن ، قالت أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة ، قالت معاذ الله !

تكن الرسل لتظن ذلك بربها قلت فما هذه الآية قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك .

وقال ابن عباس : كذبوا مخففة يقول اخلفوا وكانوا بشراً حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، قال عروة : عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته وقالت : والله ما وعد الله رسوله من شيء إلا علم انه سيكون قبل أن يموت ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم ، وكانت تقرأها مثقلة .

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ مخففة أخرجه ابن مردويه من طريق عكرمة ، وعن ابن عباس ايضاً أنه كان يقرأ قد كذبوا مخففة وقال : يئس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم بما جاؤهم به جاؤوهم نصرنا أي الرسل ، وبها قرأ ابن مسعود قال : استيأس الرسل من ايمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين ابطاء النصر أنهم قد كذبوا ، وقال حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سورة يوسف أنهم قد كذبوا مخففة ، وللسلف في هذا كلام يرجع إلى ما ذكرناه من الخلاف عن الصحابة .

﴿فنجى من نشاء﴾ من عبادنا عند نزول العذاب بالكافرين والذين نجاهم الله هم الرسل ومن آمن معهم وهلك المكذبون ﴿ولا يرد بأسنا﴾ أي عذابنا عند نزوله ﴿عن القوم المجرمين﴾ المشركين . قال ابن عباس : وذلك أن الله بعث الرسل يدعون قومهم فأخبروهم أن من أطاع الله نجا ، ومن أعرض عُذب وغوى ، وفيه بيان من يشاء الله نجاته من العذاب وهم من عدا هؤلاء المجرمين .

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

﴿لقد كان في قصصهم﴾ أي قصص الرسل ومن بعثوا إليهم من الأمم أو في قصص يوسف عليه السلام واخوته وأبيه قاله مجاهد ﴿عبرة﴾ هي الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة ، وقيل هي نوع من الاعتبار وهي العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول ﴿لأولي الألباب﴾ هم ذوو العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم .

وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الاخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الرسل الذين قص حديثهم ومنهم يوسف عليه السلام وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم، وعبارة الكرخي وجه الاعتبار بقصصهم أنه قال في أول السورة ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ ثم قال ههنا لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب وذلك تنبيه على أن حسن هذه القصة إنما هو لأجل حصول العبرة منها ومعرفة الحكمة والقدرة .

﴿ما كان﴾ هذا المقصوص الذي يدل عليه ذكر القصص أو القرآن المشتمل على ذلك المتقدم ذكره في قوله إنا انزلناه قرآناً عربياً ﴿حديثاً يفترى﴾ قال قتادة : الفرية الكذب ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ من الكتب المنزلة كالتوراة والانجيل والزبور ، وقيل هو تصديق ذلك كله ويشهد عليه أن جميعه حق من عند الله .

﴿وتفصيل كل شيء﴾ من الشرائع المجملة المحتاجة إلى تفصيلها لأن الله

سبحانه لم يفرط في الكتاب من شيء من الاحكام والحدود والقصص والمواعظ والأمثال وغير ذلك .

وقيل تفصيل كل شيء من قصة يوسف عليه السلام مع اخوته وأبيه وقيل وليس المراد به ما يقتضيه من العموم بل المراد به الأصول والقوانين وما يؤول اليها ، قال قتادة : فصل الله بين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ، وقيل ما من شيء من أمر ديني إلا وله مستند في القرآن بواسطة أو بغير واسطة .

﴿وهدى﴾ في الدنيا يهتدي به كل من أراد الله هدايته ﴿ورحمة﴾ في الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه بشرط الايمان الصحيح ولهذا قال ﴿لقوم يؤمنون﴾ اي يصدقون به وبما تضمنه من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره ، وأما من عداهم فلا ينتفع به ولا يهتدي بما اشتمل عليه من الهدى فلا يستحق ما يستحقونه .




خاتمة الجزء السادس.
تم بعون الله الجزء السادس من فتح البيان في
مقاصد القرآن ويليه الجزء السابع وأوله
تفسير سورة الرعد.
الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ
مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾



فهرس الجزء السادس

تمّ الفهرس والحمدلله رب العالمين

